المكتبة الشرقية

يعقوب بن الليث الصفار



ألفه بالفارسية

الدكتور ابراهيم باستانى باريزى

أستاذ التاريخ بجامعة طهران

ترجمه وقدم له وعلق عليه

الدكتور محمد فتحي يوسف الريس

أستاذ اللغة الفارسية وآدابها المساعد
بكلية الآداب بجامعة القاهرة

الناشر

دار الرائد العربي

المكتبة الشرقية

يعقوب بن الليث الصفار

ألفه بالفارسية
الدكتور ابراهيم باستاني باريزي
أستاذ التاريخ بجامعة طهران

ترجمه وقدم له وعلق عليه
الدكتور محمد فتحي يوسف الريس
أستاذ اللغة الفارسية وآدابها المساعد
بكلية الآداب بجامعة القاهرة

الناشر
دار الرائد العربي

نشر هذا الکتاب بالتعاون
مع

بنیاد فرهنگ ایران

ریاست افتخاری
علیاحضرت فرح پهلوی شهبانوی ایران
نیابت ریاست
والاحضرت شاهدخت اشرف پهلوی



مقدمة المترجم

يتناول هذا الكتاب تاريخ يعقوب بن الليث الصفّار ، أو تاريخ الصفاريين بصفة عامة فى خلال القرن الثالث الهجرى ، وهى وإن كانت فترة قصيرة من الزمن نسبياً إلا أنها عريضة فى أحداثها التاريخية .

ولا يستطيع أحد أن ينكر بطولة يعقوب وعبقريته التى مكنته من أن يصبح حاكما على أغلب بلاد إيران وأفغانستان ، وأن يمد نفوذه إلى شبه القارة الهندية ، وهو الصفار الذى نشأ فى إحدى قرى سيستان أفقر أقاليم إيران لليوم .

ولعل سيستان لم تنجب فى تاريخها الطويل شخصية كيعقوب الذى يعد من أبرز أبطال إيران ، فهو أول من استطاع أن يقيم دولة فارسية لا تخضع للخليفة العباسى ولا لغيره ، بل إنه — على ما يبدو — حاول القضاء على الخلافة نفسها وغزو عاصمتها بغداد .

وكانت هذه الفترة التى شهدت ظهور يعقوب ، قد شهدت أيضاً بداية الصراع بين العباسيين أنفسهم على الخلافة ، ويروى لنا التاريخ أن اختلاف زعماء المسلمين وتصارعهم هو بداية النهاية لحكمهم ولدولهم ، وهو الذى يشجع على ظهور أعدائهم عليهم وتمكنهم منهم بل واحتلال بلادهم أيضاً والأمثلة على هذا تفوق العد والحصر :

فالدولة الأموية مثلا ـ ظلت قوية إلى أن بدأ الصراع بين الأمويين أنفسهم على منصب الخلافة من ناحية، وبين رؤساء القبائل العربية والخلفاء من ناحية أخرى على مناصب الدولة الهامة ، فالصراع بين اليمانية والعدنانية من ناحية وبين الخلافة الأموية من ناحية أخرى هو الذى قضى على الأمويين . من ذلك أن الخليفة الأموى الوليد عندما قتل خالد بن عبدالله

القَسْرى رئيس اليمانيـــة قال يوبخ اليمن ويقرّعها ويذكر خالداً ويفتخر بنزار فى قصيدة طويلة منها :

شددنا ملكنا ببنى نزار　　وقوّمنا بهم من كان مالا
وهذا خالد فينا أسيراً　　ألا منعوه إن كانوا رجالا
عميدهم وسيدهم قديماً　　جعلنا المخزيات له ظلالا

فسار اليمانية إلى الوليد وقتلوه ، وأخذوا ابنيه وليّى عهده وهما الحكم وعثمان وقتلوهما بعد ذلك وقالوا :

من مبلغ قيساً وخندف[1] كلها　　وساداتها من عبد شمس وهاشم
قتلنا أمير المؤمنين بخالد　　وبعنا وليّى عهده بالدراهم[2]

وقد انضم بعض زعماء اليمانية لأبى مسلم الخراسانى فى محاربته للأمويين كما أن قحطبة الطائى حمل على بنى جنسه ـ العرب ـ وحرض عليهم الإيرانيين قائلا « إن الله قد سلطكم عليهم لكى تنتقموا منهم »[3] .

وكانت النتيجة أن ضعفت الدولة الأموية واستطاع العباسيون الإطاحة بها ، وفرّ مروان بن محمد آخر خلفائهم إلى مصر حيث قتل بها . ولم يكتف العباسيون بهذا بل نبشوا قبور الخلفاء الأمويين ـ إلا قبر عمر بن عبد العزيز ـ ومثلوا برفاتهم ، كما قتلوا كل من وجد حياً منهم[4] .

---

(١) خندف هو كل من يرجع نسبه الى الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان لأن أم أولاده خندف وهى ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ويرجع الى خندف أبطن عدة مثل مزينة ، الرباب ، ضبة ، صوفة ، الشعيرا ، تميم هذيل ، أ د ، القارة ، كنانة ، قريش .

(٢) التنبيه والاشراف ، المسعودى ص ٣٢٢

(٣) الكامل ، حوادث عام ١٣٠

(٤) حبيب السير ، ج ٢ ص ٢٠١ و ٢٠٢

كما أن زوال الدولة الإسلامية فى الأندلس يرجع إلى انقسام المسلمين على أنفسهم هناك، ومحاربتهم بعضهم بعضاً مما شجع الأسبان على قتالهم واسترداد البلاد منهم وإجلائهم عنها واستعادتها كلها .

ولم تكن الدولة العباسية أسعد حالا من سابقتها ، فقد ظهر إبان فترة حكمها الطويل أمراء استطاعوا الاستقلال بولاياتهم أمثال يعقوب الصفار — موضوع هذا الكتاب — وحسن بن زيد العلوى ، فى طبرستان وبلاد الجبل ، وغيرهم ممن كانوا سبباً فى تمزيقها وإضعاف شوكتها ، ولعل الإشارة العاجلة فى هذا الكتاب ، تكفى للدلالة على مدى ما وصلت إليه حال الخلفاء من ضعف وهوان .

بدأ الصراع بين العباسيين بالنزاع بين الأمين والمأمون ذلك النزاع الذى انتهى بقتل الخليفة الأمين على يد أحد قواد أخيه المأمون وهو طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعى — أحد الموالى من الفرس — وكان من نتيجة هذا أن منح ولاية خراسان وسيستان وغيرها من بلاد شرق إيران ووسطها ، ولم يكد طاهر يصل إلى خراسان حتى أسقط اسم الخليفة من خطبة الجمعة واكتفى بأن قال فى الدعاء « اللهم أصلح أمة محمد بما أصلحت به أولياءك واكفها شر من بغى عليها وحسد بلم الشعث وحقن الدماء وإصلاح ذات البين »[1] .

وكان هذا يعنى بداية استقلال طاهر بخراسان ، وقد أسرع صاحب بريد خراسان بكتابة رسالة إلى الخليفة ينبئه فيها بما حدث ، ولكنه استدعى فى صباح اليوم التالى إلى دار الإمارة فى نيسابور لكى يكتب رسالة أخرى إلى الخليفة يخبره فيها بوفاة طاهر بن الحسين فى مساء نفس اليوم الذى أسقط فيه اسم الخليفة من الخطبة .

ورغم أن طاهراً كان قد أسقط اسم المأمون من الخطبة إلا أن الخليفة أرسل إلى ابنه طلحة يعينه مكان أبيه ، ولا نستطيع أن نفسر الدوافع التى جعلت المأمون يقر طلحة على إمارة خراسان ، هل هو ضعف الخليفة ؟ أم هو عرفانه بجميل الطاهريين عليه ؟ أم

---

(١) حبيب السير ، ج٢ص ٢٠١

هو الشعور بعقدة الذنب لقتل أخيه الأمين فأراد أن يبعد قاتله وأبناءه عن نظره فى بغداد فأبعدهم إلى خراسان ؟

على أية حال ، فقد بقيت ولاية خراسان وتوابعها وراثة فى الطاهريين إلى أن استطاع يعقوب القضاء عليهم كما سنرى .

وتعد الدولة الطاهرية اول دولة مستقلة قامت فى إيران وتولاها أمراء من أصل إيرانى ، ويعدها الإيرانيون بداية لاستعادة قوميتهم التى قضى عليها الفتح الإسلامى عام ٢١ هـ .

وقد توالى منذ عصر المأمون ظهور الخوارج والعصاة فى أنحاء الخلافة الإسلامية وأطرافها ، فقد ظهر بابك الخرّمى فى آذربيجان سنة ٢٠١ هـ ، وكان يدعو لدين جديد وقتل كثيراً من المسلمين يقدر عددهم بنحو مليون شخص إلى أن قتل سنة ٢٢٣ هـ . ثم تلاه مازيار بن قارن فى طبرستان سنة ٢٢٤ هـ وكان هدفه القضاء على الدين الإسلامى فى مازندران وطبرستان وإعادة الديانة الزردشتية من جديد ولكنه هزم ثم قتل فى سامراء سنة ٢٢٥ هـ . ثم كان خروج حمزة وعمار بن ياسر ويعقوب بن الليث فى سيستان واستيلاؤهم على أغلب مناطق إيران ، وعاصر خروج يعقوب قيام الداعى الكبير فى طبرستان .

ولم يقتصر الأمر على خروج الأمراء والقواد والعصاة ، بل ان الزنج أيضاً تجمعوا وثاروا ضد الخلافة واحتلوا البصرة ومناطق واسعة من جنوب العراق ، وعاثوا فى الأرض فساداً ولم يتورعوا عن القتل والسلب والنهب وهتك الحرمات إلى أن قتل زعيمهم عام ٢٧٠ هـ(١) .

---

(١) يفسر الشيوعيون هذه الحركات على أنها انتفاضات شعبية وحركات إصلاح وتقدم رغم الخرابه والدمار والقتل ، وهتك الأعراض الذى كان يصاحب هذه الحركات .

ولا ندّعى أنه لم يحدث قبل المأمون خروج على الخلافة ، بل كانت هناك محاولات ولكنها أخمدت فى مهدها وووجهت بالحزم والقوة التى كانت تعيد الأمور إلى نصابها ، ولم يتورع الخلفاء العباسيون فى عصور قوتهم عن التنكيل بأى شخص قد تبدر منه بادرة عصيان ، فقد قتلوا أبا سلمة الخلال أول وزرائهم وكان من أصل إيرانى ، ثم قتلوا بعده أبا مسلم الخراسانى وهو الذى قاد بعض كفاحهم ضد الأمويين للوصول إلى الخلافة ، وقضوا على أسرة البرامكة على ما كان لها من نفوذ ضخم وسلطان عظيم ، ولم يجبن هارون الرشيد عن التنكيل بهم لهفوة بسيطة ، وهذا يدل على مدى سطوة هؤلاء الخلفاء وسيطرتهم على أجهزة الخلافة إذا قورن بما حدث للخلفاء بعد المعتصم .

ولقد عاصر قيام يعقوب وثورته بداية تسلط العبيد والغلمان الأتراك على الخلافة فى بغداد واحتلالهم للمناصب الهامة فيها وإقصاء العرب والفرس الذين كانوا يحتلون هذه المناصب قبل ذلك . وقد تجرأ هؤلاء الأتراك على الخلفاء أنفسهم ، يعزلونهم ويضربونهم ويعذبونهم أو يقتلونهم ، بل لقد تطاول الأتراك على حرمات الخلفاء ، فحينما قتل الخليفة المعتز بعد خلعه بأيام ، أختفت أمه قبيحة وهى أم ولد رومية سميت قبيحة من أسماء الأضداد لجمال صورتها — فلما ظهرت صادرها الصالح بن وصيف (أحد القواد الأتراك) وأخذ منها أموالا عظيمة ثم نفاها إلى مكة ، وكان مما أخذ منها ابن وصيف ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ، وأخذ منها من الجواهر ما قيمته ألفا ألف دينار (مليونى دينار) ، فلما رأى ابن وصيف هذا المال قال « قبح الله قبيحة »[1] .

أى مهانة أكبر من هذه؟ أى ضعف للخلفاء هذا ؟ يتطاول العبيد على سادتهم وهم من هم ! خلفاء المسلمين ، ويفعلون بهم هذه الأفاعيل وهم لا يستطيعون عن أنفسهم دفاعاً !

وقد وجد يعقوب فرصته الذهبية فى صراع العباسيين وتطاحنهم على الخلافة وانشغالهم بها عما يتهدد دولتهم من أخطار ، فأخذ يصول ويجول فى خراسان وكرمان وفارس واستولى عليها ، ثم طمع فى دخول بغداد نفسها ولولا الاتفاق بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ٣ ص ٢٢ و ٢٣

ولجوئهما للحيلة والمكيدة لاستطاع يعقوب دخول بغداد . ولا أحد يعلم ماذا كان سيفعل فيها ، هل كان سيعزل المعتمد ويولّي الموفق تنفيذاً للاتفاق السرى بينهما ؟ أم هل كان سيقضى على الخلافة نفسها ! هل كان سيعيد إليهـا هيبتها وعظمتها ويخلصها من نفوذ الأتراك ، وهو المتعصب لدينه والذى كان يصلى مائة وسبعين ركعة فى اليوم ! لا أحد يدرى لأن من صفات يعقوب البارزة أنه لم يكن يطلع أحداً على ما فى نيته أو ما انطوت عليه سريرته .

ومع كل الفتوحات التى قام بها يعقوب ، والانتصارات التى حققها والمركز الذى تبوأه فى عصره ، إلا أن حياته كانت كبرق لمع فى سماء سيستان فكاد سنا برقه يخطف الأبصار ، ولم يبق من أثر بعده إلا كما يتردد صدى الرعد فى جنبات السكون ، فلم تبق لنا إلا أصداء فتوحاته وبطولاته تتردد فى صفحات التاريخ فنحاول من خلالها أن نستجلى غوامض هذه الشخصية البارزة التى نشأت من أدنى طبقات الناس ، ووصلت إلى أعلى ما يطمح إليه إنسان فالدولة الصفارية لم تعمر بعده إلا سنوات قليلة حتى قضى عليهـا السامانيون فى عهد أخيه وخليفته عمرو بن الليث الصفار وتحول ملكهم إلى إمارة تابعة لهم .

لم يترك يعقوب أثراً بارزاً يخلده أو يخلد سيستان نفسها ، فإن كل الأموال التى حملها إليها من كل ناحية ، من أقصى طبرستان فى الشمال إلى أدنى السند فى الجنوب ، ومن كابل فى أقصى الشرق إلى فارس فى أقصى الغرب ، لم تضف شيئاً إلى سيستان ولم تستطع أن تغير من طبيعتها أو قسوة الحياة فيها . بل إن مدن سيستان التى شهدت مولد يعقوب ونشأته ، ثم شهدت عظمته وفتوحاته قد اندثرت أو اختفت تحت تلال الرمال المتحركة التى تهب عليها من صحراء لوت القاحلة القاتلة والتى ما زالت بعض مناطقها مجهولة إلى اليوم[1] ، وأصبح تعيين أماكن هذه المدن من الأمور التى تحتاج إلى كثير من البحث والتدقيق .

ومن الأحداث الهامة التى خلفها يعقوب ، قصته مع اللغة الفارسية والتى رددهـا وما زال رددها بعض مؤرخى الأدب الفارسى بكثير من المبالغة وإضفاء الصبغة الوطنية

---

(١) استعانت ايران اخيراً بالأقمار الصناعية ورحلات الفضاء لمعرفة أسرار هذه الصحراء

والنزعة التحررية عليها ، وهو ما سوف نرى أنه بعيد عن الحقيقة ، وأن ما استنتجوه من هذه الحادثة لم يكن هو ما قصده يعقوب .

بدأ فتح المسلمين لإيران مع بداية العام الثانى عشر للهجرة بقيادة المثنى بن حارثة ثم انضم إليه خالد بن الوليد بعد القضاء على الردة فى اليمامة ، وقد ظل المسلمون يقاتلون — بما يمكن أن يسمى اليوم بحرب الاستنزاف — حتى فتحوا المدائن (تيسفون) على شاطئ نهر دجلة الشرقى عام ١٦ هـ ، ثم قضوا على بقية جيش الفرس وقوتهم فى موقعة نهاوند عام ٢١ هـ وهى التى تسمى بفتح الفتوح حيث تفرق الجيش الفارسى أيدى سبا وفرّ آخر ملوكهم يزدجرد الثالث هائماً على وجهه حتى قتله طحان طمعاً فى أمواله وملابسه إذ كان الملك قد التجأ إلى طاحونته للمبيت لديه . فلما دخل المسلمون بلاد الفرس أبقوا على لغة الدواوين كما هى ، كما فعلوا فى كل البلاد المفتوحة إلى أن كان عصر هشام بن عبد الملك حين أمر بتغيير الدواوين إلى العربية ، وبهذا حلت العربية محل البهلوية (الفهلوية) ، وأصبحت اللغة الرسمية إلى جانب أنها كانت لغة الدين . وقد أقبل الفرس على تعلم العربية ولم يكد ينتهى القرن الأول حتى كان قد برع فيها أناس من الفرس واحتلوا فيها مراكز هامة أهلتهم لتولّى الكتابة للخلفاء أنفسهم كجبلة بن سالم وتلميذه عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وغيرهم .

وقد ظلت اللغة العربية تقوى فى إيران وتندثر فى مقابلها اللغة البهلوية — لغة الحكومة الفارسية البائدة — شيئاً فشيئاً ، أما اللهجات المحلية التى كان يتحدث بها الناس فيما بينهم وخاصة فى مناطق شرق إيران وبلاد ما وراء النهر فقد بقيت بعيدة عن مركز الخلافة وانتشار اللغة العربية وأخذت تتطور تحت تأثير اللغة العربية والقبائل العربية الكثيرة التى هاجرت واستقرت هناك ، وهناك قصص فى الأدب الفارسى أو فى ثنايا كتب التاريخ او الجغرافيا تشير إلى جمل أو أشعار فارسية بسيطة كانت تجرى على الألسنة فى بعض الأحداث كقصة يزيد بن مفرغ مع عباد بن زياد[1] .

---

(١) الأغانى ، قصه يزيد بن مفرغ الحميرى، جـ ١٧ ص ٥١ ومابعدها، البيان والتبيين، جـ ١ ص ١٠٩

وقد تمكنت اللغة العربية مكانة كبيرة فى إيران ، وأرست قواعدها حتى أصبحت لغة القوم هناك ، بها يتكلمون ويتناقشون ويكتبون وخاصة الطبقة المتعلمة من الناس ، والأدلة على هذا كثيرة ، فالصاحب بن عباد رغم أنه فارسى وكان وزيراً للبويهيين فى الرى ، إلا أن كل كتابته كانت باللغة العربية ، وكذلك بديع الزمان الهمدانى وغيره ممن يضيق المجال هنا عن حصرهم . ومما يدل على مدى انتشار اللغة العربية فى مدينة نيسابور عاصمة خراسان آنذاك تلك المناظرة التى جرت بين أبى بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمدانى والتى يروون من بين تفاصيلها أن المدينة انقسمت أثناءها بين مؤيد لهذا أو معارض لذاك ، رغم أن المناظرة كانت على أعلى مستويات اللغة العربية وآدابها وفنونها المختلفة مما يدل على إدراك غالبية أهل تلك المدينة لدقائق اللغة العربية ووقوفهم عليها .

ولا شك أن حروف اللغة العربية كانت أكثر سهولة فى الكتابة من الحروف البهلوية مما ساعد على سرعة انتشارها خصوصاً وأن الخط العربى أخذ يتطور منذ أواخر العصر الأموى وظهرت أشكال جديدة منه سهلت كتابته واستعماله .

فلما أخذ النفوذ السياسى العربى يضعف فى إيران ، أخذت بعض الأسر الفارسية والتركية تسيطر على بعض ولايات الخلافة العباسية فى إيران وبلاد ما وراء النهر مع الإبقاء على تبعيتها للخليفة ودفع الخراج له أمثال السامانيين والغزنويين والسلاجقة وغيرهم ،وكان هؤلاء لا يجيدون العربية مما دفعهم إلى قبول استعمال اللهجات التى كان يتحدث بها الناس كلغة رسمية فى الديوان إلى جانب اللغة العربية ، كما أنهم كلفوا وزراءهم وعلماء عصرهم بترجمة بعض الكتب التى كانوا يرغبون فى الاطلاع على ما بها إلى تلك اللهجات التى كانت شائعة ومتداولة كلغة عامية يفهمها الجميع ، وقد أطلق عليها اسم الفارسية أو الفارسية الدرية .

ويرجع بعض مؤرخى الأدب الفارسى تسمية اللغة الفارسية التى نشأت بعد الإسلام باللغة الدرية إلى أنها كانت لغة البلاط والديوان قبل الإسلام ، لأن البلاط أو الديوان فى اللغة الفارسية معناه « دركاه أو دربار » ، وينقلون ما جاء فى الفهرست لابن النديم عن لسان ابن المقفع حيث يقول « أما الدرية فلغة مدن المدائن ، وبها كان يتكلم من بباب

الملك وهى منسوبة إلى حاضرة الباب[1] »

وقد أورد حمزة الأصفهانى هذه الإشارة فى كتابه « التنبيه » كما ذكرها ياقوت الحموى فى معجم البلدان فى ذيل كلمة « فهلو » .

ولـكن هذا الرأى ، وما قال به ابن المقفع من أنها لغة البلاط الملـكى قبل الإسلام ولغة مدن المدائن التى كانت تقع على ضفاف نهر دجلة ، وعلى بعد نحو عشرين كيلومتراً جنوب بغداد (سلمان پاك حالياً) ، حيث كان البلاط « دربار » وأجهزة الدولة الساسانية التى قالوا إنها كانت تستخدم هذه اللغة قول غير دقيق . فالثابت والذى لا يختلف فيه اثنان أن ما يسمى الآن باللغة الدرية ، ظهرت أول ما ظهرت فى شرق إيران « ما وراء النهر وخراسان » أى على بعد نحو ألفين أو ثلاثة آلاف كيلومتر من المدائن ، فـكيف انتقلت هذه اللغة كل هذه المسافة ، وكيف وصل الدربار إلى هناك وظل محتفظاً بلغته نحو قرنين من الزمان؟ وأى بلاط هذا وقد رأينا البلاط الساسانى يتلاشى بعد الفتح الإسلامى للمدائن عام ١٦ هـ ثم بعد فتح الفتوح عام ٢١ هـ ؟

إن المقدسى يعطينا تفسيراً أوضح وأكثر قبولا ومنطقاً إذ يقول فى كتابه أحسن التقاسيم[2] : « وألسنتهم مختلفة ، أما لسان نيسابور ففصيح غير مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الـكلام ويزيدون الياء مثل « بيـگو ، بيشو » ويزيدون السين بلا فائدة مثـــل « بخردستى وبگفتستى وبخفتستى » وما يجرى مجراها ، وبعد رخاوة ولجاج . وأهل طوس ونسا أحسن لساناً ، وفى كلام سجستان تحامل وخصومة ويخرجونه من صدورهم ويجهرون فيه . ولسان بست أحسن ولا بأس بلسان المروين[3] ، غير أن فيه تحاملا وطولا ومداً فى أواخر الـكلم ، ألا ترى أهل نيسابور يقولون « براى اين » وهم يقولون « بتروناين » ويعنى من أجل هذا ، فقد زادوا حرفاً . فتأمل هذا الضرب تجده كثيراً . ولسان بلخ

(١) الفهرست لابن النديم ، ص ١٩

(٢) أحسن التقاسيم ، المقدسى ص ٣٣٤

(٣) هما مرو الرودد ومرو الشاهجان فى خراسان .

أحسن الألسن ألا أن فيه كلمات تستقبح ، ولسان هراة وحش تراهم يفقمون ويتكلفون ويتحاملون ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملوثاً بالكوة ... فهذه أصول ألسنة خراسان وغيرها تبع لها ومشتق منها وراجع إليها ، فلسان طوس ونسا قريب من النيسابورى ، ولسان سرخس وابيورد قريب من لسان مرو ، ولسان غرج الشار بين لسان هراة ومرو ، ولسان جوزجان بين المروزى والبلخى ، ولسان الباميان وطخارستان قريب من البلخى إلا أن فيهما انغلاقاً ، ولسان خوارزم لا يفهم ، وفى لسان البخاريين تكرار ألا ترى كيف يقولون « يكى ادرمى ورأيت يكى مردى » وغيرهم يقول أعطيت ادرمى ، وقس عليه ، ويكثرون من قول دانستى فى خلال كلامهم بلا فائدة ، غير أنها درية ، وإنما سمى ما جانسها دريا لأنها اللسان الذى تكتب به رسائل السلطان وترفع بها إليه القصص ، واشتقاقه من الدر وهو الباب يعنى أنه الكلام الذى يتكلم به على الباب » .

ولم يشر المقدسى إلى لسان أهل المدائن أو غرب إيران بصفة عامة ، لأن اللغة الدرية التى اشتهرت باسم الفارسيه نشأت كما نرى فى شرق إيران وما وراء النهر ، ويعلل المقدسى تسمية ما جانسها بالدرية لأنها اللسان الذى تكتب به رسائل السلطان وترفع بها إليه القصص واشتقاقه من الدر وهو الباب أى باب السلطان كناية عن ديوانه .

وعلى هذا فالمقدسى يرجع التسمية إلى بلاط السلاطين ، والسلطان من الألقاب التى نشأت بعد الإسلام ، وليس قبل الإسلام ، أى أن الدرية التى تحدث عنها لم تنسب إلى الملوك الساسانيين ولم تكن لغة بلاطهم الذى كان موجوداً فى المدائن على ضفاف دجلة كما يحاول البعض القول بأن هذه اللغة ما هى إلا امتداد للغة التى كانت مستعملة قبل الإسلام فى هذه الأماكن .

وقد يقول قائل « أليست هناك صلة بين اللغة الدرية التى نشأت بعد الإسلام واللغة أو اللغات التى كانت مستعملة فى المدائن سواء فى الديوان أو كلغة حديث ؟ »

نقول لا شك أن هناك صلة ، بل إنها لصلة قوية ، إذ أن اللغة البهلوية التى كانت اللغة الرسمية قبل الإسلام فى المدائن هى إحدى لغات المجموعة الآرية التى تنتمى إليها كل اللهجات

التى ذكرها المقدسى ، وترجع كلها إلى أصل واحد اشتقت منه أو تفرعت عنه . ولهذا تجمع بينها وجوه من الشبه ووشائج من القربى .

ونخلص من هذا إلى أن اللغة الفارسية التى ظهرت بعد الإسلام هى لغة نشأت من اللهجات المحلية المتبقية فى شرق إيران «ما وراء النهر وخراسان» بعد أن اختلطت وتأثرت باللغة العربية واستخدمت حروفها العربية ، وأنها ليست لغة بلاط ملوك إيران قبل الإسلام أو اللغة التى كانت تستخدم فى قصورهم وفى ظل هذا نستطيع أن نقول إن ما ذكره ابن المقفع عن تسمية هذه اللغة لا ينطبق على الفارسية الإسلامية لأنها لم تكن قد ظهرت بعد فى زمن ابن المقفع أو أصبحت لغة مكتوبة أو رسمية ، فابن المقفع قتل حوالى عام ١٤٢ هـ بينما أقدم الأشعار التى لدينا ترجع إلى منتصف القرن الثالث ، وأقدم الكتب النثرية يرجع إلى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ولهذا فابن المقفع إنما يقصد الفارسية القديمة أو لغة المدائن قبل الإسلام لأن المدائن فى عصره كانت قد أصبحت من توابع بغداد ، ولا يجب أن يؤخذ تعريفه هذا أو يمتد إلى لغة المشرق التى ظهرت واستخدمت بعد وفاته بنحو قرن أو قرنين من الزمن وعلينا أن نأخذ بالتعريف الذى أورده المعاصرون لنشأة هذه اللغة أو تداولها واستعمالها كلغة رسمية ، أو أتوا بعد ذلك .

ويمكن القول أيضاً إن اللغة التى كانت تستعمل كلغة رسمية فى الديوان كانت تسمى اللغة الدرية أى لغة البلاط أو الديوان ، فاللغة الدرية قبل الإسلام كانت لغة البلاط الساسانى كما أن الدرية بعد الإسلام قصد بها اللغة التى « تكتب بها رسائل السلطان وترفع بها إليه المظالم والحاجات » ، فهى تسمية عامة كانت تطلق على لغة الديوان ولا تدل على أصل اللغة أو منشئها ومما لا شك فيه أن اللغتين ـ الدرية قبل الإسلام ، والدرية بعد الإسلام ـ تختلفان فيما بينهما لأن الأولى كانت من البهلوية الساسانية أو الجنوبية ، بينما كانت الدرية بعد الإسلام متطورة عن البهلوية الشمالية ولهجات الشمال والشرق حيث نشأت وظهرت لأول مرة بعد الإسلام ثم انتشرت وعمت فى كل أنحاء البلاد .

ولا أتفق مع من يقول إن الدرية أو الفارسية بعد الإسلام كانت لغة البلاط الساسانى

فى المدائن وأنها انتقلت إلى شرق إيران مع فلول جيش يزدجرد الثالث أو حتى بلاطه وديوانه الذى تشتت فى مدن شرق إيران[1]. فلا أعتقد أن فلول جيش تستطيع أن تغيير لغة منطقة شاسعة مترامية الاطراف كشرق إيران فى ذلك الوقت وتجعل أهل عشرات من المدن المتباعدة وآلاف القرى المبعثرة بين الجبال والوديان يهجرون لغتهم ويتحدثون بلغة عشرات من الجنود نزلوا فيما بينهم لاجئين أو مختبئين من ملاحقة جيش المسلمين لهم بل العكس هو الصحيح حيث يتعلم القادم لغة الناس الذين ينزل بينهم .

ونبحث الآن عن سبب استخدام اللغة الفارسية وما الذى أدى إلى ظهورها بجانب اللغة العربية .

إذا تتبعنا أغلب الكتب التى كتبت باللغة الفارسية بعد الإسلام فإنها تعطينا الجواب على هذا التساؤل . فالمعروف أن أقدم الكتب الفارسية التى وصلتنا هو « رسالة درفقه حنفى » الذى كتبه أبو القاسم محمد السمرقندى المتوفى سنة ٣٤٣ هـ ، أى أن تاريخ كتابة هذا الكتاب لابد أن تكون قبل هذا التاريخ . ولا شك فى أن سبب كتابة هذا الكتاب بالفارسية هو أن القوم فى تلك البلاد كانوا فى حاجة إلى كتاب بلغتهم التى يتمكنون منها ، يقفون منه على أمور دينهم ومذهبهم لتعذر الرجوع إلى المصادر العربية فقام هذا المؤلف بتلبية هذه الرغبة وكتابة الكتاب .

ثم كانت الشاهنامه المنثورة التى أمر بكتابتها أبو منصور محمد بن عبد الرزاق فجمعها له وزيره أبو منصور محمد العمرى وكتب لها مقدمة وكان هذا فى عام ٣٤٦ هـ ، وكان سبب كتابة هذه الشاهنامه أن أبا منصور بن عبد الرزاق كان يدعى النسب إلى الساسانيين ، فأراد بهذا العمل أن يكتب أو يدون تاريخ أجداده لعل هذا يساعد على الاقرار له بالامارة والتسليم له بالولاية .

ثم كان كتابا تاريخ الطبرى وتفسير الطبرى اللذين ترجما من العربية إلى الفارسية

---

(١) تاريخ زبان فارسى للدكتور خانلرى ج ٢ ص ٢٠ .

فى عام ٣٥٢ هـ ، بأمر من الامير المظفر أبى صالح منصور بن نوح بن نصر السامانى ، وقد جاء فى مقدمة التفسير ذكر للسبب الذى دفع إلى ترجمة هذه الكتب حيث يقول « فلما جاءوا بالتفسير من بغداد وكان فى أربعين مجلدا صعب على الأمير قراءته وفهمه باللغة العربية وهكذا أراد أن يترجم إلى الفارسية فجمع علماء ما وراء النهر واستفتاهم فى جواز ترجمة تفسير القرآن فأفتوه بذلك » .

وعلى هذا فإن السبب فى ترجمة الكتب من العربية إلى الفارسيه - بل ونستطيع القول إن الكتابة باللغة الفارسية - أنما كانت لأن الناس لا يعرفون العربية أو لا يجيدونها ، وليس هناك سبب للتعصب ضد اللغة العربية إذ أن العربية لغة القرآن والدين ، كما كانت لغة العلم وظلت كذلك فى إيران حتى بعد الغزو المغولى بفترة من الزمان ، أما الدافع إلى استخدام اللغة الفارسية فكان الحاجة لاستعمال اللغة التى يتكلم بها الناس عامة فى البلاد النائية عن مراكز انتشار اللغة العربية فى غرب إيران ، حتى يمكنهم الوقوف على أمور دينهم وتاريخهم وحضارتهم الإسلامية بلغتهم التى بها يفهمون ويتحدثون .

ونستطيع أن نجد نفس الإشارة أو ما شابهها فى مقدمات كثير من الكتب الفارسية التى ترجمت عن العربية أو ألفت مباشرة بالفارسية ، فكتاب « التفهيم لأوايل صناعة التنجيم » الذى ألفه أبو الريحان البيرونى (٣٦٢ — ٤٤٠ هـ) باللغة العربية ترجمه إلى الفارسية بناء على طلب ريحانة بنت الحسين أحدى أميرات الخوارزميين ، كما أن كتب ابن سينا الفارسية ما هى الا ترجمة لكتبه العربية ترجمها بنفسه بناء على طلب الأمراء الذين كان يعمل لديهم أو يراسلهم ، أو ترجمها تلامذته لهم . كذلك فإن حجة الحق أبا حامد الغزالى الطوسى ترجم كتابه إحياء علوم الدين من العربية إلى الفارسية بناء على طلب جمهور من الناس لا يعرفون العربية معرفة جيدة تمكنهم من فهم كتابه العربى ، فترجمه لهم وسماه « كيمياى سعادت » .

والأمثلة على هذا كثيرة ولا يمكن حصرها وهى تشير كلها إلى أن الدافع للترجمة من العربية إلى الفارسية أو الكتابة بالفارسية مباشرة لم يكن تعصبا ضد اللغة العربية ، ولم يكن مقاومة لها بل كان لحاجة الناس الذين لا يجيدون العربية إلى كتب بلغتهم التى بها

يتحدثون ويتكلمون .فاللغة العربية لم تقاوم فى إيران أو تحارب لأن كل الكتاب والشعراء اللهم الاقلة نادرة لاتذكر – كانوا من طبقة المتعلمين الذين درسوا أساسا القرآن الكريم وعلوم الدين واللغة العربية وكان كثير منهم من أصحاب اللسانين فكانوا يعرفون قدر العربية وأهميتها ، ولهذا فإن محاولة بعض الناس فى الوقت الحاضر أظهار اللغة العربية على أنها لغة أجنبية في إيران هى محاولة للتجنى على الحقيقة وطمسها ، وهى محاولة لن تحط من قدر العربية أو تغير الواقع الذى حدث وأصبحت الفارسية نتيجة له شقيقة للعربية فى كتابة التراث الإسلامى ، وأدى بها إلى أن تثرى وتتسع وتبلغ أعلى درجات الفصاحة والبلاغة والرقة والجمال بفضل احتوائها على كلمات عربية كثيرة ، وأمثال عديدة وتشبيهات وفنون أدبية لا حصر لها أغنتها وجعلتها من أهم لغات العالم الإسلامى بعد العربية ، وستبقيان كذلك ما بقى الإسلام فى إيران وما بقى هذا الأدب الإسلامى الرائع أحد مفاخر إيران ، وما أظن الا أنهما باقيان إلى يوم الدين .

ونعود إلى قصة يعقوب بن الليث مع الشعراء الذين جاءوا يمدحونه بالشعر العربى إذ التفت إلى كاتبه محمد بن وصيف السجزى وقال له « لماذا لا يقولون ما أفهم ؟ » . ومنذ ذلك الوقت أخذ محمد بن وصيف السجزى فى قول الشعر باللغة الفارسية وتبعه آخرون قلدوه ونسجوا على منواله .

والقصة فى ظل ما قلناه سابقا ، لا تعدو أن يعقوب — وهو الذى لم يذهب إلى مدرسة ولم يتعلم العربية إلا بقدر ما يحتاج لأداء الصلاة وممارسة العبادات — لم يكن متعصبا ضد اللغة العربية وإلا لقال « لماذا لا يقولون الشعر بلغتنا القومية؟ أو لماذا يتكلمون بلغة أجنبية؟ ولكنه كان يريد أن يفهم ما يقال لا أكثر ، وهذا ما أشار إليه صراحة صاحب كتاب تاريخ سيستان حيث يقول عن يعقوب « لم يكن متعلما فلم يفهم الشعر العربى » . ولهذا فإن محاولة تصوير هذه القصة على أنها شاهد على محاولة يعقوب إحياء لغته القومية ، أو أنها دليل على تعصبة ضد العربية قول لا طائل وراءه ولا حجة تسانده ولا برهان يؤيده .

لقد كان السبب الأصلى لقيام يعقوب هو رفع الظلم عن مواطنية الذين سامهم عمال الطاهريين صنوف العذاب وأنواع القسوة والظلم، فقد كانوا يجمعون منهم الخراج ولا يراعون

فقرهم وحاجتهم وطبيعة بلادهم القاسية الشحيحة ، فلما وصل يعقوب إلى الامارة أعفى الفقراء من الخراج ، بل وقرر لهم إعانات من أموال الامارة .

كما كان يعقوب يشعر بمسئوليته كراع لشعبه ، حريص عليهم ، مسئول عنهم ولعل قصته مع ذلك الضابط الذى كان يتسلل إلى بيت الرجل الضعيف وامتناع يعقوب عن تناول الطعام إلى أن أقتص بنفسه من هذا الضابط لأروع مثل على شهامة يعقوب وتحمله كحاكم وأمير مسئولية الحفاظ على أمن الناس وشرفهم وراحتهم .

وهذا الـكتاب وإن كان يتناول نشأة يعقوب وحياته ويحللها ويستخلص منها الـكثير عن هذه الشخصية الغامضة ألا أنه يستعرض كذلك موطن يعقوب وطبيعته ومناخه ، ويعطينا صورة واضحة عن هذا الأقليم — إقليم سيستان — وتأثير مناخه على حياة أهله وسكانه وكيف يقاومون حره اللافح أو رماله المتحركة التى تقضى على الأخضر واليابس .

كما حاول زميلنا الدكتور ابراهيم باستانى باريزى أن يبحث فى تلك الاطلال والدمن المتبقية فى سيستان عن المدن التى اندثرت ، والبلاد التى أختفت ، لعله يهدينا إلى الأماكن التى كانت مسرحا لهذه الأحداث ، والتى شهدت هذه الفترة التاريخية الهامة التى انطوى عليها هذا الـكتاب .

كما لم يترك إشارة إلى جماعة أو فرقة ألا ذكر نبذة مختصرة وافية عنها فقد لخص حركة الخوارج وعقيدتهم ، كما تعرض للعيارين وكتب عن عاداتهم وأصولهم وتصرفاتهم ، وهو يكشف النقاب عن هذه الجماعة التى لم تحظ باهتمام الباحثين أو المؤرخين إلى الآن ، فـكان هذا الفصل فاتحة طيبة للاشارة إليهم لـكى ينالوا ما يستحقون من دراسة للدور الذى لعبوه فى التاريخ والأدب .

وأنا لا أرى بعض ما يراه المؤلف فى هذا الـكتاب من مهاجمة العرب بعامة والخلفاء وعمالهم بخاصة ، لأن هؤلاء العرب والخلفاء هم الذين حملوا نور الإسلام إلى إيران وكل المشرق والمغرب ثم سلموا المشاعل مضيئة لـكل المسلمين فنشأت الحضارة الإسلامية من كل الشعوب التى دخلت الإسلام ولم تصبح قاصرة على العرب وحـــدهم فقد ساهم فيها

المسلمون جميعا وتحملوا بناء صرح حضارتها الشامخ كما يتحملون جميعا مسئولية ما أصابها من قصور أو نكسات ، وإذا كانت هناك أخطاء فـلا يجب أن نلقى بتبعتها على الخلفاء وحدهم فإن الكثيرين منهم لم يكن لهم من الأمر شيء ، وكان وزراهم وقوادهم ورجال ديوانهم فى الغالب من غير العرب ، وهم الذين كانوا يحكمون البلاد ويتصرفون فى كل شيء ويتدخلون فى كل صغيرة وكبيرة حتى فى الخلفاء أنفسهم كما سبق أن ذكرت .

وكانت إيران وأغلب البلاد الإسلامية فى المشرق منذ الطاهريين يحكمها أمراء أو سلاطين لا يخضعون للخليفة فى بغداد إلا روحيا وكان بعضهم يستولى على بغداد نفسها مقر الخلافة ويخضعها لسلطانه كما حاول يعقوب فقشل وحاول البويهيون فنجحوا .

وعلى الرغم من كل ما يقال عن العصر العباسى وفترات الضعف التى أصابته فإن إيران بلغت أثناءه من الحضارة والرقى مالم تبلغه فى عصر من العصور ويكفى للدلالة على هذا ما تحدثنا به كتب البلدان والرحلات عن اتساع مدنها وأزدهار عمرانها وكثرة سكانها وما كان بها من متاجر وحمامات وقلاع وحصون تبدو كما لو كانت مبالغا فيها لكثرتها وتعددها . كما أنه فى ذلك العصر ظهر فى إيران علماء وكتاب وشعراء يعدون مفخرة لإيران خاصة والمسلمين عامة بل للانسانية جمعاء مثل ابن سيناوالبيرونى والرازى والفارابى والفردوسى وسعدى وغيرهم كثير ممن يعدون بالمئات .

ولاشك أن إيران وكل الدول الإسلامية ستبقى — ما بقيت كلمة الله أكبر تتردد من على مآذنها — تفتخر بأبنائها من الخلفاء والعلماء ، معتزة بماضيها الخالد ساعية إلى أن تعيد هذا المجـد العظيم عاملة على أن تلحق بركب الحضارة الحديثة جاعلة أرضها مركزا للاشعاع الفكرى والحضارى ، وهو ما أعتقد أن تباشيره قد أخذت تلوح فى الافق .

سدد الله خطانا وهدانا إلى الطريق القويم .

دكتور محمد فتحى الريس
مدرس اللغة والأدب الفارسى
كلية الآداب جامعة القاهرة

الفصل الأول

لقد حصلت على هذا الملك وهذه
الأموال والثروة عن طريق العيارية
وليست ميراثا عن والدى . . .
من أقوال يعقوب

قيام العيارين

انقضت فترة من الزمان على سيستان كانت تصل إليها فى كل يوم أخبار مزعجة من بست[1] لم يهتم بها ابراهيم القوسى حاكم سيستان[2] فى بداية الأمر . وفى ذات يوم وصل إلى قصر ابراهيم رسول عاجل يحمل خبرا بأن أهل بست قد تجمعوا حول رجل بايعوه بالامارة يدعى عثمان بن نصر ، وأن المدينة كلها قد عمها العصيان .

وأدرك ابراهيم أن إخماد نار هذه الفتنة يجب أن يوكل إلى أحد المقربين إليه ولهذا استدعى ابنه أحمد وجعله على رأس جيش وجهه إلى بست ليقضى على عثمان فلما وصل أحمد إلى بست ونجح فى القضاء على الثوار ألقى القبض على جماعة ممن اشتركوا فى المؤامرة ضد الحكومة ومنهم عثمان نفسه الذى يقول عنه صاحب تاريخ سيستان أنه « كان رجلا عظيما وأصيلا من سيستان »[3] فقطع رأسه وأرسله إلى سيستان .

---

(١) قصبة جليلة أهل دين ومروءة ويسار ونعمة طيبة خصبة ولهم آبن ولباقة واسناد موضوعة بين نهر وجامعة لها كهتين شربهم من هيرمند (ه) .

(أحسن التقاسيم — ص ٣٠٤).

(٢) الاقليم الجنوبى الشرقى فى إيران حاليا ويقع على حدود أفغانستان وباكستان ويرتبط بها بالسكة الحديد (م) .

(٣) تاريخ سيستان ص ١٩٦ .

وقد ثار الناس احتجاجا على مقتل عثمان ، فأرسل أحمد إلى أبيه يخبره بما حدث ، فأمر ابراهيم القوسى أن يعلق رأس عثمان على المشنقة ، وكان يريد من وراء هذا أن يلقى الرعب والذعر فى قلوب المعارضين ويعلن نهاية الثورة ، فلما استيقظ الناس فى الصباح ورأوا رأس قائدهم على المشنقة ازدادت ثورتهم وامتلأت الأسواق وميدان المدينة الكبير بالأهالى . ولم يوفق المسؤلون ـ رغم كل المحاولات ـ فى فض تجمعاتهم . وسار الأهالى ، جماعات وأفرادا ، إلى المشنقة معبرين عن سخطهم على هذا العمل ، وحملوا الرأس بكل احترام ، ودون خوف من العواقب والمخاطر التى كان يمكن أن يتعرضوا لها من حاكم المدينة ، ووارره التراب ولم يجرؤ أحد من المسئولين على منعهم .

كانت الثورة تعم المدينة كلها ، وتوجه الناس إلى منزل « أحمد القولى » الذى كان أحد قادة العصيان فبايعوه وأعلنوا استعدادهم للكفاح المتوقع ، وتعاونت الفرق والجماعات الدينية والسياسية فى المدينة مع الثوار . ولم يمض وقت طويل حتى التف حول القولى جمع كثير من العيارين[١] وشجعان الرجال سواء منهم من كان من بست ومنهم من كان من سيستان[٢] واتفقوا جميعاً على أن يكونوا يدا واحدة ضد ابراهيم القوسى .

استدعى ابراهيم القوسى ابنه القاسى القلب وكان اسمه أحمد من بست محاولا بذلك أن يهدىء الأحوال ، وعين بدلا منه حاكما ألين جانبا اسمه « يحيى بن عمرو » وكان رجلا عزيزا محترما ، فقام بملاينة الناس ومداراتهم فاستكانوا إليه[٣] ولكن عمر هذا الهدوء كان قصيرا ، فمع أن يحيى بن عمرو كان حاكما ، اختاره ابراهيم القوسى بعناية إلا أنه لم يستطع أن ينفذ كل رغبات سيده وآرائه ، لأن ابراهيم كان يميل إلى التخلص من كل

---

(١) ارجع إلى ص ٢٦ من هذا الكتاب .
(٢) تاريخ سيستان ص ١٩١ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .

الفئات المعارضة ، وكان من رأى يحيى أن يدارى الناس ويداهنهم . فلما استقرت الأوضاع بعض الشيء قام ابراهيم بعزل يحيى وعين مكانه ابنه أحمد مرة ثانية وأرسله إلى هناك . ولكن أحمد اختار رجلا اسمه « بشار بن سليمان » وأعطاه الحرية للسيطرة على المدينة ، فاشتد على الناس وأعمل فيهم الظلم ، ولهذا اضطر أحمد القولى قائد العصاة إلى الهرب فقام الأهالى يبحثون عن قائد يقود كفاحهم ، فوجدوا صالح بن نصر شقيق الشهيد عثمان فاختاروه للزعامة وساعدته كل الفئات والجماعات السياسية فى المدينة والتف حوله أناس كثيرون من سيستان وبست ، وانضم إليه يعقوب بن الليث وأعوانه عيارو سيستان[١] .

وقد قتل بشار فى أول صدام له مع العصاة وسقطت بست فى يد صالح بن نصر فعين يعقوب قائدا عليها[٢] .

وكان قيام مدينة بست ضد الحاكم المعين من خراسان أمراً عظيماً . ولكى تثمر هذه الثورة وتستمر على مر الأيام ، كان لابد أن تسقط مدينة زرنج عاصمة سيستان[٣] — والتى كانت تعرف إطلاقا آنذاك باسم سيستان — فى أيدى الثوار . ومع هذا فإن مجال العمل لم يكن سهلا أمام صالح فى المناطق المحيطة ببست والمدن القريبة منها ، وكانت

---

(١) تاريخ سيستان ص ١٩١ .

(٢) زين الأخبار ص ٦ .

(٣) زرنج : قصبة سجستان محكمة الحصن عجيبة البنيان ، معدن الحيات والرجال الشهام أصحاب همة وعقل . . . ولهم حصن عجيب يدور حوله خندق ينبع الماء منه ويجرى إليه فضلات المياه . نظيفة الأطعمة كثيرة المشايخ مفيدة فى المتاجر غزيرة المياه غير أن حياتها كثيرة وحرها شديد (أحسن التقاسيم ص ٣٠٥) ولها خمسة أبواب أحدها الباب الجديد والآخر الباب العتيق وكلاهما يخرج منهما الى فارس وبينهما قريب مسافة ، وباب كركويه يخرج منه الى خراسان والرابع باب نيشك يخرج منه إلى بست والخامس يعرف بباب الطعام يخرج منه الى الرساتيق ، وأعمر أبوابها باب الطعام وكلها حديد والمربض ثلاثة عشر بابا (صورة الأرض ص ٤٢٠) (م) .

هناك جماعات تزمع معارضته لسبب أو لآخر ، وكان ابراهيم القوسى ، على الخصوص ، يعد نفسه للقضاء على صالح، ولهذا لم يكن أحد يعرف ما ستتكشف عنه الحوادث.

خارجى فى مواجهة عيار :

كانت أول مقاومة واجهت صالح هى التى قام بها أهل مدينة كش . – وهى مدينة على ساحل نهر هيرمند[1] – ذلك أن خوارج مدينة كش بزعامة عمار الخارجى[2] ثاروا وطغوا فأرسل صالح ثلاثة من أعوانه وهم كثير بن رقاد ويعقوب بن الليث ودرهم (دريم) بن نصر إلى كش للقاء عمار ، فانهزم عمار وهرب ولكن خطراً جديداً ظهر فى هذه الأثناء هدد مدينة بست من ناحية الغرب وكان يتمثل فى ابراهيم القوسى حاكم سيستان .

أرسل ابراهيم القوسى عام ٢٣٩ هـ (٨٤٣ م) ابنه الثانى محمد ليحارب صالح بن نصر فى بست ، ودارت على مقربة من « زمين داور » معركة ضارية انهزم فيها صالح وتفرق أتباعه وهرب هو إلى كش وبقى هناك مدة إلى أن استطاع جمع جيش توجه به ثانية إلى بست فلما وصل إلى حدود قرية « ماهيا باد» أرسل إليه محمد بن ابراهيم القوسى جيشا للقائه ، ولكن جيش القوسى هزم وتقهقر إلى قلعة بست وتحصن بها .

أدرك صالح إلا سبيل له للاستيلاء على القلعة ، فانصرف من بست وذهب إلى ضواحيها وأخذ فى تقوية جيشه ، وفجأة وعلى غير انتظار وجه أعنة جيشه إلى سيستان وبلغ جنده حدود العاصمة فخرج ابراهيم القوسى لمواجهته فدارت على مقربة من أبواب المدينة معارك قاسية أدت إلى أن يلجأ القوسى — الذى كان يتولى قيادة الجيش بنفسه – إلى داخل المدينة

---

(١) حدود العالم .

(٢) عمار بن ياسر رئيس الشراه (م) ٤٢٠ صورة الأرض .

التى لم تـكن تتمتع بالهدوء فلم يقدم أهلها أية مساعدة لحاكمهم ، وبهذا لم يستطع أن يذود عن أبواب المدينة .

ضيوف بلا دعوة على مائدة الحاكم :

بقى صالح بن نصر ويعقوب بن الليث وأخواه عمرو وعلى مع درهم بن نصر وحامد سرناوك[١] وراء أبواب المدينة وعقدوا اجتماعاً وضعوا فيه خطة تقضى بأن يدخلوا المدينة مع بعض العيارين . ودخل المدينة بعض من عرفوا بجرأتهم فى التساق بالحبال والتسلل تحت جنح الظلام مستخدمين وسائلهم الخاصة[٢] ، فبعد عودة جنود ابراهيم القوسى إلى داخل المدينة وإغلاق أبوابها ، صعد حامد سرناوك والعيارون إلى الأسوار ومنها إلى سطح قصر ابن الملك ثم خرجوا من أبواب القصر وتوجهوا إلى أبواب المدينة ففتحوها وقتلوا من كان هناك من الناس ، ولم يبلغ إبراهيم أى نبأ عن كل هذا .

عندما علم عيارو مدينة سيستان وأنصار صالح بهذا النجاح فى صباح اليوم التالى ، لبسوا دروعهم وحملوا سلاحهم وتوجهوا إليه لتهنئته على الانقلاب الذى وقع لصالحه أثناء الليل .

أما ابراهيم القوسى فعندما رأى هزيمته أمام عينيه أرسل جماعة من رجال الدين والمشايخ إلى العيارين وأنصار صالح ليسألوهم عن قصدهم فيما حدث ، أو كما يقول صاحب تاريخ سيستان « عما جاءوا يعملونه هنا » .

ورد صالح بقوله « أننى لا أقصد إضعاف الحاكم أو مخالفة الحكومة ولـكننى جئت لقتال الخوارج والانتقام منهم لأنهم هم الذين قتلوا أخى عثمان » فعاد المشايخ ولـكن كان

---

(١) سرناوك : رأس السهم وهو من ألقاب العيارين التى تدل على الجرأة والشجاعة كعادتهم فى اختيار ألقاب لهم (م) .

(٢) تاريخ سيستان ص ١٩٧ .

واضحا أن دخول العيارين المفاجىء إلى المدينة واحتلالهم لمراكزها الهامة كان له أهداف أخرى غير حرب الخوارج . فلم تكد تمضى بضع ساعات حتى أرسلت رسالة إلى ابراهيم تحتم عليه ترك المدينة ، فلما لم يوافق ، امتشق صالح وأعوانه سلاحهم وذهبوا عن طريق خندق المدينة الذي كان آنذاك خاليا من الماء إلى برج القصر وقلاعه وتسلق حامدوالعيارون أسواره ثم هبطوا عن طريق سطح أحد المنازل إلى قلعة القصر وفتحوا بوابتها فدخل منها أنصار صالح وقتلوا فى ساعات قليلة كثيراً من أتباع ابراهيم القوسى .

فلما رأى ابراهيم ما حدث ركب فرسه مسرعا وولى هاربا عن طريق باب فارس ، ودخل صالح إلى القصر . ومن طريف ما حدث أن العيارين تناولوا غداءهم مع يعقوب وصالح من نفس الطعام الذى كان قد أعد لابراهيم القوسى ، وكان ذلك يوم الخميس لتسعه بقين من ذى الحجة سنة ٣٢٩ هـ (مايو ٥٨٤ م) .

* * *

الفصل الثانى

جنى ثمار الثورة

قلنا أن صالح استولى على عاصمة سيستان فرأى أن يبدأ بتقوية مركزه وإعادة النظام إلى المدينة المضطربة نتيجة للقتال ، فأمر أن تؤخذ خزائن ابراهيم القوسى ووزع جزءا من هذه الثروة المصادرة بين جنده، كما أمر أن تفتح أبواب السجون ويطلق سراح المسجونين السياسيين الذين كانوا يعارضون الحكومة السابقة[1] .

لم تهدأ مدينة سيستان تلك الليلة أو تنم وسط هذا الاضطراب إذ قامت جماعة من عامة الناس وسفلتهم بأعمال السلب والنهب ، وقام بعض المعارضين لصالح ببعض أعمال الإثارة ، ولما لم يكن صالح قد سيطر على المدينة ونتيجة لما لاقاه من عامة الناس هناك ، فقد فكر فى الهرب منها ، ولكن أعوانه حذروه من الإقدام على هذا العمل ورأوا من الأصوب أن يلتقى بشيخ رجال الدين فى المدينة وهو « عثمان بن عفان » ويتشاور معه فى الأمر .

قال له عثمان «ما كان يجب الإقدام على هذا »[2] فأجابه صالح « لقد قمت بهذا العمل ثأرا لأخى عشان الذى قتله الخوارج وكنت أظن أنك ستساوننى فى هذا السبيل » . فلم يرد عثمان بن عفان ، ، وكان سكوته وهو الشيخ الجليل صاحب النفوذ الواسع فى المدينة دليلا على رضاه ، ولهذا لم يخرج صالح من المدينة ، وفى اليوم التالى أقام استعراضا

---

(١) تاريخ سيستان . (٢) نفس المرجع .

لجيشه الذى يبلغ تعداده نحو ٤ آلاف رجل بين مشاة وفرسان لكى يظهر قوته أمام العامة ويقتل فيهم دافع الفضول ، إذ أن مرور هذه القوات السالحة فى شوارع المدينة وحواريها يبعث الخوف والرعب فى قلوب الناس .

فى هذه الأثناء ذهب ابراهيم القوسى ، الذى كان قد فر من المدينة ، إلى عمار الخارجى وأقام مع الخوارج ائتلافا ، فلما بلغته أخبار اضطرابات المدينة ورأى أن الفرصة سانحة تحرك فجأة إلى سيستان ، ولم يمض وقت طويل حتى شاع فى أفواه الناس أن ابراهيم قد اقترب من أبواب المدينة ومعه عمار والخوارج .

أرسل صالح جزءاً من جيشه بقيادة يعقوب بن الليث إلى باب « آكار » — وكان أهم أبواب المدينة — للمحافظة عليه ، وكانت مدينة سيستان آنذاك مدينة ذات قلعة منيعة يحيط بها خندق له خمسة أبواب من الحديد، كما كان لها مربض له ثلاثة عشر باباً[1]. كما عهد إلى باقى القواد بحراسة الأبواب الأخرى ، فجعل حامد سرناوك على باب « ميتا » وعقيل بن اشعث على بوابة « كركوى » وكان لكل هؤلاء القواد أعلام سود ، أما علم الخوارج الذين كانوا مع ابراهيم القوسى فكان أبيض اللون .

انتهى الأمر باشتعال حرب مريرة بين الفريقين وقتل كثير من الرجال من الجانبين[2] ، وفى آخر النهار اندحر عمار وابراهيم القوسى فمادا أدراجهما ولم يقويا بعد هذا على مواجهة صالح الذى أخذ نجمه فى الصعود .

لم يجد ابراهيم القوسى الحاكم المخلوع مفراً من رفع الأمر إلى طاهر بن عبد الله فى خراسان لأن حكومة سيستان آنذاك كانت جزءاً من حكومة الطاهريين ، ولهذا كتب رسالة وأرسلها مع رسول خاص إلى خراسان يطلب من طاهر إرسال جيش لمساعدته . وفى

---

(١) حدود العالم ص ١٠٢ .　　(٢) تاريخ سيستان ص ١٩٧ .

هذه الأثناء قام بعض الخوارج الذين كانوا مبعثرين خارج مدينة سيستان بالإغارة على ضواحى المدينة التى أصبحت تحت رحمة حصارهم الاقتصادى ، ولم يستطع أحد الخروج من المدينة كما لم يسمح لقادم بالدخول إليها ، وشد من أزر هؤلاء وصول قوات النجدة التى أرسلها طاهر بن عبدالله من خراسان ، فاشتد الحصار قسوة على المدينة والمحاصرين .

فكر يعقوب بن الليث فى الأمر ورأى أن الإسراع فى الحرب قد يمكنه من اختراق الحصار فابتدأ بالهجوم على الخوارج باشتبا كات متفرقة معهم أثناء الليل وأثناء النهار ، لكن هذه الهجمات لم تؤد إلى نتيجة .

سلطان الصحراء :

رأى ابراهيم القوسى ان الوقت مناسب له فأرسل على الفور رسولا إلى بست يطلب مددا من الجند ، وقد سافر الرسول على جمازة (جمل سريع) لأن هذا الحيوان لا تعوقه الرمال ولا الصحارى الجافة القفرة عن مواصلة العدو بأرجله الطويلة وسرعته العجيبة حاملا راكبه إلى مقصده ، وسرعة هذا الحيوان جعلته أحسن وسيلة للمواصلات فى تلك المناطق حتى اليوم حيث يستخدمه العسكريون فى تنقلاتهم فى صحارى سيستان وبلوشستان وورود بار ونرماشير ، وقد استخدمه الاسكندر المقدونى فى سفره للهند لأن الطريق الممتدة بين همدان وسيستان كانت تستغرق ما بين ثلاثين إلى أربعين يوما بينما تقطعه الجمال فى أحد عشر يوماً(١). وتجب الإشارة إلى أن الاسكندر ذهب إلى المشرق عن طريق سيستان حيث قضى فيها الشتاء ثم واصل سيره عن طريق نهر هيرمند ، ويبدو أنه مر من طريق قراه وكرشك(٢) .

على كل حال فإن محمد بن ابراهيم القوسى قام على الفور بجمع جيش من بست وزمين داور وجعل على قيادته رجلا يقال له « الخواشى » يبدو أنه من أهل « خواش » القديمة

(١) فرهنك إيران باستان ص ٢٧٠ (٢) هشت سال در إيران ص ٢١٣ .

التى تقع اليوم فى أفغانستان ووجهه إلى سيستان، ولكن هذا القائد رأى أن كفة الأعداء أرجح فانضم إلى صالح بن نصر مع ثلثمائة من أعوانه وعاد بقية جيشه. أما محمد بن ابراهيم القوسى الذى كان أيضاً قد تحرك ليلا إلى سيستان فقد ضل الطريق ، وعندما وصل فى الصباح إلى قرب المدينة كان جنود يعقوب قد وقفوا على تحركاته ، وأسرع يعقوب وسرناوك من أحد أبواب المدينة لصده ، فنشب بينهم قتال راح ضحيته كثير من الفريقين وتمكن محمد بن ابراهيم من الفرار بعد هزيمته وعاد إلى أبيه الذى كان فى إحدى قرى سيستان .

وحتى هذا الوقت كان صالح يساير رحال الحكومة ، ولكن بعد هذه المعركة أمر بنهب منزل محمد بن ابراهيم القوسى — الحاكم — وكذلك منازل أقاربه والمقربين اليه .

بستى أو سيستانى :

فى ذلك الوقت حدث حادث كان ينتظر وقوعه ، كما يمكن بالبحث والتحليل معرفة أسبابه ودوافعه . فقد سبق أن قلنا أن صالح بن نصر كان من أهل بست ، والحقيقة أنه من أصل سيستانى ، ولكنه نشأ فى بست[1] ، ولهذا لم يكن زرنجيا أى من أهل مدينة زرنج ، وكان فى استطاعة أى مغرض نهاز للفرص أن ينمى هذه الفكرة فى أهل سيستان ، وهى أن رجلا من بست قد سيطر على مدينتهم وأصبح السيستانيون خاضعين للبستيين ، ومن ناحية أخرى فكما قلنا كانت مدينة بست على مدى سنوات طويلة مدينة غير هادئة وكانت على خلاف دائم مع العاصمة « سيستان » أو زرنج ، وكان واضحاً أن أهل سيستان يعتبرون أهل بست قوماً متعبين وثوريين .

وكان صالح إلى جانب هذا رجلا مادياً يحب المال . فمنذ الساعات الأولى لبدء عملياته

(١) تاريخ سيستان ص ١٩٨ .

الحربية أخذ فى الاستيلاء على ثروات الناس وكنوزهم وخزائنهم ووصل به الأمر إلى إطلاق يده فى النهب والسلب والاحتفاظ لنفسه بكل ما تصل اليه يده[١] .

يضاف إلى هذا أن مساعدة يعقوب وأخويه عمرو وعلى وكذلك أزهر بن يحيى ابن عم يعقوب ، وكان رجلا شجاعاً ، ومعهم كل العيارين ، هى التى رفعت أمر صالح ، ولهذا كان يجب على صالح أن يحدد مراكز هؤلاء الأعوان الأقوياء وموقفه منهم قبل كل شيء آخر .

ففى ذلك اليوم الذى أصدر فيه صالح أمراً بنهب منزل محمد بن ابراهيم القوسى ، أعد يعقوب بن الليث ورفيقه حامد سرتاوك وكل العيارين مؤامرة ، وقالوا أننا نحن الذين نحارب والمدينة لنا ، ونحن نعمل على تقوية الدين ، فمن يكون (صالح) حتى يستولى — إلى اليوم ـ على ألف ألف درهم مرتين (مليونى درهم) [٢] من الهجوم على سيستان ؟ . ولا شك أنه سينهب ثانية ، وما أهمية بست بالنسبة له ؟ . فلا كانت حيثنا ان تركناه يحمل هذه الأموال من هنا [٣] .

وهذا الشعار الذى كان الإحساس الوطنى فيه قوياً قد أثر أشد تأثير فى معنويات رجال سيستان وخاصة العيارين الشبان ، والعسس الأوفياء الشجعان الذين كانوا قد تذوقوا لذة النصر بفتح أبواب المدينة ، وحققوا أول أمل وطنى لهم . وقد وافق العيارون جميعاً على رأى يعقوب . ومن تلك اللحظة ظهرت شخصية يعقوب الوطنية البارزة بين أعوانه .

فمن هو يعقوب ؟ ومن أين كان ؟ سوف نرى هذا الآن ...

---

(١) نفس المرجع والصفحة .
(٢) كان وزن الدرهم أكثر قليلا من نصف مثقال أى = ٢٫٩٧ جم من الفضة .
(٣) تاريخ سيستان ص ١٩٨ .

الفصل الثالث

يعقوب قبل السلطة

ولد يعقوب فى إحدى القرى الصغيرة القريبة من زرنج[1] اسمها « قرنين »[2]، وتقع على طرف الصحراء فى الشمال الغربى لخواش وعلى بعد منزل من روستاق نيشك على رأس الطريق إلى فراه ، ولم تكن هذه القرية تنقصها الثروة فقط بل إن رياح الصحراء الساخنة جعلتها من أسوأ الأماكن هواء ، كما أن تربتها كانت لا تصلح للزراعة ، أما من ناحية اتساعها فكانت قرية صغيرة يمر فى وسطها نهير صغير[3] .

ولد يعقوب فى هذه القرية فى أسرة « صفار »[4] ، وكان أبوه صفارا بسيطاً ، ولكن أسرته كانت تمتاز بميزة تبعث فيها الفخر ، وهى طبقاً لرواية الأجداد والآباء كان أفراد هذه الأسرة ينسبون أنفسهم إلى الأمراء الساسانيين ، وكانوا يحتفظون بشجرة نسب تقول ان « يعقوب بن الليث ، والليث بن معدل بن حاتم بن كيخسرو بن قباد وقباد هو ابن خسرو برويز وهو ابن هرمز بن أنوشيروان » ، وبهذا يمتد نسبه إلى طهمورث ديو بند من سلاطين البيشداديين .

(١) تاريخ سيستان ص ١٩٨ .

(٢) قرنين عليها حصن ومنها كان بنو الليث الصفارون الذين خرجوا وغلبوا على فارس وخوزستان (م) احسن التقاسيم ص ٣٠٦ .

(٣) معجم البلدان ، هامش « قرنين » .

(٤) الصفار هو الذى يشتغل بصناعة النحاس سواء الأحمر أو الأصفر (م) .

ومع أن هذه الميزة فى أيام فقر الليث وابنه يعقوب كانت مبعث سخرية الجيران من هذه الأسرة إلا أنها بعد ارتفاع شأن يعقوب كانت باعثة على تغطية الكثير من نقاط الضعف عندهم لأن الوصول إلى السلطة والتربع على أريكة الحكم تستوجب الانتساب إلى أصل شريف والانتماء إلى أسرة نجيبة . ولم يقتصر هذا على يعقوب بل أن جميع سلاطين ايران الذين جاءوا بعد ذلك كانوا يحتاجون إلى الانتساب ـ ولو إدعاء ـ إلى أصل شريف ، ونذكر من هؤلاء ، السامانيين الذين أوصلوا نسب جدهم الثامن إلى بهرام جوبين قائد خسرو برويز ، وارجع البيرونى أصل أبى منصور عبد الرزاق حاكم طوس إلى منوجهر ، وربط آل بويه سلسلة نسبهم بالساسانيين ولكن الصفويين اختاروا الجانب الدينى وادعوا أنهم من أولاد موسى الكاظم رضى الله عنه ، ولما رأى القاجاريون أن جميع الطرق مغلقة دونهم فقد افتخروا بالانتساب إلى جنكيز خان . وسار الأمراء الصغار البسطاء على نفس المنوال ، كما نرى فى الفترة الأخيرة أن الأمير قائن أوصل أصله إلى طاهر ذى اليمنين .

ولا شك أن هذا التفاخر كان ضروريا ليعقوب ، ولكننا اليوم عندما نقرأ تاريخ يعقوب يتضح لنا أن هذا الرجل — وخاصة من الناحية الأخلاقية ورعاية موازين الإنسانية — أعظم وأنبل من أجداده الذين يفتخر بهم .

وهناك سبب آخر كان يدفع يعقوب للفخر والشعور بالتفوق ، ذلك أن بلدته وهى « قرنين » كانت تفضل سائر القرى والأقاليم بميزة خاصة ، إذ كان معروفاً أن هناك آثار من طوالة « رخش » فرس رستم المشهور توجد فى قرنين[1] ، وعلى هذا الأساس فإن أهل سيستان كانوا ينظرون إلى قرنين — رغم أنها مدينة صغيرة — نظرة أخرى ، وكان يعقوب

---

(١) المسالك والممالك .

وهو من قرنين يجد فى هذا مادة للفخر لأنه ربط حصانه يوما على طوالة رخش الفرس الاسطورى لرستم ، وسقاه من حوض الماء الذى كان يشرب منه ذلك الفرس .

وكان الليث — أبو يعقوب — رجلا مغمورا من إقليم سيستان ومن قرية قرنين[1] وكان أبا لأربعة أبناء هم : يعقوب وعمرو وطاهر وعلى . وقد هاجر الليث من قرنين إلى العاصمة زرنج وأخذ يعمل هناك .

كان الليث يعمل صفارا، أما دكانه فى السوق فكان مركزاً للعيارين والشباب الطموح، وكان الليث ذا طبع كريم فكل ما كان يكسبه كان ينفقه على إطعام العيارين ، ونشأ ابنه يعقوب فى شبابه صفارا ، وكان كل ما يحصل عليه من أجر عن عمله ينفقه أيضاً على استضافة بعض الشبان[2] .

وعن هذا الطريق انتقل يعقوب من زمرة الصفارين إلى جماعة العيارين ، وانزلق من هناك إلى السرقة ثم قطع الطريق، وترقى إلى رئيس جماعة وأصبح ذا خيل ورجال. ولاشك أن الأخيلة والأحلام التى كانت تجول فى فكر يعقوب كانت تحتاج إلى الأموال والنفقات ، ولم تكن الخمسة عشر درهما التى يتقاضاها شهرياً[3] من عمله كنحاس تغطى هذه النفقات، فكان لابد له من أن يرسل العيارين إلى المناطق القريبة لمراقبة الطرق وهداية القوافل وأخذ إتاوات الطريق منها ، كما أقام ارتباطاً مع عيارى العاصمة — زرنج — وباقى المدن ، وفرض على الأثرياء فى كل مدينة إتاوات وضرائب لتغطية نفقات العيارين . ومما يروى عن أعماله الشبيهة بأعمال العصابات المعاصرة أنه كان فى سيستان أحد الأعيان الأغنياء الخيرين اسمه ابن فرقد ، فقال يعقوب يوماً لرفاقه العيارين سآخذ من ابن فرقد بكل عزة وإباء مبلغاً من المال سيدفعه وهو شاكر ممتن. فقال العيارون :«إذا فعلت هذا فان رئاستك لنا تصبح واجبة علينا ويصبح تفوقك علينا واضحاً جلياً » .

---

(١) زين الأخبار .

(٢) حبيب السير ج ٢ ص ٣٤٦ .

(٣) چند مقاله تاريخى وأدبى ١٤٥ .

ذهب يعقوب إلى منزل ابن فرقد واضعاً نصب عينيه خزانة أمواله، ثم قال لابن فرقد: « لقد ضقت ذرعاً بعامل الخليفة[1] لأنه رجل شرير سيء السيرة ملفق للاخبار ، وأستطيع بسهولة القضاء عليه ولكن يجب أن يكون لى ملجأ ومعين حتى إذا ما انتهيت من مهمتى استطعت أن ألتجيء إلى حماه ، أو ليهييء لى أسباب السفر ونفقاته لأهرب من هذه المدينة » . ولما كان ابن فرقد يحقد على عامل الخليفة فقد استجاب لقول يعقوب وجعل نفسه حامياً له ، ومنزله ملجأ له .

ذهب يعقوب فى منتصف الليل إلى منزل ابن فرقد وقام بفتح خزائنه وأخرج صرر الذهب وفرقها فى أنحاء المنزل ، ولم يمس واحدة منها ، ثم كتب رسالة تركها هناك جاء بها « لقد فتحت خزائنك وكنت أستطيع أن أحمل من ذهبك وفضتك ما شئت ولكن لما كنت رجلا ذا مروءة فاننى لم آخذ شيئاً من مالك ولكننى فى حاجة إلى خمسة آلاف درهم عليك أن تضعها فى صرة وتدفنها تحت الحصى على مقربة من « ريك الجنان[2] » ، فإذا لم تفعل ما طلبته منك فأنت المسئول عن أى ضرر قد يلحق بك » .

فى اليوم التالى وقف ابن فرقد على ماقام به يعقوب أثناء الليل فذهب إلى خزائنه وأحصى نقوده فلم يجد عجزاً أو نقصاً ، ورأى صدق يعقوب فحمل خمسة آلاف درهم إلى ريك الجنان كما أراد يعقوب ووضعها كما طلب .

وكانت الأموال التى تأتى من مثل هذا الطريق تصرف على العيارين ، كما أن كل ما كان يملكه يعقوب أو يحصل عليه ينفقه بسخاء وكرم ، كما كان يعطى لأقاربه الاحترام والتكريم . وهذا ما أدى إلى تقديم يعقوب على زملائه فى كل عمل يقومون به[3] . وعن هذا الطريق كان يعقوب وأعوانه يعدون أنفسهم للتقدم مما رغب كثيراً من الناس فى

---

(١) كان اسمه عثمان الطارابى .

(٢) كلمة ريك بمعنى الحصى . (م) .

(٣) زين الأخبار ص ٥ .

الانتظام فى سلك العيارين ، ولم يمض وقت طويل حتى عرف الناس فى مختلف الأنحاء والجهات أن أهل سيستان عيارون ، وحتى بعد مضى قرن على هذه الأوضاع فإن الأمير الجغانى أطلق على الشاعر المعروف فرخى السيستانى لقب العيار ، وذلك عندما كان ينشده قصيدته المعروفة باسم « داغكاه » والتى مطلعها :

إذا كان العشب الأزرق قد كسا المراعى

فإن الجبل يكون قد ا كتسى بحرير من سبعة ألوان

وأراد الأمير أن يكافئه بصلة ولكنه رأى أن يختبر مقدرته كعيار فأمر بإحضار ألف فرس أغر محجل ختلى ، ثم قال للفرخى : « أنت رجل سيستانى عيار وهذه فرصتك فخذ من هذه الخيل بقدر ما تستطيع أخذه » . وكان الشراب قد أثر فى الفرخى تأثيراً كبيراً ، فاستأذن فى الخروج وفك عمامته وألقى بنفسه فى وسط الخيل وجعل أحدها فى مقدمتها ثم قاده مسرعا فى اتجاه الصحراء[1] . وكما قرأنا فإن ذلك العيار الماهر سريع التفكير استطاع أن يحصر الخيل كلها فى اصطبل واحد وبذلك استحقها من الأمير .

وكما سبق أن قلنا فإن دكان الليث فى سوق المدينة كان مركزاً للعيارين والصعاليك، وأدى هذا إلى أن يتعرف يعقوب - فى هذا المركز الاجتماعى — على كثير من رؤساء العيارين ، ثم ما لبث أن دفعته مهارته وخدماته لهم وتفانيه فى هذا العمل إلى رئاسة هذه الفئة ، وكان هذا — أى رئاسته وسيطرته على أقوى جماعة فى المدينة— سببا فى أن يمنحه أول قائد للانقلاب — وهو صالح بن نصر — عملا هاما . ولكن يعقوب كان يرى أنه أكفأ من درهم وصالح ، ولهذا فقد حفر تحت أقدامهما فسقطا وانزاحا من طريقه واستولى هو على زمام الأمور فى المدينة .

---

(١) جهار مقاله .

ومن الأسباب التى أدت إلى نجاح يعقوب وتوفيقه ، المساعدات المؤثرة التى قدمها له إخوته الثلاثة وبقية أقاربه ، ومن أبرزهم أزهر ابن عمه وصهره كثير بن رفاق[١] ، وهذا الرجل اجتمع عليه كثير من وجوه الخوارج كما أن أزهر كان يراسل الخوارج ويستميلهم[٢]، فلما وصلت أخبار النشاط السرى الذى كان يقوم به هؤلاء إلى الحاكم فكر فى القبض عليهم فتوجه إلى القلعة التى كانوا يلتجئون إليها فحاصرهم فيها وطالت مدة حصارهم ثم انتهت بانتصار المحاصرين وأسرهم للحاكم ثم قتله ، وبعد هذا ذهبوا إلى بست ومن هناك ذاعت شهرة يعقوب وإخوته وعياريه فى القرى والمدن .

ذكرنا أنهم تعرفوا فى بست على درهم بن نصر الذى كان يشتهر بتقواه وزهده وورعه وكان يتشدد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعن طريقه أخذوا فى معاقبة كل من يخرج عليهم ، وكانت عملياتهم فى بدايتها تتسم بالطابع الدينى . وبهذه الوسيلة — وهى دعوى حماية الدين — قمعوا كثيرا من الخارجين عليهم والمعاندين لهم ، وعن طريق هذه الدعوى أيضاً اجتمع عليهم كثير من الناس .

أما أصحاب يعقوب فقد سلموا له جميعاً ومن بينهم أحد العيارين المعروفين وهو حامد سرناوك الذى قدم له خدمات جليلة ، لأنه — كما قلنا — كان هو الذى قاد حملة الليل للاستيلاء على مدينة زرنج — أما بعد الاستيلاء على السلطة فقد كان هو أيضا أول من بايع يعقوب من العيارين بالرئاسة . أما بعد البيعة فكانت له طلبات لم يوافق عليها يعقوب ، ثم احتاط للأمر منه فأعطى منصب أمير الشرطة لشخص آخر هو حفص بن اسماعيل ، ويبدو أن هذا التغيير مما لم يرتح له حامد وجعله يتوجس شرا فترك يعقوب وذهب إلى بلده « كلاشير » .

---

(١) يحتمل أن يكون هو الشخص الذى تردد ذكره فى تاريخ سيستان باسم كثير بن أرقاد وكان من زعماء الخوارج .

(٢) تاريخ سيستان، ص٢٠٤ .

وقد وقف يعقوب على خطط حامد سرناوك فأرسل محمد بن رامش — وهو أحد أصدقائه — إلى قرية كلاشير حيث كان يقيم حامد، وبعد معركة قصيرة استطاع هذا القائد أن يقتل حامداً . وبقتله هرب أعوانه ومن بقى منهم أخذ أسيرا، كما أخذت بعض الأسلحة والدواب . وبهذا استقام أمر سيستان ليعقوب بن الليث[1]، ويحتمل أن يكون يعقوب قد أراد أن يتخلص من بعض أعوانه بعد أن وصل إلى هدفه .

وبعد هذا شرع يعقوب فى سياسته الداخلية، بالتحبب إلى الناس والتقرب إليهم فاستدعاهم جميعا ولاطفهم، وأطلق سراح الأسرى وخلع عليهم ثم حلفهم وأخذ عليهم العهود والمواثيق فالتفت القلوب من حوله، كما أجرى الأرزاق على الجيش[2].

بعد هذا فكر يعقوب فى حل مسألة الخوارج فرأى من الأصلح أن يفاوض عماراً الخارجى . وهنا يجب علينا أن نوضح أن هذه الجماعة كانت تعد من الجماعات السياسية القوية التى يحسب حسابها فى سيستان . وهذا ما جعل يعقوب يضطر إلى استرضائهم أو على الاقل إلى تهدئتهم .

فى هذه المفاوضات كان لأحد أقارب يعقوب الأوفياء الشجعان وهو أزهر بن يحيى — والذى كان يعقوب يناديه بابن العم — أهمية كبيرة فقد كانت له مع الخوارج صلات وصداقات قديمة، فأرسل إلى رؤسائهم الرسائل ورغبهم باللطف ولين القول لدرجة أن ألفا منهم جاءوا دفعة واحدة، فخلع يعقوب على رئيسهم خلعا ثمينة وقال لهم « من كان منكم نقيبا فسأجعله أميراً ومن كان فارسا فسأجعله نقيباً، ومن كان من المشاة فسأجعله فارسا، وكل ما سأراه بعد الآن من فضل فإننى أزيد صاحبه رفعة وجاها » . فاطمأن له هؤلاء الناس وارتاحوا إليه[1] .

---

(١) تاريخ سيستان، ص ٢٠٠ .
(٢) تاريخ سيستان، ص ٢٠٢ .
(٣) تاريخ سيستان، ص ٢٠٥ .

كان أزهر رجلا يميل للمزاح والفكاهة مما كان يوقعه في كثير من الحماقات والمآزق حتى أطلق عليه « أزهر الحمار »[١] ، ولكن يبدو أن هذا اللقب كان لقبا خاصا أطلقه عليه رفاقه العيارون كنوع من المزاح ، وكان سبب هذا أنه كان كثير المزاح يتظاهر بأنه عامي مع أنه كان في الحقيقة رجلا ذكيا ، وبطلا شجاعا ، يمتاز بالكمال ورجحان العقل ، كما كان كاتبا أديبا . وقد فتحت أكثر البلاد على يديه ولكنه كان يتظاهر بالحمق والجهل .

كان أزهر يأتي بأفعال تدفع الناس إلى الضحك، فمن نوادره التي تروى أن المجتمعين يوما في قصر يعقوب نهضوا وقوفا إلا أزهر، فنظروا إليه فإذا هو قد وضع يده في ثقب قفل الباب الحديدي حتى انحشر فيه ولم يستطع إخراجه فأحضروا حدادا أخرج أصبعه وانصرف أزهر وعاد في اليوم التالي وجلس في نفس المكان وأدخل إصبعه في نفس الثقب فانحشر فيه بقوة فلما رأوه قالوا لماذا فعلت هذا قال: «أردت أن أعرف إذا كان قد انسع عن أمس أم لا »[٢] وقد ذهبت هذه القصة مثلا بين الناس حتى أن الشاعر دقيقي الطوسي ضمنها في شعره ، وقال الشاعر منوچهري « لا يضع الشخص إصبعه في ثقب الباب إلا مرة واحدة » . وجرى هذا القول مجرى المثل العربي « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ، وهناك مثل عامي فارسي في نفس المعنى يقول : « الحمار لا يضع رجله في جحر الفأر إلا مرة واحدة » .

على كل حال فإن معاونة أزهر واستمالته للخوارج إلى جانب يعقوب أدت إلى استقامة أمر سيستان ليعقوب ، وجعلته قادراً على متابعة أهدافه الأخرى في راحة وهدوء وطمأنينة ، وقد أرسل يعقوب مبعوثا إلى عمار — لأجل إقامة تعاون مع الخوارج — حمله رسالة يشيد فيها بحمزة بن عبد الله رئيس الخوارج الكبير في سيستان ويقول فيها : « كان حمزة بن عبد الله رجلا لم يقصد إطلاقا الإضرار بهذه المدينة كما لم يؤذ أي رجل سيستاني ، وقد خرج

---

(١) قابوس نامه طبع نفيسي ٦٨ .

(٢) تاريخ سيستان ص ٢٧٠ .

على رجال السلطان ولكن رعية السلطان كانوا منه فى أمان »[١]. وأشار فى هذه الرسالة إلى الظلم الذى ارتكبه رجال السلطان ، وحق حمزة فى الاصطدام بهم ، ثم أضاف قائلا : « ولكن الوضع قد تغير الآن وإذا كان لا بد لك من السلامة ، فلا تفكر فى السلطان وانهض مع جيشك وضع يدك فى يدنا لأننا قمنا عن عقيدة سليمة وهى ألا نترك سيستان لأحد فإذا نصرنا الله تعالى فإننا سنضيف إلى ولاية سيستان ما نستطيع إضافته إليها[٢] » .

وقد استغل يعقوب كل مشاعر الوطنية لدى عمار وأصحابه ، مما جعله لا يستطيع رفض اقتراح يعقوب فطلب وقتاً لدراسته . ولا بأس أن نستعرض معا من هم الخوارج ؟ ومن هو ذلك المدعو حمزة الخارجى الذى يذكره يعقوب بكل هذا الاحترام ؟ .

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ٢٠٣ .
(٢) نفس المرجع السابق .

الفصل الرابع

« لقد هب رجل من خوارج سيستان
وأغار على خراسان وكرمان وقتل
عمال هذه الولايات الثلاث وانعدم
الدخل ولم يعد يصلنا درهم ولاحبة
من خراسان وسيستان وكرمان » .
« من رسالة والى خراسان
إلى الخليفة ببغداد »

الخوارج أبطال هضبة هيرمند :

ظاهر الأمر أن صالحاً نهض للانتقام من الخوارج لقتلهم أخيه عثمان ، ولكن تجدر بنا الإشارة إلى أن خوارج سيستان تعاونوا مع إبراهيم القوسى فى مقاومة عثمان وأن التذرع بالانتقام من الخوارج كان فى الحقيقة شعارا لمعارضة حاكم المدينةوهو إبراهيم القوسى فمن هم هؤلاء الخوارج ؟ وماذا كان تأثيرهم فى الوضع الاجتماعى لسيستان ؟ هذا ما سنحاول إجماله هنا .

سيستان ملجأ الخوارج :

من الموضوعات الهامة فى تاريخ إيران وخاصة فى صدر التاريخ الإسلامى مسألة التجاء الخوارج إلى سيستان ووصولهم إلى مراكز القوة بين أهل هذه المنطقة وما حولها .

وتطلق كلمة الخوارج على تلك الجماعة من المسلمين التى أعلنت مخالفتها لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه بعد معارك صفين ومسألة التحكيم . وتوضيح هذا أنه فى عام ٣٧ هـ بينما كانت جيوش على من ناحية تقف فى مواجهة جيوش معاوية فى الناحية الأخرى فى مكان يعرف باسم « صفين » فى بلاد مابين النهرين ، أحس عمرو بن العاص أحد قواد جيش الشام

أن جيش على قد يلحق بهم الهزيمة فلجأ إلى فكرة رفع المصاحف على أسنة الرماح ، وتوجه إلى جيش على قائلا : « نحن وأنتم جميعا مسلمون ونتبع القرآن فلماذا نتقاتل ؟ » (١)

وقد اضطر على تحت ضغط جماعة من جيشه إلى قبول التحكيم وانتخب أبو موسى الأشعرى من قبل جيش على ، كما انتخب عمرو بن العاص من قبل جيش الشام للقيام بالتحكيم وقد لجأ عمرو بن العاص إلى حيلة أثناء جلسات التحكيم ، وقال إنه من الأصلح أن نخلع كلا من على ومعاوية من الخلافة ونحيل هذا الأمر إلى الشورى ، وفى اليوم التالى وضع منبر أمام الجيشين وصعد أبو موسى أولا وبعد خطبة خلع خاتما من أصبعه وقال خلعت عليا من الخلافة كخاتمى هذا ، ونزل من على المنبر ، وكان من المتفق عليه أن يصعد عمرو بن العاص المنبر ويقول نفس الشىء عن معاوية ، ثم يختار خليفة عن طريق استشارة الناس ، ولكن عمرو بن العاص صعد المنبر وقال : « لقد خلع هذا الرجل صاحبه كما سمعتم ، وأنا الآن أثبت معاوية » . (١)

وقد سرت همهمة بين الناس ، وأدى هذا إلى الانقسام فى جيش على ، واضطر على نفسه للعودة ، وصاح البعض قائلين « لاحكم الا الله » ، وخطأوا مسألة التحكيم ، وكان عدد هؤلاء أثنى عشر ألفا ارتدوا عن على ، فلما أعلنوا مخالفتهم له قتل أغلبهم وهذا ما سبب حنقهم الشديد ودفع بواحد منهم وهو عبد الرحمن بن ملجم فى ١٩ من رمضان عام ٤٠ هـ إلى قتل على وهو واقف فى محراب مسجد الكوفة (٢) .

هذه خلاصة لأسباب ظهور فرقة دينية شديدة التعصب أخذت بعد ذلك لونا سياسيا وكانت سببا فى قيام حوادث هامة فى تاريخ إيران والإسلام .

كان الخوارج مبعثرين فى العراق ، أما فى كل مدن إيران وعلى الخصوص فى فارس

---

(١) الإمامة والسياسة ، ص ١١٨

(٢) حبيب السير ، جـ ١ ص ٥٢٧

وكرمان وسيستان، التي كانت تبعد إلى حد ما عن عاصمة الخلافة، فقد ظهرت جماعة متمردة غير راضية أطلق عليها اسم الخوارج لأنها كانت تعارض الحكام العرب الذين كانوا يعينون من قبل الخليفة، ولاشك أن جماعة الخوارج هذه كانت متعاونة مع الخوارج الفارين من الظلم فى العراق والكوفة والهاربين من قسوة الحجاج بن يوسف الثقفى. ولكن نجاح الخوارج فى سيستان كان وليد أسباب خاصة ترجع إلى تعصب أهل هذه الناحية، فقد رأوا أفعالا تحدث من المسلمين والعرب عامة وحتى من الخلفاء لم يروا لها سندا أو حجة فى الكتاب أو السنة مثل قتل عثمان وحرب الجمل وقتل طلحة والزبير وحرب صفين وخديعة عمرو ابن العاص وعزل الحسن بن على وجميع أولاده وحز رأس الحسين وإرسال نساء المصطفى (صلعم) عاريات الرءوس إلى الشام وضرب الحسين بن على على شفتيه وأسنانه التى قبلها المصطفى آلاف المرات وقتل مصعب بن الزبير وإرسال الحجاج بن يوسف جيشا إلى مكة رماها بالأحجار والمناجيق وقتل عبد الله بن الزبير وصلبه مقلوبا على شجرة. وهى أحداث جعلت جماعة من أصحاب المصطفى يقولون: « إن الدنيا لم تعد تليق بالدين »، ودفعت لخروج الخوارج فى كل مكان، وانضم إليهم الناس خاصتهم وعامتهم (١).

ولابد أن نذكر هنا أن قسوة الحجاج بن يوسف هى التى أدت إلى هجرة الخوارج إلى المناطق الداخلية والشرقية من إيران، وقد ساعد هؤلاء الخوارج عدد كبير من المسلمين الذين لم يكونوا راضين عن الحكومة وبعد وقت قصير سقطت أقاليم كرمان وسيستان فى يد الخوارج، وأرسل الحجاج، عبيد الله بن أبى بكر على رأس جيش إلى سيستان وقد اشتبك أهل سيستان، يساعدهم الخوارج، مع طلائع هذا الجيش فى قتال شديد أسفر عن فناء هذا الجيش بين قتيل وجريح فسمى « جيش الفناء (٢) ».

بعد هذا أرسل الحجاج فى عام ٨٢ هـ قائدا آخر هو عبد الرحمن بن محمد الأشعث إلى

---

(١) تاريخ سيستان، ص ١٠٩.

(٢) « « « ص ١١١.

سيستان لأن شأن الخوارج آنذاك كان قد ارتفع وازدادت قوتهم فى سيستان ، وكان يتزعمهم أحد أعيان سيستان وهو عبد الله بن عامر ، وكان كل أهـل البلاد من شيعته يؤيدونه ، وقد طلب الحجاج من عبد الرحمن أن يرسل له رأس عبد الله بن عامر فى أقرب وقت [١] . ولم يقم عبد الرحمن بما كلف به فخلعه الحجاج وغضب عليه ، ولما لم يكن أمام عبد الرحمن من سبيل للعودة إلى العراق فقد انضم للساخطين والمخالفين فى سيستان وخرج بهذا على الحجاج .

وقد أرسل الحجاج جيشا يتعقبه وهزم عبد الرحمن الذى استطاع اللجوء إلى ملك كابل . وقد بذل الحجاج وعودا لملك كابل حتى استطاع أن يسترد عبد الرحمن وقيد إحدى رجليه فى حلقة ربطها فى حلقة قدم سجين آخر ، وبقى هذان السجينان مدة طويلة هكذا ، ولـكن قصة موت رفيقى السجن هذين قصة مشهورة ، إذ أنه فى أحد الأيام بينما كانا على سطح أحد مبانى الحـكومة قال عبد الرحمن لرفيقه لقد مرضت مرضا لا أستطيع معه السيطرة على البول ، وسارا حتى إذا كانا قرب حافة البناء ألقى عبد الرحمن بنفسه من فوق السطح فسقطا معا وأسلما الروح [٢] .

وبعد نحو خمسين عاما على هذا التاريخ أصاب سيستان خلالها ما أصابها من أطماع الحـكام الذين كانوا يعينون من قبل ديوان الخلافة ، وحدثت اضطرابات كثيرة دفعت الناس إلى الانضمام للمعارضين ، أى للخوارج ، جماعات جماعات .

حاكم سخى وقاس :

فى عام ١٢٦ هـ اختير قطرى بن الفجاءة رسميا لرئاسة الخوارج بينما كانت كل مدن سيستان مضطربة غير مستقرة تـكثر بها الحروب والاغتيالات ولا يكاد يمر فيها يوم دون

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ١١١ .

(٢) تاريخ سيستان، ص ١١٧ .

حرب أو غارة ، وانقسمت سيستان إلى فريقين متنافسين ، وكانت الخوارج تتزايد حتى بعد مقتل قطرى بن الفجاءة ، إلى أن كانت سنة ١٥١ هـ عندما أصبح معن بن زائدة الشيبانى واليا على سيستان ، وكان رجلا قاسيا ولكن سخاءه الذى كان مضرب الأمثال لم يحل دون ازدياد السخط بين أهل سيستان خاصة وأنه كان يطالبهم بأتاوات كثيرة كما حدث عندما أرسل إليه رتبيل ملك كابل هدية مكونة من أوعية وأطباق من الفضة وعباءات تركية من الحرير ولطائف أخرى ، ولكن معناً استقلها وثار غاضبا وأمر بقطع الطرق ومراقبتها حتى بلغه نبأ قدوم ملك كابل فانقض عليه فجأة وأسر ثلاثين ألف رجل من رجاله دفعة واحدة فطلب صهر ملك كابل الأمان . . وفى طريق العودة صادر معن أموال أهل بست ، ولما وصل إلى سيستان ارتكب ما اعتاد أن يرتكبه مع الأهالى فثار أهل سيستان جميعا[1] . والحقيقة أن معنا عامل أهل سيستان معاملة سيئة ولحقهم من ظلمه وجوره الشىء الكثير[2] .

شكوى الأهالى تقع فى يد الحاكم :

لم يجد الأهالى بدا من عمل شىء ، فقام عبد الله بن علاء ، أحد أعيان سيستان بكتابة شكوى عن سلوك معن إلى الخليفة العباسى المنصور ، وأثناء الطريق وقعت هذه الرسالة فى أيدى جواسيس الحاكم ، فأخذوها وحملوها إلى معن فاستدعى كاتب الرسالة عبد الله ابن علاء ، وكان رجلا جليلا ، وأمر بحلق رأسه وضربه أربعمائة سوط ثم أمر بقطع رأس كل شخص تعاون مع عبد الله ، وكانوا أربعمائة ، لكن هؤلاء الأربعمائة استطاعوا استغلال طمع الوالى السخى ، وإنقاذ أرواحهم من سيف الجلاد بالتنازل عن ثرواتهم وكل ما يملكون ، وبهذا فدوا أنفسهم . وقد أخذ معن أربعين رجلا من هؤلاء الخوارج وقيدهم وأرسلهم إلى بست لينظر فى أمرهم فيما بعد[3] ، وفى بست أمرت هذه الجماعة ببناء قصر لمعن دون مقابل أو أجر .

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ١٤٤

(٢) معجم البلدان ، ص ٢٨٥ .

(٣) تاريخ سيستان ، ص ١٤٤ .

أما عن شهرة معن بن زائدة بين الشعراء والخطباء وطيب ذكره ، فترجع إلى سخائه وبذله الأموال لمادحيه بغير حد أو حساب ؛ إذ كان ينفق إعلى الشعراء والخطباء مبالغ كبيرة للدعاية لنفسه حتى أنه أعطى لشاعر ألف دينار لقاء كل بيت من الشعر وقال له : « إذا قلت شعرا ولو ألف بيت ، لأعطيتك ألف دينار عن كل بيت » . وهكذا كان دائما « فقد كان يأخذ الأموال ظلما وينفقها فى جوداً » (١) .

وكانت قسوة معن بن زائدة سببا فى نسج مؤامرة ضده ، إذ تآمر جمع من الخوارج على قتله مكابرة ، أما كيف قتل معن ؟ فلهذا قصة من أعجب القصص .

المسخرون قتلة الحاكم :

قلنا إن معنا قبض على جماعة من مخالفيه المعروفين بشرفهم وحرية أفكارهم ونفاهم إلى بست ، وأمرهم أن يبنوا له قصرا عن طريق السخرة ، وفى الأيام الأخيرة من إتمام البناء أبلغوه أن القصر معد للافتتاح ، فذهب معن إلى بست ، وأثناء الطواف فى أرجائه تراءى له أن يشرب فى إيوان القصر ذى الروعة والبهاء . وكان العمال من الخوارج قد أعدوا العدة لاغتياله ، إذ كانوا يقطعون كل يوم أحمالا من العشب والبوص ، ويحملونها معهم كحطب لاستخدامه أثناء الليل ، وفى ذلك اليوم ربطوا حزم البوص ربطة واحدة ، وأخفى كل واحد منهم خنجرا بداخلها ، وبينما كان معن يقف فى الإيوان جاء هؤلاء العمال من مختلف طرقات القصر وطلبوا من حاجب معن وخادمه الخاص أن يسمح لهم بلقاء معن ، ولكن الحاجب رفض ، وقال إن لقاء الأمير غير ممكن ، فاحتجوا وتعالى صياحهم بأنهم تعبوا طويلا ويريدون أخذ عطاء الامير وجائزته على عملهم ، وقالوا له : « الآن وقد انتهينا من عملنا تريد أن تحرمنا من عطاء الأمير (٢) » وبلغ صياح العمال إلى معن فأمر بتركهم يدخلون عليه ، فتقدموا إليه وما كادوا يقتربون منه حتى أخرجوا خناجرهم وهجموا عليه دفعة واحدة .

---

(١) تاريخ سيستان ص ١٤٦ .

(٢) نفس المصدر .

وكان معن من شجعان العرب ولكنه فى ذلك الوقت ، لم يكن يحمل أى وسيلة يدافع بها عن نفسه حين قاحمل الخوارج عليه حملتهم الفاجئة ، فنظر حوله فرأى وسادة حملها واستخدمها كدرع يحمى به نفسه ، ولكن العمال صوبوا خناجرهم نحوه واستطاع معن أن يردهم واحدا بعد الآخر ولكنه أصيب بجراح كثيرة حتى أصابه أحد الخناجر فى بطنه إصابة بالغة ، فمزقته . وكانت هـذه الحادثة فى عام ١٥٦ هـ ودفن معن فى مدينة بست(١) .

وبلغت أنباء مؤامرة الخوارج إلى يزيد بن مزيد ، أحد قواد معن حيث كان يقيم على بعد أربعة فراسخ من بست ، فتوجه على الفور إلى بست وقتل جماعة من الخوارج ؛ وفر بقيتهم ، وأخمدت الفتنة ، وأصبح يزيد حاكما لبست .

ظهور حمزة الخارجى :

انقضت عشرون عاما تغير فيها حكام سيستان ، أو أبدلوا واحداً بعدالآخر ، ولكن ضغائن الخوارج وحقدهم كانت كالنار تحت الرماد ، إلى أن رفع حمزة بن عبد الله زعيم الخوارج المعروف ، راية العصيان . وكان حمزة من أهل «أوق» إحدى قرى سيستان(٢) . وكان يعتبر نفسه من نسل « زو بن طهماسب » البطل الأسطورى الإيرانى ، فبعد أن أدى حمزة مراسم الحج اتصل بكل مراكز الخوارج وتعرف على المعارضين للخلافة فى بغداد ، وبعد عودته من الحج بايعه أكثر خوارج سيستان الذين كانت تضمهم جمعيات سرية وخفية والتف حوله نحو خمسة آلاف من الخوارج .

وصلت أنباء خروج حمزة إلى عيسى بن على بن عيسى بن ماهان الذى كان واليا على خراسان من قبل الخليفة فتوجه من نيسابور إلى سيستان فى شوال عام ١٨٢ هـ

---

(١) تاريخ سيستان، ص ١٤٧ .

(٢) الملل والنحل .

ليخمد فتنة حمزة فى مهدها ، ودارت معركة بين الفريقين واستبسل فيها الخوارج وقتلوا كثيراً من جند عيسى الذى هرب عائدا إلى خراسان بينما سلك قواده طريق « ميان بر » فى الصحراء إلى خراسان .

كان هذا النصر من ناحية الدعاية وتقوية الروح المعنوية لحمزة والخوارج ذا أثر بالغ ، فنظم الشعراء فى مدحه قصائد كثيرة كانت تنشد فى الأسواق والحوارى . أما حمزة ـ بعد هذا النصر ـ فقد جمع أهالى القرى والمناطق القريبة من سيستان فى أحد الميادين ثم صعد المنبر وأعلن فى خطبة بليغة معارضته الرسمية للخليفة وعماله ، خصوصا حاكم خراسان ، ثم ختم خطبته بقوله : « لا تدفعوا درهما من خراج ولا أى مال آخر للخليفة لأنه لا يستطيع حمايتكم . وأنا لا أريد منكم شيئا ولن آخذ شيئاً لأننى لن أبقى فى فى مكان واحد »(١) .

وكان هذا الإعلان ذا أهمية خاصة عند أهل سيستان الذين أرسلوا على مر السنين قناطير الذهب والفضة وقوافل البغال والجوارى والغلمان إلى بغداد ، كما رأوا باستمرار القوافل التى تحمل الهدايا من حكام سيستان ، أو خراج كابل ، وهى تطوى الطرق التى تغطيها الرمال فى صحراء سيستان وبم أو خراسان وطبس متجهة ناحية الغرب إلى بلاط الخلفاء العباسيين ، أو الشمال إلى عاصمة الطاهريين عمال الخليفة . وقد سحر كلامه الناس لدرجة لم يجرؤ معها عربى بعد ذلك على المطالبة بخراج من سيستان ، ولم يصل إلى بغداد منذ ذلك اليوم دخل أو متاع(٢) .

أخبار خراسان :

من أخطاء هارون الرشيد السياسية أنه أخذ ولاية خراسان من يحيى البرمكى عقابا له وأعطاها لعلى بن عيسى ، وكان على بن عيسى لا يفكر إلا فى ملء جيوبه وإرسال الهدايا إلى بغداد . وقد أطلق يده فى الاستيلاء على الأموال دون حساب ، وقد تجاوز الحد

---

(١) تاريخ سيستان ص ١٥٨ .
(٢) نفس المرجع السابق .

فى جمع الأموال من خراسان وما وراء النهر وبلاد الجبل وجرجان وطبرستان وكرمان وسباهان وخوارزم وسيستان، وجر عليها الخراب بجمعه للأموال منها دون حساب[1] .

أما ابنه عيسى الذى جاء لقتال حمزة فكان يحمل صفات أبيه ، ولهذا يمكن أن نستنتج ما قام به وما فعله فى سيستان،ولكن من المسلم به أن قسوته وتشدده ساعدت على تهيئة الجو لحمزة وأعوانه، وعملت على استمرار الفوضى وعدم الاستقرار ستة أعوام أخرى.

وقد فكرت خراسان وبغداد جديا فى إخماد فتنة الخوارج فى سيستان ، وكانت الرسل السريعة تتردد بين المدينتين ، وسعى وجهاء القوم فى إطفاء نار هذه الفتنة بأى شكل من الأشكال ، ولكن حمزة الذى كانت قوته قد ازدادت إلى حد كبير ، أراد أن ينهى الأمر كما يريد ، فخرج مع أصحابه المقربين الشجعان مغيرين على خراسان ونيسابور . وكان عيسى بن على قد أخذ منشور ولاية سيستان مرة أخرى من أبيه . فلما علم أن حمزة وصل إلى خراسان ذهب خلفه إلى سيستان وتوغل حتى « فراه » ، وأخذ الخراج والضرائب من الأهالى ، ونزل قرب كركوى (١٨٨ هـ = ٨٠٣ م) فلما بلغت حمزة ـ وهو فى خراسان ـ أنباء سيستان عاد إليها ، والتقى على مقربة من العاصمة مع عيسى بن على ، فلما لحقت الهزيمة بحمزة ، اضطر للفرار إلى خراسان فسار عيسى بن على فى أثره حتى لحقه فى نيسابور ، ودارت بينهما رحى حرب جديدة ، استعمل فيها حمزة أسلوب الكر والفر متراجعا إلى سيستان . أما عيسى فقد بقى مع والده فى نيسابور ، وفى آخر رسالة وجهها على بن عيسى إلى هارون الرشيد شرح له مشاكل قضية سيستان ، فقال : « لتعلم أن رجلا من خوارج سيستان قد ثار وهو يقوم بالإغارة على خراسان وكرمان ، وقتل عمال هذه النواحى الثلاث ، فانقطع الدخل ولم يعد يصل إلينا درهم ولا حبة من خراسان أو كرمان أو سيستان[2] .

---

(١) تاريخ بيهقى، ص ٤١٧ .
(٢) تاريخ سيستان، ص ١٦٠ .

هارون الرشيد يخرج لقتال حمزة .

أيقظ هذا التقرير الرسمي من والى خراسان وسيستان هارون الرشيد من غفلته وأطلعه على وخامة الأوضاع فى المشرق ، وكانت الأنباء قد تواترت للخلافة خلال السنوات السابقة عن اضطراب سيستان وخاصة مدينة بست ، وكانت هذه التقارير تحفظ ولا يهتم بها أحد ، إلا أن الخليفة رأى هذه المرة أن يضع حدا لهذا الأمر ، وقرر أن يذهب بنفسه إلى خراسان . وفى هذه الأثناء كان قد أجتمع حول حمزة ثلاثون ألف فارس ، فلما وصل هارون الرشيد إلى الرى ، رأى ـ لعدة أسباب منها أنباء عن احتمال هجوم الروم على الثغور الإسلامية ـ أن ينثنى عن عزمه ويعود من الرى[1] .

وبقيت الأوضاع مضطربة كما هى فى سيستان ، وبلغت الجرأة بالخوارج أنهم هجموا فى يوم من الأيام على مقر الدوائر الحكومية ، فأحرقوا الدواوين ، وعبثوا بالخراج[2]، فرأى هارون الرشيد أن القيام بأمر خراسان لم يعد فى مقدرة على بن عيسى فعزله من ولايتها ، وعين هرثمه واليا على خراسان وسيستان ، ولا شك أن الرشيد فكر فى الذهاب إلى خراسان والتحدث إلى أهلها ، وترتيب أمورها بما يسهل على ابنه المأمون — الذى كان أهل إيران يحبونه ويجلونه ـ إدارة شئون سيستان ؛ ولهذا توجه مرة أخرى إلى خراسان فى عام ١٩٢ هـ ، وفى أثناء الطريق كتب رسالة إلى حمزة بن عبد الله يأمره بالطاعة والمساعدة على استقرار الأمن[3] وكان هارون قد وصل إلى طوس ، ولكن حمزة لم يقبل شروط الخليفة ، واستعد لقتاله وأعلن أن هذه آخر معركة لتحديد موقفه وموقف الخوارج من الخلافة فى بغداد . وفى الرسالة الأخيرة التى بعثها حمزة إلى أعوانه ، طلب منهم العون والمساعدة الكاملة ، فلم يخيبوا رجاءه وأقسموا على طلاق نسائهم إن

---

(١) تاريخ سيستان، ص ١٦٠ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) نص هذه الرسائل بالعربية فى تاريخ سيستان ص ١٦٢ .

لم ينصروه ، وكتبوا وصاياهم ، ولبسوا أكفانهم والسلاح فوقها ، وبلغوا ثلاثين ألفا ، جميعهم من الزهاد وحفظة القرآن[1] . وكانوا ينشدون .

أظن هرون وأشياعه أنا نبيع الحق بالباطل
ولم يكن حمزة ممن يبيع آجله بالعاجل الزائل[2]

وتقدم هذا الجيش نحو خراسان ، ووصلت أنباء حركته إلى نيسابور فى نفس الوقت الذى وصل فيه خبر وفاة هارون الرشيد فى سناباد طوس[3] ودفنه بها (جمادى الآخرة عام ١٩٢ هـ) فلما جاء نعي هارون إلى حمزة توجه إلى أصحابه قائلا : « وكفى الله المؤمنين القتال » ، وكف يده منذ تلك اللحظة عن مناوأة الخلافة .

أبطال سيستان ، فدائيو الإسلام :

لم يعرف السبب الحقيقى الذى أدى إلى تغيير حمزة لسياسته منذ ذلك اليوم ، فلعل النخوة والفتوحات المتوالية قد أسكرته وغرته ، أو لعل المحيطين بحمزة خدعوه بالقوة التى لا تحد ، وأخرجوه عن الطريق الأصلى للعمل ، أو لعل الزهد والورع والتدين الذى لا يعرف حدا هو الذى دفعه إلى كف يده عن حرب المسلمين وقتالهم ، وأن يعوض الفتن التى أثارها ضد الخليفة بالحرب ضد الكفار . ومهما يكن السبب فانه غير رأيه منذ ذلك اليوم الذى سمع فيه بموت هارون وقال : « واجبنا الآن أن نغزو عبدة الأصنام فى السند والهند والصين والتركستان والروم والزنج[4] » .

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ١٦٨ .
(٢) تاريخ سيستان ، ص ١٦٨ .
(٣) دفن فى نفس هـذا القبر الإمام على بن موسى ، وقامت المنازل والمتاجر حول هـذا المشهد تبركا بالإمام ، وتحول إلى مزار مشهور وأصبح مدينة مشهد الحالية التى تعتبر ثالثة مدن إيران . واندثرت مدينة طوس المشهورة ولم يبق منها إلا سورها المبنى من الطين (المترجم) .
(٤) تاريخ سيستان ، ص ١٧٠ .

قلنا إن أعوان حمزة أيدوه فى هذا الاتجاه الجديد ؛ وكان إصراره على رأيه هذا ما جعلهم جميعاً يسلمون بكل ما يقول ، ولم يبد أى اعتراض على هذا الرأى الذى يبدو غير منطقى؛ ولم يقولوا له على أى أساس وبأية قوة تزمع الدخول فى حرب مع الصين والهند والسند وتثبيت راية الإسلام فوق أرض الكفر ، وأنت لم تستطع بعد أن تسيطر على ولاية سيستان .

لم يبد أعوان حمزة أى اعتراض ؛ بل قالوا قولة رجل واحد : « إننا معك فيما يأمرك به الله » . فوزع خمسة آلاف فارس ، أرسل خمسمائة منهم إلى كل من خراسان وسيستان وفارس وكرمان . . . ثم ذهب إلى السند والهند ، حتى وصل إلى سرنديب ، وركب البحر ، وزار قبر آدم عليه السلام ، ورأى آثاره ، وقام بغزوات كثيرة ، وذهب للصين بحرا ومنها إلى منغوليا ، ثم وصل إلى التركستان وذهب الى بلاد الروم ، وعاد منها إلى التركستان ورجع إلى سيستان عن طريق مكران ، وحارب فى كل الأماكن ، وقال لأعوانه: « إن الله تعالى ينصر دين محمد » (١) .

ومما يثير العجب ، أن أحدا لم يوجه حمزة أو يرشده للاستفادة من الظروف المواتية آنذاك ، مثل بعد الخليفة القوى عن مقره فى بغداد ، ثم موته فى خراسان ، واضطراب الأحوال فى عاصمة الخلافة وسائر المدن ، والحقيقة أن حمزة خسر أحسن الفرص المواتية لنجاح أهدافه ومقاصده الوطنية بالتغيير الفكرى الذى سيطر عليه ، وأدى بدوره أيضاً إلى اضمحلال تنظيمات الخوارج .

أما عن خوارج سيستان بعد سفر حمزة وأعوانه الشجعان الذين رافقوه ، فقد تفرق شملهم ، ولم يستطع أبو عقيل الذى حل محل حمزة ؛ أن يجمعهم وينظمهم حتى بعد عودة حمزة إلى سيستان ، فإنه لم يتمكن من إعادة الأوضاع إلى سابق عهدها وانتهى

---

(١) تاريخ سيستان، ص ١٧٠ .

الأمر بوفاة حمزة فى جمادى الآخرة عام ٢١٣ هـ . وفقد الخوارج بطلهم الفاتح وأصبحوا بعده فرقة من المحاربين يستفيد منهم الحكام فى إخضاع أعدائهم — وكما سبق أن قلنا — استفاد منهم ابراهيم القومى فى إخماد فتنة بست وقيام العيارين . ولهذا السبب استولى صالح بن نصر ليلا على مدينة زرنج بحجة الانتقام لدم أخيه وقمع الخوارج ، وساعده يعقوب بن الليث ، الذى حصل فى مقابل هذا على لقب « قائد بست »[1] .

وكانت نتيجة هذه الحوادث هى انتقال القوة والسلطة من فرقة إلى فرقة ، وجاء العيارون وأخذوا مكان الخوارج .

---

(٢) زين الأخبار ص ٦ .

الفصل الخامس

إننى عيار محترف إذا وجدت
خبزاً أكلت ، وإلا فإننى أتجول
وأخدم العيارين والفتيان ، وإذا
قمت بعمل ، فهو للشهرة ، وليس
من أجل الخبز .
من كتاب « سمك العيار » (١)

العيارون ، الفتية الجوالون بالليل :

الفرقة التى تناولناها بالحديث قبل هذا تحت اسم الخوارج ، فى نظر أهل سيستان تتسم بنقطتى ضعف من ناحية الروح الوطنية ، الأولى أنها كانت تتكون من رجال متدينين ومتعصبين ، وكانت الناحية الدينية لديهم تفوق الناحية الوطنية الشعبية . والثانية ، أن أغلبهم كان ينحدر من أسر عربية مهاجرة ، وبالطبع لم تكن لديهم تلك الرابطة وذلك الإخلاص اللذان كانا يجب أن يكونا فيهم نحو وطنهم ، ومثال هذا تعصب حمزة الدينى الذى جعله يترك قتال الخليفة فى أنسب الظروف السياسية بعد موت هارون ، ويذهب لقتال الكفار .

لهذا فإن الأهالى عامة ، والشباب والأفراد ذوى الحمية والغيرة منهم خاصة ، كانوا يبحثون عن طريق آخر ، وشعار آخر يجمع كل مشاعرهم الوطنية وحبهم لبلادهم ، وكانت تقاليد العيارين تحقق آمالهم ، فنشأت فى أغلب مدن إيران جماعات عرفت فى التاريخ فيما بعد باسم « العيارين »[٢] .

---

(١) سمك العيار ص ٣٠٧ .

(٢) فى اللغة : عار الفرس ، انفلت وذهب هاهنا وهاهنا من مرحه ، وفرس عيارأى يسير هاهنا وهاهنا من نشاطه ، ويسمى الأسدعيارا لمجيئه وذهابه فى طلب صيده، ورجل عيار ، أى كثير التطواف والحركة ذكى . « مختار الصحاح ص ٤٦٥ » (م) .

كان أغلب أعضاء هذه الفرقة من الطبقات السفلى والمتوسطة من الناس الذين لم يحصلوا على أى قدر من المعرفة والثقافة ، ولكن روح التعاون والإخلاص كانت تربط بينهم وتساعد كثيراً على إنجاح أعمالهم ، وكان الخيط الذى يؤلف بين قلوب هذه الجماعة هو المحبة والألفة وصداقة كل منهم للآخر . وتكونت هذه الجماعات من أفراد عاطلين فاسدين وجدوا من يرعاهم فى المدن ويتولى أمرهم . كما أن الشباب والأشخاص الرياضيين فى المدن والذين كانوا يقدمون ألعابهم من رمى للجلة والعدو وسائر الألعاب الأخرى فى الميادين وأماكن التجمعات خاصة فى أيام الفراغ فى الشتاء ، كانوا يتعرفون على هؤلاء العيارين حتى إذا وقفوا على تقاليدهم وشروطهم من حفظ الأسرار والفتوة والشجاعة والاستقامة والصدق ، طلبوا الاشتراك فى اجتماعاتهم ، ولهذا أخذت هذه الجماعات تزداد قليلا قليلا فى المدن حتى أصبح رؤساء بعض الفرق يحظى باهتمام الحكام والولاة وعنايتهم .

أما فى سيستان — بصفة خاصة — حيث اشتهر عياروها بالذكاء والمهارة ، فقد قامت لهم تنظيمات وجماعات سرية ، ولما كان عليها أن تؤمن نفقات هذه التنظيمات فقد عمل أعضاؤها فى حراسة الطرق ، وأخذ أتاوات من القوافل مقابل توصيلها سالمة إلى مقاصدها . وعن هذا الطريق حصلوا على نفقاتهم ، فإذا ما رفضت قافلة دفع هذه الأتاوة فإن مصيرها كان يصبح شيئاً آخر ، ولهذا أطلق على العيارين أيضاً « قطاع الطرق » .

أما فى بقية المدن ، فكانت هناك أسباب أخرى لقيام العيارين ، ولكن تجمعهم كان يقوم أساسا نتيجة لتذمر العامة وظلم الحكام . واستفاد العيارون من هذه الظروف وأقاموا تنظيماتهم ، وكان مركزها الأصلى فى بغداد عاصمة الخلافة ، ومن هناك سرت إلى بقية المدن .

وقد بدأ ظهور العيارين فى أواخر القرن الثانى الهجرى فى بغداد ، وكان لهؤلاء العيارين دخل كبير فى الفتنة بين الأمين والمأمون . فعندما حوصر الأمين فى بغداد ، وعجز جنده عن الدفاع ، التجأ إلى العيارين والمسجونين فاستفاد العيارون من حاجة

الخليفة إليهم ، فلما أنفق الأمين كل ما فى خزانته على الحرب وخلت من الأموال ، وخلت عاصمته من الجند ، لجأ إلى أوانى الذهب والفضة فصهرها وسك منها عملة ، وباع المتاع والأقمشة النفيسة بنصف قيمتها ، وأعطاها للعيارين وقادة العصابات لكى يهبوا للدفاع عن بغداد ضد الخراسانيين[1] ، وقاتل هؤلاء العيارون وهم عراة لا يحملون أسلحة حربية كافية ، إذ كانوا يكتفون بمئزر حول وسطهم وقناع يغطى وجوههم ، أما سلاحهم فكان عبارة عن المقاليع[2] يلقون بها القلاعات[3] على الأعداء ، وكان بعض هؤلاء العيارين ذوى مهارة فى إلقاء القلاعات حتى إنه ليقال إن رجلا كان يمر يوما فى سوق بغداد يحمل على رأسه طبقا فيه سمك مقلى فصوب إليه أحد العيارين من يعيد قلاعة من مقلاعه وبلغ من دقة أحكامه التصويب أن أطارت القلاعة سمكة من الطبق دون أن يشعر بذلك حامل الطبق[4] . وكان لهذه الجماعة تشكيلات وتنظيمات فى غاية الترتيب والدقة إذ كان على رأس كل عشرة من العيارين رئيس بلقب عريف ، وكل عشرة من العرفاء عليهم نقيب ، وكل عشرة من النقباء عليهم عقيد ، وكل عشرة من العقداء عليهم أمير . وكان أفراد هذه المنظمات يضعون على أعناقهم منديلا أحمر أو أصفر ويمسكون فى أيديهم حبلا ، وكانوا إذا حاربوا حاربوا بشجاعة ورجولة . وقد أشار إلى شجاعتهم وجرأتهم أحد الشعراء العرب ؛ فقال :

ليس يدرون ما الفرار إذا الأبـ	ـطال لاذوا من القنا بالفرار
ويقول الفتى إذا طعن الطعنة	خـذها من الفتى العيار[5]

(١) تاريخ المسعودى ، جـ ٢ ص ٢٣٩ — ٢٤١ وكذا هامش النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٩٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ص ١٠٧ هامش .

(٣) القلاعة هى قطعة من الحجر أو ما شابهه تقذف بواسطة المقلاع .

(٤) حبيب السير ، جـ ٣ ص ٢٥٠ .

(٥) النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ص ١٠٧ هامش .

وبلغ عدد هؤلاء العيارين فى العصر العباسى الأول رقما كبيراً ، ويقدر عددهم فى بغداد أيام حرب الأمين والمأمون (١٩٨ هـ) بنحو ٥٠ ألف شخص [١] .

العمل للشهرة لا من أجل الطعام .

كان العيارون يعتمدون فى عملهم على الفتوة والشجاعة ، ويقومون بتحركاتهم وأعمالهم فى الليل ، فيقفزون من سطح منزل إلى سطح منزل آخر هربا من العسس والشرطة ومأمورى الحكومة ، ويهددون الأثرياء وأصحاب النفوذ والحكام مستغلين خناجرهم وحبالهم ، يتسلقون الأبراج والقلاع ، أو ينامون تحت الجسور ويدخلون من الثقوب والأنقاب ويتحملون كل هذه الأخطار والمشاق خدمة للمساكين من الناس ، أو لدفع ظلم عن مظلوم ، وهم يتميزون بالذكاء والدهاء ، يسافرون بين المدن أو القرى سابلين طرقا غير معروفة أو مطروقة عبر الصحارى والجبال والأودية الصعبة العبور ، وذلك بسرعة ودون خوف منفذين ما يكلفون به من أعمال ، شعارهم « أنا رجل فقير أعمل عياراً ، إذا وجدت طعاماً أكلت ، وإذا لم أجد تجولت أخدم العيارين والفتيان ، وإذا قمت بعمل فللشهرة ، وليس من أجل الطعام ، وما أقوم به فهو لسمعتى وطيب ذكرى » [٢] .

وكان الفتيان والعيارون يأنفون من الكذب والكذابين ، ويحكمون عليهم بعقوبات قاسية ، وكان الانضمام إليهم يتطلب شروطا أخلاقية خاصة ، فكل مستجد عليه أن يؤدى بكل صدق وإخلاص مراسم القسم بكلمات فى غاية التأثير قائلا : « أقسم بالله العادل القهار ، وبالنور والنار والحب ، وبخبز وملح الرجال ، ونصائح الفتيان [٣] » وكان حالف القسم يتقيد بالقسم ويتعهد ألا يغدر أو يفكر فى الخيانة [٤] ، ولم يكن العيارون يقولون هذه الألفاظ بألسنتهم ، بل من قلوبهم حتى لو كان فى صداقة الفتيان ما قد يؤدى

---

(١) مروج الذهب ، جـ ٢ ص ٢١٨ .

(٢ و ٣ و ٤) سمك العيار ، جـ ١ ص ٣٠٧ .

إلى الملاك ، فإنهم كانوا يتقبلونه دون تفكير فى عواقبه[1] . وعلى أساس هذا الاحترام للقسم فإن الناكص لعهده كانوا يقتلونه أفجع قتلة .

لم تكن الخيانة من شيم العيارين ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الخائن سوف يرى عاقبة خيانته ، ويقولون إن عمرو بن أمية ، أحد عيارى حمزة ، ذهب لزيارة قبر آدم عليه السلام فى الهند ، وعند خروجه من الحرم أراد أن يحمل ذهب المقبرة وحليها ، ولكنه بعد أن جمعها وحملها لم يستدل على باب المقبرة رغم بحثه عنه وظل حائراً حتى ترك ما جمعه ، فظهر له باب المقبرة[2] .

وكانت المواد الرئيسية فى قانون العيارين وطريقهم هى :

للعيارين والجنود مروءة على قدر حال كل منهم . وأطلقوا على رجولتهم اسم الفتوة ، وأصل الفتوة ثلاثة أشياء :

أولها : أن تفعل ما تقول .

ثانيا : أن تحافظ على الصدق فى القول والعمل .

والثالث : أن تتحلى بالصبر .

وأكثر الناس فتوة هو الذى يكون :

- شجاعا شهما صابرا في كل عمل .
- صادق الوعد .
- طاهر الذيل طاهر القلب .
- لا يقبل ضرر الغير فى سبيل منفعته ، ولكنه يجيز ضرر نفسه لمنفعة الأصدقاء .
- لا يؤذى الضعيف .
- لا يعتدى على الأسرى .
- يساعد المساكين .

---

(١) سمك العيار ج ١ ص ٣٠٧

(٢) مقدمة أمير أرسلان .

ـ يدفع السوء عن المظلومين .

ـ يقول الصدق ويسمع الصدق ويقدم الحق ويبذله .

ـ لا يسيء إلى المائدة التي أكل عليها خبزا وملحا[١] .

ولا بأس هنا من نقل قصة من قصص العيارين كنموذج من نماذج فتوتهم . فيروى أنه أثناء ضعف الخلافة واضطرابها ، ازدادت قدرة العيارين في بغداد ازديادا كبيرا ،وحدث آنذاك حريق في محلة الباب الصغير بتدبير منهم[٢] التهم أغلب السوق هناك ، وتسبب في خسائر جسيمة ، وقد بعث هذا الحادث الرعب في قلوب أهل بغداد وديوان الخلافة والمسئولين ، ولم يجدوا بدا من إطلاق يد العيارين في سائر الأمور . ومنذ ذلك اليوم ارتفع أمر العيارين حتى وصلوا إلى الجيش ومراكز القيادة فيه ، وأخذوا يجمعون الأتاوات من الأسواق ومن على البوابات . وفي وسط هذا الصراع كان هناك جندي فقير من العيارين يقال له « الزبد » يسكن بجوار قنطرة تعرف باسم قنطرة الزبد نسبة له ، وكان هذا الجندي عاميا عاطلا من متاع الدنيا ، ولكن أثناء هذه الفوضى جمع ثروة مما امتدت إليه يده ، حتى وصل به الأمر في النهاية أن استطاع شراء جارية كان يعشقها بألف دينار ، فلما أراد أن يقضي منها وطرا ، امتنعت عليه فسألها العيار قائلا : « ما تكرهين مني ؟ » .

قالت الجارية : « لا شيء سوى أنك لا تعجبني » .

فسألها العيار : « وما سبب عدم إعجابك هذا ؟ »

فردت الجارية : « لأنني أكره كل السود » .

---

(١) قابوس نامه ، ص ١٨١ .

(٢) الكامل ، جـ ٩ ص ١٨ والنجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٠٧ .

ودون أن يثور العيار أو يغضب كف يده عنها ، ثم سألها « ما هو أملك فى الدنيا وماذا تطلبين ؟ »

قالت الجارية : « أن تبيعنى لغيرك » .

قال زيد : « بل سأفعل ما هو أفضل من هذا » .

ولم يبعها العيار ، ولـكنه أخذها إلى القاضى حيث أعتقها دون قيـــد أو شرط بل وأعطاها ألف دينار . وقد أعجب الناس بـكرم زيد وسعة صدره ، أما هو — العاشق المحطم — فقد ترك بغداد إلى الشام وبقى بها إلى أن توفاه الله .

حق الخبز والملـح :

أما عن هذا المبدأ من مبادىء العيارين الذى يقول : « لا تسىء إلى المائدة التى أكلت عليها خبزا وملحا » فنقول إن هذا المبدأ كان من أصول مبادئهم ، فأكل العيش والملح واحترامه ، كان عملا مقدساً لدى العيارين ولهم فيه قصص كثيرة ، ومن العجيب أن اللصوص وقطاع الطريق فى المناطق الجنوبية الآن إذا ما أغاروا على قافلة وجمعوا ما فيها مما خف حمله وغلا ثمنه ، فإنهم لا يقبلون تناول لقمة من الخبز والأغذية التى تحملها القافلة حتى ولو بلغ منهم الجوع مبلغه ، وذلك حتى لا يكونوا أسرى ملح القافلة . وإذا حدث أحيانا وتناول أحد قطاع الطريق لقمة خبز أو طعاما به ملح مما تحمله القافلة ولو بطريق الخطأ ، فإن اللصوص يردون ما سرقوه للقافلة ، ولازال أكل الخبز والملح حتى اليوم ، بين القبائل والعشائر ، يعتبر فى حكم القسم والتعهد بعدم الخيانة . وهذه إحدى سنن العيارين التى بقيت حتى الآن عبر القرون . وننقل هنـا حادثة وقعت لأقرب أعوان يعقوب وأخيه عمرو بن الليث ، ألا وهو أزهر ابن عمهما ، ففى أثناء ولاية عمرو بن الليث نيابة عن أخيه

يعقوب ، حدث أن كان أزهر عائدا يوما من الصيد فرأى عجوزا قد احتضنت شيئاً، فتقدم نحوها وسألها عما تحمل ، فقالت : « خضروات من الصحراء » ، فقال أزهر : أحضريها . ونزل عن فرسه ، وجلس مع العجوز على حافة الطريق ، وأكل من هذه الخضروات ومن خبز كان معها ، ثم أركب العجوز على فرس آخر كان معه ، وحملها حتى منزله بالمدينة . فلما وصلا ــ وكان الجو صيفا ــ قدم لها غذاء مناسبا وشرابا باردا ، وقال لها :

« هل لك من حاجة فأقضيها لك ؟ »

قالت العجوز « لى ابن فى السجن سيعدم غداً لاتهامه بقتل شخص ، ولكن أنى لك أن تساعدنى فى هذا السبيل » .

قال أزهر : « أطمئنى فسوف أخلص أبنك غداً من السجن والموت » .

وفى اليوم التالى ، بينما كان عمرو بن الليث الصفار يجلس فى ديوان الإمارة للتقاضى والحكم ، ذهب إليه أزهر ورجاه العفو عن ابن المرأة العجوز .

قال عمرو : « هذا غير ممكن إلا إذا تنازل أهل القتيل عن حقهم فى دمه » .

قال أزهر : « لقد أكلت خبز وخضار أمه العجوز ، وبحق الخبز والملح والكلمة التى أعطيتها لها ، فلا مفر من أن أخلص ابنها من الموت » . ثم استدعى أهل القتيل واشترى منهم دم ذلك الرجل باثنى عشر ألف درهم . وإزاء رجولة أزهر وشهامته أمر عمرو بن الليث أن تدفع الاثنا عشر ألف درهم من خزانة الإمارة، ثم أطلق سراح ابن العجوز وخلع عليه وسلمه لأزهر . وقد عرف هذا الشاب فيما بعد باسم «مولى أزهر» وأصبح حاجبه، وأخلص فى خدمته ، وارتفع شأنه حتى أنه استضاف يوما عمرو بن الليث وجميع جيشه على وجبة من

ذلك الخضار الصحراوى [١] الذى كان سببا فى نجاته . وبناء على أمر أزهر منح أحدى وظائف سيستان الهامة ، وهى رياسة هيئة المياه فى أحد أحياء المدينة أى « أمير الماء » فى منطقة طعام وبقى فيها طويلا [١] .

وكذلك ينسبون إلى الليث ، والد يعقوب ، أنه فى إحدى الليالى نقب نقبا وصل منه إلى خزانة درهم بن نصر وجمع ذهبا وجواهر كثيرة ، وعندما هم بالخروج عثرت قدمه فى شىء ظنه بعض الجواهر فتناوله ، وأراد أن يتحقق منه بفمه ، فوجد أنه ملح نيسابورى وعندئذ تغلب تقليد رعاية حق الملح على أخذ الأموال ، فترك ما جمعه وعاد إلى منزله . وفى اليوم التالى شعر الخازن أن يدا امتدت إلى الخزانة وإن كان أى شىء لم ينقص منها ، فبعثوا مناديا فى المدينة ينادى بأن من فعل كذا فهو آمن وعليه أن يقابل الحاكم . فذهب الليث إلى هناك وذكر ما حدث . فسأله درهم عن سبب عدم أخذه للأموال ، فقال : « رعاية لحق الملح لم أحمل ما كنت قد جمعته »[٢] . وهذه القصة ـ صحت أم لم تصح ـ تدل على تقاليد العيارين واعتقاداتهم .

ولم يكن العيارون أناسا خطرين ، أو قطاع طريق ، كما جاء فى بعض كتب التاريخ ولكنهم كانوا يكونون منظمات دقيقة سرية تضم الشباب النيور الجرىء الوفى ، أو تجمعهم حولها لتحول دون وقوع الكثير من الظلم والاستبداد . وفى العهود التالية كان يطلق على المكان الذى يبيت فيه العيارون أو ينظمون فيه برامجهم الـ « يتيم خانه »[٢] ، ويحتمل كثيراً أن هذا الاسم اختير لأن الشباب بعد انخراطهم فى سلك العيارين كان عليهم أن يخدموا أنفسهم ، ولا يصبح لأى شخص كالأم أو الأب أو غيرهما أى تدخل فى معيشتهم ، كأنما ولدوا من جديد أيتاما .

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ٢٧١ .

(١) حبيب السير ، ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٢) ورزش باستانى در إيران ، ص ٩ .

لا يجوز لك الراحة والآخرون فى تعب :

الأصل الثانى من مبادئهم هو « ليس من المروءة ترك قوم فى بلاء و ننجو بأنفسنا »[١] فمن أصول تربيتهم أنه عندما يجدون فى أنفسهم الإرادة والقوة الخلاقة فى أكمل معانيها ، يعتبرون ارتكاب الأخطاء وإلقاء مسئوليتها على عاتق الغير عملا منافيا للفتوة والشجاعة. والكتب الأخلاقية التى تحدثت عن العيارين مملوءة بالأمثلة التى قدمها هؤلاء الفتيان . فمن ذلك ما يروى من أنه كان فى حلب « خانقاه » بها كثير من الأموال وبها بئر عميقة ، وبجوار هذه الخانقاه حمام من الحمامات العامة ، فقام أحد عيارى حلب بعمل نقب فى بيت نار الحمام يقود إلى البئر بحيث يخرج من فوق مستوى سطح الماء وفى إحدى الليالى ، عندما أغلق باب الخانقاه ووضع عليه قفل كبير ، جاء هذا العيار ومعه بعض أصحابه إلى هذا النقب ، وصعد من البئر إلى داخل الخان ، ومنه إلى الحجرة التى كانت بها الأموال الكثيرة من نقود ومتاع فحملها ، وعاد عن طريق البئر .

وفى صباح اليوم التالى ، قامت ضجة فى الخان ، وهاجت المدينة للأموال الكثيرة التى سرقت منه ، وتوجه الناس إلى ذلك الخان ، واجتمع العسس وكبار القوم ، فلاحظوا أن باب الخان سليم ، وأن ما سرق فقد من الداخل ، فتملكتهم الحيرة ، وأخيراً استقر رأيهم على أن هذا الحادث من عمل حارس الخان وأبنائه . وكان هذا الحارس شيخا أمينا يستأجر الخان فأخذوه وأبناءه ، ووضعوهم على باب الخان ، وأخذوا فى تعذيبهم ، واجتمع أهل المدينة عليهم يشاهدون تعذيب هذا الشيخ وأبنائه ولا أحد يستطيع إنقاذهم .

وكان ذلك العيار الذى ارتكب السرقة حاضراً وسط الناس مع بعض أعوانه ، فقال لنفسه « ليس من المروءة ولا الشهامة أن أرتكب هذا الحادث ويتحمل آخرون العذاب » ، وتقدم نحو العسس وصاح فيهم قائلا : « كفوا أيديكم عن هذا البرىء وأبنائه فليس لهم دخل فى الحادث الذى ارتكبته أنا » .

---

(١) سمك العيار .

توقف العسس عن تعذيب الشيخ وأبنائه ، ونظروا إلى العيار ، فإذا هو شاب طويل على رأسه قلنسوة من فرو حمل سوداء ، وعليه عباءة من الصوف ، وقد تمنطق بحزام قيم ، يطل منه خنجر حاد براق ، وفى قدميه نعل جديد ، فقالوا له : « أما وقد اعترفت ، فقل لنا ماذا صنعت بتلك الأموال ؟ » فقال العيار : « إنها فى هذه الخانقاه ، وقد أخفيتها فى قعر البئر ، فأحضروا حبلا أنزل به إلى قاعه لأحضر ما لكم ، وأنا على استعداد لقبول أى حكم يصدره الوالى على بعد أن أصعد » . فلما انتهى من كلامه ، سرت فى الجميع همهمة عظيمة ، واستحسن الناس منه هذه الفتوة والشهامة ، وأحضر العسس فى الحال حبلا ، وأسرع إليه العيار ، وربط طرفه فى وسطه وأخذ العسس الطرف الآخر فى أيديهم وأنزلوا العيار فى البئر ، وفى قاعها فك الشاب الحبل من وسطه وخرج من النقب إلى الحمام ، ومن هناك خرج واختفى .

وبقى العسس على قمة البئر ينتظرون . فلم يروا أثراً أو يسمعوا صوتا من قاع البئر فلما طال انتظارهم ، نزل شخص إلى البئر ومن قاعها صاح مناديا . « إن فى جانب البئر نقبا » . فقالوا له : « تتبعه ، وانظر إلى أين ينتهى ؟ » فسار حتى خرج من بيت نار الحمام ، وعاد إليهم . فتملك العجب جميع الحاضرين ، وقالوا : « ما أعجب هذا العيار ، والخطة التى وضعها فأنقذ نفسه ، واستولى على الأموال ، كما خلص هؤلاء المظلومين[1] » .

نصادق من يصادقنا ، ونعادى من يعادينا :

من الأصول الأخرى فى مبادىء العيارين « من يفدوننا بأرواحهم ، فإننا نبقى بجانبهم ما بقى فينا رمق ، والصديق هو من يتألم لآلامنا ويساعدنا فى أعمالنا ، ويوصلنا إلى مرادنا»[2] . كما أن العيارين يقدرون الفتوة والأمانة كل تقدير ، وإذا احتاج أحد

---

(١) الطائف الطوائف .

(٢) سمك العيار جـ ١ ص ١١٣ .

إليهم فإنهم يتحاملون على أنفسهم ليساعدوه ، وإذا خان أحد العهد فإنهم لا يتركونه[1] ، ويقولون : « الفتى من لا يغدر ، ويكون صديقا للصديق وعدوا للعدو[2] .

الصبر على الشدائد :

ومن أصولهم الأخرى « أكثر الناس فتـــوة ورجولة الشجاع الصابر على كل عمل »[3] وكان العيارون يستخدمون شجاعتهم وخفتهم في كل عمل ، ويواجهون الشدائد بالصبر ، وبه يبحثون عن حلول للمشاكل ، ولم يضطربوا فى أية حال من الأحوال . ويروون عن أحد عيارى دمشق ـــ وكان قد وصل إلى درجة الإمارة ـــ حكاية تدل على مدى ذكائه ، وفى نفس الوقت مدى صبره وسعة حيلته ، وهى أن هذا العيار وكان يدعى « قسام » ارتفع شأنه فى دمشق حتى وصل إلى حـكم هذه المدينة ، وخرج على حاكم مصر الذى كانت تتبعه دمشق آنذاك[3] . فلما بلغ صاحب مصر نبأ عصيان قسام أرسل إليه جيشا بقيادة قائد إسمه الفضل ، وفى إحدى الليالى خرج قسام من دمشق متنـكراً ليتعرف على أحوال جيشه ، فابتعد قليلا عن معسكر جنده ، وفجأة وقع فى أيدى طلائع الأعداء التى حملته إلى الفضل . ولجأ قسام إلى أسلوب العيارين فتنـكر ، وقال : « إننى رسول قسام وسفيره إلى بلاطـكم ، وقد أرسلنى إليكم ليقترح أخذ الأمان منـكم ، بشرط السماح له بالخروج من دمشق دون أى ضرر أو أذى ليعيش فى مدينة أخرى فى هدوء وأمان ، وقد أرسلنى خاصة إليـكم سراً حتى لا يطلع أحد من أعوانه على قصده أو سره .

وبعد أن سأل الفضل عن بعض الشواهد فى معسكر قسام ، واتضح له صحتها جميعاً

---

(١) سمك العيار ، جـ١ ص ١٧٠ .

(٢) سمك العيار ، جـ١ ص ٢١٦ .

(٣) قابوس نامه ، ص١٨١ .

(٤) النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ص ١١٥ .

وأن قساماً كان يرد عن علم ، اطمأن إليه وإلى ما ذكره ، وأقسم على إعطاء الأمان لعدوه . فلما وثق قسام من أمان الفضل قام إليه وقبل يده وقال : « أنا قسام نفسه وأنت الآن حرّ فى الوفاء بعهدك أو القيام بعمل آخر » فتعجب الفضل ولم يجد بدا من الوفاء بالقسم الذى أقسمه . والعهد الذى أعطاه ، وأعاد قساماً إلى مدينة دمشق ، بل وأ كثر من هذا منحه ولايتها من جديد .

الفرق بين الفتوة والجبن :

كان العيارون إذا التجأ إليهم أحد لا يسلمونه إلى عدوه أبدا ، كما أن حفظ السر من مبادئهم الهامة . ولا شك أن الصدق هو أحد أصول الفتوة ، ولكن حماية لاجئ ما كانت أكثر أهمية عندهم ، إذ كانوا يعتقدون أن كل شخص « يسمع الصدق إذا قال الصدق » وحتى لا يتعارض هذا المبدأ مع المبدأ الآخر ، وهو حماية الضعفاء فإنهم ، فى بعض الأحيان ، كانوا يسلكون سلوكا جديرا بالإعجاب لا بأس من ذكره .

يقولون إن بعض العيارين كانوا يجلسون يوما على جبل ، فجاء رجل وسلم ثم قال : « أنا رسول عيارى المدينة إليكم ، وهم يهدونكم السلام ، ويقولون اسمعوا منى ثلاث مسائل ، إذا أجبتم عليها فإننا نرضى بتبعيتكم ، وإذا لم تجيبوا عليها فعليكم أن تقبلوا رئاستنا » .

فقالوا : « قل » .

قال : « ما الفتوة ؟ ، وما الفرق بين الفتوة والجبن ؟ وإذا كان أحد الفتيان جالسا على طريق ومر عليه رجل ، وبعد ساعة جاء فى إثره رجل يحمل سيفا لقتل هذا الرجل ، فإذا جاء إلى الفتى وسأله « هل رأيت فلانامر من هنا ؟ » فبماذا يجيب هذا الفتى ؟ فإنه إن أجاب « قد مر » فإنه يكون قد أوقع به ووشى عليه . وإن قال « لم يمر » فإنه يكون قد كذب ، وكلا الجوابين لا يجوز ، وهما بالنسبة للفتوة جبن » .

فلما سمع عيارو الجبل هذه المسألة ، نظر كل منهم إلى الآخر ، ولكن رجلا من بينهم يقال له « أبو الفضل الهمدانى » قال « أنا أجيب على هذه الأسئلة » .

قالوا : « قل لنا بماذا ترد ؟ » .

قال . « أصل الفتوة أن تفعل ما تقول ، وجواب ذلك العيار الجالس على الطريق هو أن يخطو خطوة بعيدة عن الطريق ويجلس ثم يقول « منذ جلست هنا لم يمر أحد » ويكون قد أجاب بالصدق[١] .

وكانوا يقولون فى هذا السبيل أيضاً « لا تكن جبانا خوفا من مائة جلدة أو ألف جلدة ،ولا تسلم لاجئاً ، واحفظ السر حتى لو قتلوك بضرب العصى، فالموت بضرب العصى أفضل من الخيانة[٢] ».

العيارة أساس التصوف .

كان اعتقاد الناس آنذاك أن الأساس المادى والقاعدة التى قام عليها التصوف قد أقيمت على أصول العيارة . والحقيقة أن العيارة كانت الصورة المادية والحسية للصفاء والعرفان ، وكانوا يقولون إن الفتوة هى جسم الإنسانية وبدنها[٣] ، وإذا وجد هذا الجسم والبدن روحاً فإنه يصبح تصوفا . ولكن تلك الجماعة التى لها من صور الآدمية جسم وروح كانت تتكون من أرباب المعرفة والدين وفقراء المتصوفة . والفتوة لدى هؤلاء أقوى منها لدى أية جماعات أخرى لأن فتوة الجسم هى الصورة والحقيقة هى الروح ، ويستحق لقب فتى من اجتمعت فيه كل فضائل الأنبياء والأولياء وخصائصهم . ومع هذا فإنه يعد نفسه صغيراً حقيراً ، ولا يعتقد فى نفسه مطلقا أنه وصل إلى درجة أو مكانة ما[٤] .

---

(١) قابوسنامه ، ص ١٨٢ .

(٢) سمك العيار ، ص ٩٢ .

(٣) قابوسنامه ، ص ١٨٢ .

(٤) مجلة كلية الآداب السنة الرابعة ،العدد٢ .

والواقع أن الفتيان فى القديم كان لديهم نوع من التصوف الأخلاق ، ولـكن أهل الفتوة والعيارين أصبحوا فيما بعد مكروهين عند الصوفية ، وابتعد الفريقان عن بعضهما البعض رويداً رويداً بسبب ظهور طبقات من المفسدين والمنشقين بين العيارين والذين كانوا ثمرة للخانقاهات ومجامع الفتيان أنفسهم . ولـكن يجب ألا ننسى أنه فى القرون الأولى للإسلام كان الوصول إلى درجة الفتوة ، ومعرفة ماهيتها غاية ما تصبوا إليه طبقات الشباب وأكثر الحرفيين والعمال والجنود[1] .

اسم كل شخص يدل عليه .

كان العيارون ذوى مهارة خاصة فى العمل ليلا ، وتهديد الأثرياء وأهل الترف والبذخ ، وكان مورد رزقهم الرئيسى ينبع من هذه الناحية ، وكانوا يطلقون على أنفسهم أسماء حركية خاصة تخفى أسماءهم الحقيقية ، وتدل على نزعتهم الحادة وروحهم التحررية . وأحيانا كانت تدل على حالتهم الجسمانية والأخلاقية مثل . « شغال بيل زور ــ سمك عيار شهمرد عيار ــ شيرزاد عيار ــ شه مير عيار ــ شروين عيار ــ زيرك عيار ــ سبندان عيار ــ آهو گير عيار ــ تيز دندان عيار ، وأمثالها[2] » . ويحتمل أن « أزهر خر » أى أزهر الحمار الذى أطلق على أزهر بن يحيى أحد أقارب يعقوب ، كان من قبيل هذه الأسماء ، ويجوز أيضاً أن يكون الاسم الذى أطلقه حسين بن زيد العلوى على يعقوب وهو « السندان »[3]

---

(١) ميراث صوفيه ص ٧٢ .

(٢) شغال بيل زور : الثعلب القوى كالفيل . شهمرد عيار : ملك الرجال العيار .
شيرزاد عيار : الشبل العيار . شه مير عيار : ملك الأمراء العيار .
شروين عيار : القلعة العيار . شاهوى عيار : الملك العيار .
زيرك عيار : الذكى العيار . سبندان عيار : الخردل العيار .
آهو گير عيار : صائد الغزال العيار . تيز دندان عيار : حاد الأسنان .

(٣) وفيات الاعيان ، جـ ٥ ص ٤٦٤ .

وذلك لثباته وتمسكه وإصراره كان اسما أطلقه العيارون على يعقوب فى صباه ، وكان حسين بن زيد يطلقه على يعقوب أيام حكمه من باب الاستهزاء والاحتقار . ومن أمثلة هذه الأسماء أيضاً اسم حامد سرناوك صديق يعقوب الوفى ، الذي ربما أطلق عليه لأن رأسه يشبه رأس الخنجر الحاد ، ولهذا اشتهر بهذا الاسم . وكذلك الزبد الأسود العيار الدمشقى الذى أطلق عليه الغلمان اسم الزبد لسواده البراق اللامع من باب الكناية والطعن فيه . ومنها أيضا « أبو العريان » رئيس عيارى سيستان ، وكان ذلك لفقره وعريه .

سلاح الخارجين بالليل .

كان سلاح العيارين يتكون من سكين (للدفاع عن النفس وعمل الأنقاب) ومبرد (لقطع الأقفال والقيود والأغلال والسلاسل أثناء الأسر) ومقراض وماسك وكل مايستعمله لصوص الليل[1] . وكان المقلاع سلاحاً آخر يستعمل فى أغلب الأوقات ، وكانوا أحيانا يقذفون به كرات من حديد إذا أصابت أحدا قتلته ، وكان الوهق[2] أهم أسلحتهم التى يستعملونها فى سرقاتهم بالليل، وكان أزهر من أمهر مستخدمى الأوهاق فى جماعة يعقوب ابن الليث إذ كان يستخدمه فى القفز من سطح إلى سطح آخر ، أو من حارة إلى أخرى ، وتسلق الحوائط الملساء المرتفعة ، والإمساك بالأعداء والمخالفين أو تهدئة الدواب الجامحة وتذليلها .

قوى فى الصداقة ، شديد فى العداوة .

كان العيارون يتمسكون بالصداقة تمسكا شديدا ، بينما كانوا فى العداوة يبلغون غاية الشدة والقسوة . وهذه الصفات البارزة بعثت فيهم قوة عجيبة مخيفة فكان الجميع يحسبون

---

(١) سمك عيار ص ١٧٤ .

(٢) وهق — ج أوهاق — حبل شبيه بما يستعمله رعاة البقر فى أمريكا حاليا .

خسابهم . وكانوا يردون على أنفه الأخطاء بأشد العقاب ، يقومون بحركات تثير الإعجاب وتبعث على الخوف لكى يبعثوا الرعب فى قلوب الآخرين ويخيفوهم .

يقول صاحب قابوس نامه . « سمعت أنه كان فى خراسان عيار معروف بالطيبة والشرف اسمه « مهذب » وكان يسير يوما فى الطريق فوقعت إحدى قدميه على قشرة شمام فانزلقت وسقط مهذب فاستل سكينا وطعن بها قشرة الشمام ، فقال له خدمه : « أيها الرئيس أنت رجل شريف وعيار ، ألا تخجل من طعنك قشرة شمام بسكين ؟ فقال مهذب « لقد أوقعتنى قشرة الشمام ، فأصبحت عدوى والعدو لا يجب احتقاره حتى ولو كان حقيراً ، لأن من يحتقر العدو سرعان ما يصبح هو نفسه حقيراً[1] » .

ونضيف هنا أنه لما كان العيارون يشتغلون غالبا بالحراسة فى الطريق وإرشاد القوافل ، كما كانوا يمتلكون بعض القوافل أيضاً ، فإن أغلب الكتب كانت تربط بين لفظ « عيار » وبين « ره زنى » (قطع الطريق) أو « خوبندكى » (المكارية) ونحن نعرف أن عمرو بن الليث وأحمد بن عبد الله الخجستانى وسابق بن على بن سهل كوتوال كانوا ثلاثتهم يحملون لقب « خربنده »[2] . وعلى كل حال فإن هذا اللقب ورد بعد ذلك فى العبارات العربية باسم « صعلوك » أو « سالوك » . مثل « لقد قطعوا الطريق وقالوا علينا أن نأخذ نصيبا قبل عطايا المسلمين ، وكل ما كانوا يستولون عليه أثناء قطع الطريق كانوا يقولون لأصحابه : أخبروا السلطان أن الصعاليك قد أخذوا هذا القدر من المال »[3] .

ولقد كانوا فى الحقيقة فقراء اجتمعوا حول بعضهم البعض، وكانوا يقومون أحيانا بقطع الطريق ، أو القيام بالعصيان تحت عنوان « أخذ حقهم من بيت المال » .

(١) قابوسنامه ، ص١٢٣ .
(٢) سلجوقيان وغز در كرمان، ص٩١ .
(٣) تاريخ سيستان، حاشية ص ٢٢٤ .

هذه كانت خلاصة لأهداف العيارين ومبادئهم ، تلك الجماعة القوية المنظمة التى ظهرت فى أغلب أنحاء إيران وخاصة فى سيستان ، حتى أصبحت كلمات سيستانى وسجزى وعيار مترادفة فى كل مكان . ولكى ندرك سبب ظهور هذه الجماعة ووصولها إلى مراكز القوة فى سيستان ، ينبغى أن نستعرض باختصار تاريخ حملة العرب على سيستان وانتشار الدين الإسلامى ، وسلوك الحكام وعمال الخليفة فى هذه البلاد ورد الفعل الذى بدا فى صورة قيام الخوارج ، وبعد هذا فى قيام العيارين تحت رئاسة يعقوب ابن الليث .

الفصل السادس

أول اتصال سيستان بالإسلام

قلنا إن سيستان مثل سائر مدن إيران كانت مهيأة لقبول تنظيمات العيارين ، فلم ينجح العيارون فى أى مدينة إلا فى هذه المدينة التى أمكن لهم فيها الوصول إلى مراكز القوة السياسية والاستيلاء على الحكومة . وكان لهذا أسباب منها :

أن شعارات العيارين وأهدافهم كانت تظهر وتنتشر فى المدن والولايات التى يشيع فيها الظلم والجور والفقر والعوز والفرقة والانقسام بين أهلها ، والاختلاف الشديد بين الطبقات . وكما سبق أن قلنا كان العيارون يستفيدون فى الوصول إلى أهدافهم من الهرج والمرج واضطراب الجهاز الحكومى وضعفه . ومنها أيضا أنهم كانوا يساعدون — قدر طاقتهم — المظلومين والمحتاجين ويعاقبون المعتدين والظالمين ويؤدبونهم كلما سمحت لهم الظروف .

وهذا المسلك بطبيعة الحال يجتذب جماعات الشباب وذوى الإيمان العميق من الرجال الذين كانوا فى مقدمة الباحثين عن طريق للخلاص من الظلم والاضطهاد وكانت سيستان — كما سبق القول أيضا — مستعدة لإنجاح هذه الأفكار ومهيأة لها ، لأسباب طبيعية وسياسية واقتصادية واجتماعية .

ويجب أن نذكر هنا أن الدين الإسلامى لم يرسخ فى سيستان آنذاك ، كما رسخ فى أغلب المدن الإيرانية ، فالإسلام فى سيستان قبل أن يظهر على حقيقته ، ويجلو مظهره ويعين الضعفاء والمساكين ، وينشر مبادىء الرسالة المحمدية ، واجه فقراء سيستان

وضعافها — الذين كانوا يعملون فى صيد السمك من نهرى « هيرمند » و « لى » أو فى نسج الخوص وعمل القفاف - بنوع من الشدة والخشونة .

ففى ذلك الوقت الذى نتحدث عنه - وهو زمان قيام يعقوب - لم يكن قد مضى على استيلاء المسلمين على سيستان قرنان أو أكثر قليلا من قرنين ، وكان كثير من أهلها قد سمعوا من أجدادهم وعجائزهم ذكريات مؤلمة عن فتح العرب لسيستان .

فعندما هرب يزدجرد الثالث من كرمان إلى سيستان فى طريقه إلى مرو تعقبته جيوش المسلمين إلى سيستان ، لكن السيستانيين هزموا قائد المسلمين وعاد من حيث أتى[1] .

بعد هذا ، أرسل عثمان بن عفان ، الخليفة الثالث ، ربيع بن زياد لفتح سيستان وكان هذا فى عام ٣٠ هـ (٦٥٠ م) ، فلما عبر نهر هيرمند لم يستطع جيش سيستان مواجهته ، وبعد المذابح التى حدثت اضطر إيران بن رستم حاكم سيستان آنذاك أن يعقد معه صلحا .

ويقص كهول سيستان ومسنوها حوادث لقاء القائد إيران بن رستم مع ربيع ابن زياد ، والتى سمعوها من أجدادهم فيقولون : « عندما أراد ربيع بن زياد الاجتماع بإيران ، أمر أن يجعلوا له عرشا من جثث القتلى ، ثم وضعوا فوقها فرشا ، كما جعلوا من جثثهم متكأً له أيضا ، ثم صعد الربيع فوقها وجلس ، وجاء إيران بن رستم ومعه كبار الموابذة والعظماء ، فلما وصلوا إلى مقر ربيع واقتربوا من صدر المجلس رأوا هذا الوضع فتوقفوا ، وكان ربيع طويلا قمحى اللون ذا أسنان كبيرة وشفتين قويتين ، فلما نظر إليه إيران ورآه على هذه الصورة ، قال لأصحابه « يقولون إن الشيطان لن يظهر حتى يوم القيامة ، ولكن هذا هو الشيطان قد جاء لا شك » فسأل ربيع عما قال ، فقال المترجمون ما ذكره ، فضحك ربيع كثيراً ، ثم حياه إيران من على بعد ، وقال : « إننا لن نقترب من مجلسك لأنه مجلس غير طاهر » ، ثم افترشوا حيث كانوا وجلسوا[2] .

(١) اسمه مجاشع بن مسعود السلمى .

(٢) تاريخ سيستان ص ٨٢ ويلاحظ هذا التصوير البعيد عن الحقيقة والانسانية والذي يتنافى مع أبسط تعاليم الإسلام وهي احترام الموتى وعدم التمثيل بجثثهم المترجم .

وقد اتفق فى هذا الاجتماع على أن يدفع إيران بن رستم إلى أمير المؤمنين كل عام جزية من سيستان مقدارها مليون درهم[١] . وكان هذا هو أول لقاء لأهل سيستان بدين الإسلام السهل السمح . وكان واضحا أن أهل سيستان هؤلاء لم يكن فى استطاعتهم تنفيذ هذا الاتفاق ودفع هذا المبلغ الضخم ، ولم تكن هزيمتهم سياسيا تدل على أنهم سلموا دون قيد أو شرط .

قتل القنفذ ممنوع :

لم تكد تمضى بضعة أيام على عقد هذا الصلح حتى أعلن أهل بست العصيان وقالوا « إننا لن نستسلم »، وهبوا للقتال ، فقتل منهم عدد كبير وحمل منهم جمع كثير كأسرى أرسلوا كعبيد إلى ديوان خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان . فلما قتل عثمان بن عفان أرسل على بن أبى طالب رضى الله عنه فى عام ٣٣ هـ شخصا يدعى عبد الرحمن بن سمرة لولاية سيستان ، وكان أهل سيستان — ذوو الطبع الفكه — يتحدثون عن اصلاحاته بنوع من الكناية فيقولون إن من أعماله الهامة أنه أمر بعدم قتل أبناء عرس والقنافذ حتى تقضى على الأفاعى وتأكلها ، لأن سيستان بها كثير من الأفاعى ، وهذه الحيوانات تخلص الناس من شرها[٢] . ومما تجدر الإشارة إليه أن كثرة المياه والرمال فى سيستان تجعل منها مكانا مناسبا لتكاثر مثل هذا النوع من الحيوانات ، ولهذا فليس عجيبا أن يضطر حاكم لإصدار مثل هذا الأمر . فالتاريخ يتحدث عن كثرة الأفاعى والثعابين فى سيستان التى كانت معروفة بذلك. ولهذا كانوا يحتفظون فى كل بيت من بيوتها بقنفذ[٣] . كما أن فى بعض كتب التاريخ إشارة إلى أن فقرة « منع قتل القنفذ » كانت توضع فى المعاهدات التى يوقعها أهل سيستان مع العرب . وتذكر هذه الكتب أن أهل سيستان اشترطوا على العرب ألا يجمعوا ابن عرس والقنفذ ليأكلوه ، وهذا أقرب للواقع لأن العرب شاربى

---

(١) تاريخ سيستان، ص ٨٢ .

(٢) تاريخ سيستان ، ص ٨٥ .

(٣) معجم البلدان ، « سجستان » .

لبن الجمال وآكلى الضب[1] عندما وصلوا إلى تلك الديار كان من المحتمل ألا يتركوا لحم القنافذ اللذيذ ، ولهذا اضطر أهل سيستان لوضع هذا النص فى معاهداتهم معهم .
أما فيما يتعلق بهذا الموضوع وكيفية صيد القنافذ للأفاعى والثعابين فيذكرون أنه لما تصالح جيش العرب مع أهل سيستان على تسلم حكم البلاد اشترط السيستانيون على العرب ألا يصطادوا القنافذ التى كانت وفيرة فى سيستان ليأكلوها لأنه إذا لم تكن هناك قنافذ فإن أهل سيستان لم يكن فى استطاعتهم العيش فى أمان من شر الأفاعى ، لأن القنفذ حيوان بينه وبين الأفاعى عداوة طبيعية ، ويقول صاحب نزهة القلوب « إن الأفاعى تهلك من سماع صوتها ، وأكثر عداوة القنفذ للثعابين والأفاعى فإذا ما رأتها خافت وهربت ، وإذا استطاع القنفذ الوصول إلى رأس الأفعى فإنه يأكلها بسهولة ، وإذا أخذها من ذيلها فإنه يتكور ويدخل رأسها بين أشواكه وتظل الأفعى تضرب نفسها على الأشواك حتى تجرح وتضعف ، وآنذاك يبدأ القنفذ فى أكل الأفعى من ذيلها حتى رأسها »[2] .

النيران تنطفىء :

بعد مقتل الإمام على سلم معاوية حكومة سيستان وخراسان إلى عبد الله بن عامر فى سنة ٤١ هـ ، وأرسل ابن عامر فى عام ٤٦ هـ الربيع الحارثى إلى سيستان نيابة عنه ، فلما وصل الربيع إلى سيستان أجبر الناس على تعلم علوم القرآن والتفسير . . . وأسلم كثير

---

(١) هذه من المآخذ التى يأخذها الايرانيون على العرب وان كانت لا تنقص من قدرهم ، فما زال أهل امارات الخليج رغم ثرائهم ، يقبلون على أكل الجراد ، وهو نفس مايفعله سكان كثير من المناطق فى جنوب ايران ، خاصة فى مكران وسيستان حيث توجد مواطن تكاثر الجراد فى الشرق الاوسط ، ولكل شعب مزاج فى مأكله ومشربه قد لا يستسيغه غيره ، وإن كان لاينتقص من قدره (المترجم) .

(٢) زينة المجالس ، تحت عنوان « خاصية البهائم وطبيعتها » .

من الزردشتين[١] . وقد سمع المعمرون من أجدادهم كذلك أن عبيد الله بن أبى بكر ذهب إلى خراسان عام ٥١ هـ وهم بقتل كل رجال الدين الزردشتى وهدم كل بيوت نارهم ولكنه عندما حاول تنفيذ هذه الرغبة ، أعلن رجال الدين الزردشتيون العصيان وقالوا : « نحن على أية حال مثل المسيحيين واليهود الذين لهم محافل وكنائس ، لنا بيوت نار » وقد لان معهم عبيد الله[٢] .

وكان بيت نار كركويه من أهم بيوت النار فى سيستان ، وكانوا يعتقدون أنه من أيام رستم[٣] ، وكان بيت النار هذا مشهورا ، ولم تخمد ناره قط ، وأرجع البعض تاريخه إلى كرشاسب ، وكانت التراتيل التى يقرؤها فيه الزردشتيون شديدة التأثير بالغة الجمال[٤]

وجاء بعد هذا الحاكم وال آخر هو عباد بن زياد ابن أخت معاوية ، فلما توفى معاوية وحدثت واقعة كربلاء فى عهد ابنه يزيد ، قال أهل سيستان إن يزيدا سلك طريقا غير كريم ، لأنه ارتكب أشياء فى حق أبناء الرسول . وثار بعض الناس ، وكانت هذه الثورة قوية إلى الحد الذى وجد معه عباد ألا يقيم فى سيستان ، فحمل مليونين من الدراهم كانت فى بيت المال ، وذهب إلى البصرة .

بعد هذا بقليل ، أى فى عام ٦٢ هـ (٦٨١ م) عين أبو عبيدة الابن الثانى ليزيد واليا على سيستان ، ثم اضطربت فيها الأحوال بعد ذلك ، حتى إن حكومتها تولاها عدة ولاة فى خلال عشر سنوات ، إلى أن كان عام ٧٣ هـ حين عين عبد الله بن أمية حاكما على سيستان ، ففكر فى فتح كابل ، وتوجه إلى ملكها رتبيل وهزمه فأرسل ملك كابل حملا من الذهب كهدية وتعهد ألا يحارب المسلمين بعد ذلك[٥] .

---

(١) آثار البلاد ، ص ٢٤٦ .
(٢) تاريخ سيستان ، ص ١٠٨
(٣) تارخ سيستان ، ص ٩١ .
(٤) تارخ سيستان ، ص ٩٣ .
(٥) تارخ سيستان ، ص ٣٧ .

بعد هذا حدثت اضطرابات الخوارج التى استمرت عدة سنوات ، والتى انتهت بمجىء حمزة الخارجى ، ثم هزيمته التى سبق أن أشرنا إليها .

وقراءة تاريخ قرنين من استيلاء العرب على سيستان ، يبين لنا أن الأحوال فى تلك الديار لم تستقر عاما من الأعوام،فسيستان من الناحية السياسية كانت تتبع حاكم خراسان ، وهؤلاء الحكام كانوا ينفذون ما يؤمرون به من دار الخلافة مهما كان . ومن هذا نرى أن استيلاء العرب والخراسانيين على سيستان لم يكن له أى أثر سوى زيادة عدم الرضا لدى أهل تلك النواحى وإرهاقهم وإفقارهم ، كما أن غضب الطبيعة وسنوات الجفاف التى حدثت فى أوائل القرن الثالث الهجرى فى سيستان هيأت الظروف لظهور العيارين وتشكيل جماعات المعارضين والمناوئين للحكومة[1] .

* * *

---

(١) يبرز المؤلف هنا بعض الأخطاء التى وقعت من بعض قادة العرب أو ولاتهم ورغم كل هذا فإن فضل هؤلاء العرب خالد فى سيستان والمشرق كله مابقيت كلمة الله أكبر تتردد بين أوديته وعلى مآذن مدنه وقراه لايستطيع أحد أن ينكره أو يتبرأ منه لقاء هفوات أو سوء تصرف بسيط . ويمكن مقارنة هذا الكلام بحديث المؤلف الذى يرد فى الفصول القادمة — عن مفاسد الطاهريين وهم أول أسرة من أصل فارسى تستقل بالإمارة فى إيران — المترجم

الفصل السابع

إن شروط تعمير سيستان تقوم على
ثلاثة أمور: سدود للمياه وحواجز
للرمال وسد السبيل أمام المفسدين
« مثل سيستانى »

سيستان هبة هيرمند:

يعد عام ٢٢٠ هـ من أعوام الضيق والفاقة فى سيستان ، ولا يذكر معمرو القوم هناك أنهم رأوا قحطا وجفافا مثل الذى رأوه فى ذلك العام ، فقد جف ماء هيرمند ولم تصل قطرة ماء إلى سيستان ، ولم تنبت البذور فى الأراضى بل احترقت ، وما كان لدى الناس من مخزون الحبوب زرعوه فلم ينبت منه شىء ... ويقولون إن سيستان هبة هيرمند، كما أن مصر هبة النيل . وإذا لم يكن هذا النهر الهام — إلى حد ما — ينبع من الشرق ويقطع كل هذه الأرض متجها إلى الغرب لما كان لهذه الديار مصير أفضل من مصير صحراء لوت المجاورة لها من الغرب والشمال ، أى لأصبحت امتداداً لها ، ولكن السحب التى تمر من فوق جبال قندهار وهزاره جات وغزنه تسقط بعض أمطارها على تلك المرتفعات وتجرى هذه المياه فى وديان الجبال الخضراء اليانعة حتى تلتقى قرب قلعة هزار قدم (ألف قدم) وآغابكلى ، مكونة نهيرات تتجمع على مقربة من قندهار وتتجه ناحية الغرب ثم تتحد على مقربة من كرشك وبست مع نهر أرغنداب الذى ينبع من المرتفعات الشمالية فى موسى قلعه وشهيدان « وزيارت شاه مقصود » وتغير مسيرها ناحية الجنوب فتروى كل الأراضى المحيطة بهذا الوادى الأخضر الغنى ، ويمضى نهر هيرمند عند جانى مة وقلعة سبز صوب الغرب ويغير اتجاهه عند أمير آباد ناحية الشمال حتى إذا ما مال

إلى نواحى زابل وسيستان الحالية فى إيران كون بعض الدلتات ثم تختفى بعض مياهه فى جوف الأرض ويستغل بعضها ، وما تبقى يصب فى بحيرة زره[١] . والمقصود ببحيرة زره هو منخفض زره الواقع على مقربة من بحيرة هامون ويتصل بها عن طريق قناة تعرف باسم قناة « شيله » .

ويبلغ طول هذا النهر مائة وخمسة وثلاثين فرسخا[٢] ، أما عرضه فى أرض سيستان فيتراوح بين ٢٠٠ و ٥٠٠ متر حسب سنوات الجفاف أو الفيضان ، ويتراوح عمقه بين مترين وخمسة أمتار ، أما سرعته فى هذه الأرض المنبسطة فليست كبيرة . وفى ذلك الوقت كانت تتفرع من نهر هيرمند ألف ترعة لرى الأراضى وكانت كل المنطقة المحيطة بزرنج مزروعة بالنخيل .

واسم هيرمند فى الأفستا هو « هتتومنت » ، والمقطع الأول من الكلمة يعنى الجسر أو السد[٣] . وتبتدىء دلتا نهر هيرمند فى أرض سيستان الخصبة . ويصب نهر خاش الذى ينبع من ناحية داور ، عند « تشخانسور » قرب هذه الدلتا مكونا بعض المستنقعات .

وقد تكونت أرض سيستان من رواسب هذه الأنهار ، وهى لهذا شديدة الخصوبة ، وتشبه تربة وادى دجلة والفرات والنيل وسائر الأراضى الخصبة . ويجوز أن تكون هذه التربة قد شهدت واحتضنت حضارة من أقدم الحضارات .

وقد جاء ذكر أرض هلمند ـ هيرمند وسيستان ـ فى الفقرتين ١٣ و ١٤ من الفصل الأول من الأفستا على أنها الأقليم الحادى عشر الذى خلقه أهورا[٤] . ولا يزيد ارتفاع هذه المنطقة فوق مستوى البحر عن ٥٠٠ متر ، ولكنها تزداد ارتفاعاً كلما اتجهنا للشرق

---

(١) حدود العالم، ص ٤٣ .

(٢) نزهة القلوب، ص ٢٢٠

(٣) يشتها ، ترجمه جـ ٢ ص ٢٩٨ .

(٤) فرهنك ايران باستانى ، ص ١٨٦

والشمال حتى نصل إلى المناطق الجبلية ، ولهذا كان من الضروري للاستفادة من مياه هيرمند في الري ، إقامة سدود على النهر لكي ترتفع المياه إلى الأراضي ، ولهذا قال أهل سيستان إن شروط تعمير سيستان ثلاثة هي إقامة سدود للماء ، وحواجز للرمال ، وروادع للمفسدين[1] .

ولكن الذي حدث في الفترة التي نتداولها بالحديث هو أن اضطراب الأوضاع السياسية وعدم الاستقرار أدى إلى انهيار كثير من السدود وجفاف الترع . وكانت طريقة الاستفادة من هذا النهر تقوم على أساس عمل حواجز من الخشب والبوص على حافة النهر فتؤدي إلى سحب الماء إلى الترع وإيصالها للأراضي المزروعة ، ولكن إذا اختلت مقاييس النهر فجأة ارتفاعا أو انخفاضا ، فإنها كانت تؤدي إلى تحطيم أكثر هذه الحواجز التي يحتاج تجديدها إلى وقت طويل[2] ، أما إذا كانت سنوات الجفاف فإن كل الترع تجف ويحل القحط والغلاء بكل هذه النواحي المحيطة بوادي النهر .

الرمال أكفان المزارع :

لا توجد ناحية الغرب أو الجنوب أو الشمال الغربي مناطق عامرة تستطيع أن تعين سيستان في أيام قحطها ، لأن كل النواحي الغربية والجنوبية مكونة من صحاري ورمال لا يرى فيها على مدى البصر أي أثر للعمران أو الحياة ، وما تحصل عليه سيستان من هذه الصحاري هو سيل الرمال المتحركة التي تحملها الرياح إلى تلك البلاد .

وما يقوله الناس من وجوب إقامة سدود الماء وحواجز الرمال ، يعد في الواقع قولا سليما ، لأنه في أوائل الربيع ، وخاصة إذا كان العام متميزاً بالجفاف ، ولم تسقط فيه أمطار ، نجد أن الرمال المتحركة تمتطي أجنحة الرياح وتتجه إلى سيستان ، ولا يقتصر

---

(١) تاريخ سيستان، ص ٢١

(٢) جهان نامه ، ص ٣٧

ضررها على إفساد الجـــو بل إنها تسقط على الأرض الزراعية حيث حقول القمح والشعير التي تـكون في بداية إخضرارها متعطشة إلى قطرات من مطر الربيع فتدفن الحقول الخضراء تحت حبات الرمال الساخنة التي تحنق البراعم الغضة وتقضى عليها .

ويرى أهل سيستان أن أهم آفة تقضى على محاصيلهم بعد الجفاف هي الإصابة بالرمال فإذا استيقظوا فى الصباح بعد عاصفة رملية ، جرت على ألسنتهم جميعاً هذه العبارة « لقد أصيب المحصول أمس بالرمال » . وما يعنيه هذا الـكلام هو أن كل حقول سيستان قد دفنت تحت الرمال ولا سبيل لإنقاذها .

والطريقة الوحيدة لمقاومة هذا البلاء الإلهى هو إقامة حواجز أمام الحقول تمنع سير الرمال وتحركها ، ولا يمضى عامان أو ثلاثة حتى ترتفع الرمال وراء هذه الحواجز وتبدو تلالا من الرمال ، وآنذاك لا يمـكن للحواجز الرمال من مسيرتها ولا يجد الزراع مفرا من إقامة حواجز أخرى على بعد بضعة أذرع أمام الحواجز القديمة ، وكل هذه الحواجز التى تتابع على مر السنين ليست إلا علاجا مؤقتاً للمشكلة ، وليست علاجا ناجعا لها ، ولا زالت هذه الحواجز مستعملة هناك حتى اليوم .

ولا يقتصر ضرر هذه الرمال على تغطية المزروعات الجديدة فقط ؛ لأنه لو اقتصر الأمر عليها لظل هناك أمل فى عودة اخضرارها بعد توقف الرياح الحاملة للرمال ، وسقوط بعض الأمطار ، ولـكن خطر هذه الرمال يكمن فى أنها تـكون ساخنة فتحرق النباتات بما لا يرجى بعدها عودة اخضرارها . ذلك أن الرياح التى التى تهب من صحارى سيستان وخاصة من النواحى الغربية ومن ناحية تشخانسور تـكون فى الصيف جافة شديدة الحرارة لقرب تلك النواحي من سحراء لوت الواسعة المحرقة التى تزيد درجة حرارتها فى الصيف على ٤٠ درجة مئوية .

ولكى يتخلص أهل سيستان من هذا الهواء الصيفى الحار الجاف ، فإنهم توصلوا إلى اختراع بسيط وهو إقامة نوع من الأخصاص فى وسط فناء المنزل أو فى العراء تبنى من أعواد الخشب وتغطى بنوع من العشب الشوكى الصحراوى الذى يسمح بدخول الهواء إلى هذه الأخصاص ، ولكنه طبعا يكون هواء حارا . ولهذا فانهم لكى يلطفوا هواء هذه الغرفة التى يطلقون عليها أسماء مختلفة مثل « خارخانه » و« آدورخانه » و «آدوربند» فإنهم يقومون برش الماء على العشب من الخارج باستمرار ، والذى يحدث هو أن الهواء عندما يتخلل العشب المبلل أثناء مروره إلى داخل الخص ، تنخفض حرارته بتأثير الماء ويصبح نسيماً لطيفا ، وكأن رياح سيستان التى تستمر ١٢٠ يوما تهب فقط لتساعد على إنقاذ أهل سيستان من الحر الشديد .

الرياح سلطانة الصحراء :

هذه الكثبان الرملية العظيمة التى تغطى كل صحراء سيستان تحركها الرياح المستمرة فى الصيف والشتاء . فاختلاف درجة الحرارة ومستوى سطح الأرض بين الشرق والغرب تسبب هبوب رياح سيستان المعروفة ، ويعمل وادى هيرمند كمدخنة ضيقة تسحب هواء الصحراء الساخن لتوصله إلى الجبال الشرقية ، وتحمل هواء الجبال البارد الجاف إلى سيستان فيصيب النباتات والمزروعات بالذبول والموت ، وهو ما يصطلحون عليه بقولهم « إنه يسودها ». ولعل هذا هو السبب الذى من أجله سموها الرياح السوداء . وقد يستمر هبوب هذه الرياح فى الشتاء أسبوعا كاملا دون انقطاع فى المرة الواحدة . ويطلقون على هذه الرياح أيضا اسم « قاتلة المواشي » لأن برودتها الشديدة تؤدى إلى تجمد سطح بحيرة هامون والمستنقعات المحيطة بها ، ونتيجة لهذا فإن الحيوانات وخصوصا مواشى سيستان التى ترعى فى هذه المستنقعات تهلك من شدة البرودة أثناء عودتها إلى حظائرها فى المساء سابحة فى الماء .

ومواشى سيستان التى تجيد السباحة ترعى فى أحراش المستنقعات حتى إذا أقبل الظلام

عادت إلى الشاطىء ، وكثيراً ما تضطر للسباحة فى الأماكن العميقة من البحيرة ، وقد يلجأ الرعاة فى هذه الأثناء إلى الإمساك بذيولها فتسحبهم وراءها مسافات طويلة ، وبهذا يعبرون دون بذل أدنى مجهود .

ولكن هبوب هذه الرياح فى الصيف يكون أطول زمنا وأشد قوة منه فى الشتاء ، حتى ليقال إن الرياح لا تهدأ فى سيستان[١] ، وهى تهب من الغرب إلى الشرق ، وهذه هى الرياح التى يسمونها رياح سيستان ذات المائة والعشرين يوما ، وقد تصل سرعتها فى بعض الأحيان إلى ١٢٠ كيلو مترا فى الساعة ، فتسبب كثيراً من الخسائر والأضرار ، ولكنها فى مقابل هذا تساعد على تحمل حرارة الصيف الشديدة ، بل إن هذه الرياح هى التى تدير طواحين سيستان الهوائية[٢] منذ سنوات بعيدة ، تلك الطواحين التى يجب أن تكون شعاراً السيستان كما هى شعار لهولندا ، وهذا ما جعل مؤلف كتاب حدود العالم يكتب فيما يتعلق بسيستان ، فيقول « ولهم طواحين تديرها الرياح » . وقال « سايكس » السائح والجنرال والمؤرخ الإنجليزى المعروف والذى عمل أثناء الحرب العالمية الأولى فى إيران وقضى بعض الأيام فى سيستان وشاهد رياحها « إن الرياح هنا كثيرة ، وأذكر جيدا أن ريحا قوية هبت ذات ليلة فاقتلعت خيام المسئولين الإيرانيين وقلبتها ، وقد أصدر بعدها أسعد الدولة ـ حاكم بم وبلوشستان ـ أمرا بأن يقف شخص إلى جانب كل وتد من أوتاد الخيمة أثناء الليل حتى يحافظ عليه من الاقتلاع[٣] .

ولكن ما أقسى اليوم الذى تهب فيه هذه الرياح حاملة رمال حافة الصحراء ،

---

(١) معجم البلدان ، ذيل سجستان .

(٢) طواحين الريح بسجستان وبوشنج وحصن زرنج من العجائب (أحسن التقاسيم ، ص ٣٣٢) (م)

(٣) ترجمة هشت سال در ايران ، ج ٢ ص ٤٨ .

ولولا الوسائل التى سبق ذكرها ، لدفنت الرمال والقرى وربما دفنت المدن أيضاً[١] ، وقد تعجبوا من هذا الكلام ، ولكن حدث فى عام ٣٥٩ ﻫ أن هبت على هذه المدينة عاصفة رملية دفنت مسجدها الكبير تحت الرمال[٢] .

الماء سيد الأرض :

أما سدود المياه ، فبالإضافة إلى ضرورتها لتخزين المياه لاستخدامها فى أوقات الجفاف ، فإن لها فائدة أخرى وهى الوقوف فى وجه السيول العارمة وذلك أن أراضى سيستان الزراعية التى تحيط بنهرى هيرمند وزره تغرق إذا فاض الماء فجأة فى النهرين ، ويتلف محصولها كله ، ولهذا فإن السيول تعتبر ضارة مثل الرمال وكلاهما من آفات سيستان .

أما من ناحية الماء فإن هذه المنطقة لا تعرف اعتدالا على الإطلاق ، ففى بعض الأحيان تواجه مشاكل ومصاعب من كثرة الماء ، وأحيانا أخرى تئن من الجفاف ، إذ أن أهالى هذه المنطقة تشوى أجسامهم على الرمال المحرقة مثل السمك المشوى حين تجف المياه ، وفى بعض السنوات يعيشون على سطح الماء مثل الطيور البحرية ، حين تغمر المياه أراضيهم فى طرفة عين وتذهب محصولاتهم هباء[٣] .

وأهم بحيرة تكونت من فائض هذين النهرين هى بحيرة هامون التى يحيط بها العمران والقرى ، إلا من ناحية واحدة حيث تتصل بالصحراء . ويمتد العمران ٣٠ فرسخا طولا وسبعة فراسخ عرضا[٤] ، ويزداد ماء هذه البحيرة وينقص ، وماؤها حلو وإن كانت به ملوحة ، وتتصل من أحد أطرافها بصحراء كرمان ، وبداخل البحيرة بعض جزر ينبت

---

(١) آثار البلاد ، ص ٢٠١

(٢) سر زمينهاى خلافت شرقى ، ص ٣٦١ نقلا عن ابن حوقل .

(٣) مجلة عرفان ، العددين (٦ و ٧) سنة ١٣٣٦ ﻫ . ش

(٤) حدود العالم ، ص ١٦ .

بها كثير من العلف والعشب الذى تذهب إليه مواشى سيستان لرعيه ، وهذه المواشى تعرف طريقها فى الماء إلى تلك المراعى[١] .

ويجب القول إنه على أثر السنوات الجافة المتتالية ، ونتيجة لطريقة استغلال مياه هيرمند فى مناطقه العليا ، فإن بحيرة هامون قد صغرت حاليا وقلت مساحتها ، ويصل طولها فى الصيف إلى نحو ٣٠ كيلو مترا ، وعرضها إلى نحو ٦ كيلو مترات ومتوسط عمقها نحو ١٠ أمتار . أما بحيرة زره التى تعد فرعا من بحيرة هامون فإنها تقع حاليا فى أفغانستان ، ويصل بين البحيرتين مجرى ماء يصل عرضه إلى ٣٥٠ مترا ، وعندما يزداد الماء فى بحيرة هامون فإنه ينساب فى هذا المجرى ناحية الشرق إلى بحيرة زره ، ويطلق الأهالى على هذا المجرى اسم « شيله » أو « شيلاق » .

وتحيط المياه بسيستان من ثلاث نواح فى بعض فصول السنة ، ذلك لأن نهر هيرمند يحيط بها من الشرق وبحيرة هامون من الشمال والغرب . أما من ناحية الشمال وحدود تشخانسور فإنه تتولد بها بعض مستنقعات من نهرى هيرمند وخاشرود تتحول إلى ملاحات لا تصلح لنمو أى نبات ، وقد تحول كثير من أرض سيستان اليوم إلى ملاحات نتيجة لهذه الرواسب والمركبات الملحية وأصبحت غير صالحة للزراعة . وبعض هذه الملاحات مثل ملاحة « نيلوكى » على مقربة من تشخانسور أصبحت مستنقعات خطرة ، لأنها حين يجف ماؤها ويسير فوقها إنسان أو حيوان فإن الأرض تبتلعه ، وكلما جاهد وبذل ما فى وسعه من قوة لإنقاذ نفسه ، ازداد غوصا فى الطين . وقد يستطيع الإنسان أن يخلص نفسه ، ولكن الحيوانات ، وخاصة الجمال لا يمكن سحبها أو إنقاذها[١] .

وأرض سيستان كما قلنا ، قليلة الانحدار ، وكثير من حقولها يمكن ريها من أى

---

(١) جهان نامه، ص ٣٧ .

(٢) مجلة « عرفان » طبع كابل ، العددين (٦ و ٧) سنة ١٣٢٦ هـ . ش .

من طرفيها ، ويكفى رفع ماء هيرمند بأى وسيلة إلى الأرض التى ترتفع على مستوى سطح النهر بنحو مترين فى المتوسط . ولهذا استخدموا السدود المحلية منذ القدم ، حتى إنهم أرجعوا بناء أول سد إلى كرشاسب أو إلى رستم . وبسبب هذا الانحدار البسيط للأرض فإن النهر قد غير مجراه مرات عديدة ، واضطر الناس إلى نقل قراهم تبعاً لذلك .

السدود وإقامتها :

يتم تحويل المياه من النهر إلى الترع الرئيسية المتفرعة منه عن طريق إقامة سدود من أخشاب أشجار الطرفة التى توجد بكثرة فى هذه النواحى ، فتقطع تلك الأشجار وتغرس على حافة النهر عندما يكون ماؤه منخفضا ، ثم يوضع خلفها تراب ليكون ما يشبه الحائط فإذا فاض الماء دخل ما بين الشاطىء وهذا الجدار فينساب فى الترعة ، وتساعد رواسب النهر التى ترسب حول هذا الجدار على تقويته وجعله يشبه السد .

وقد جرت عادة أهل سيستان منذ قرون على التعاون فى إقامة مثل هذه السدود ، وفى بعض الأحيان يقضون الشهرين اللذين لا يعملون فيهما بحكم الطبيعة فى إقامة هذه السدود ، وهذا ما يسمونه هناك « حشر » . ويجرى العمل برضاء الجميع واتفاق كلمتهم ، ولعل سيستان هى المكان الوحيد فى إيران الذى يعمل أهله مدة شهرين لتأمين حياتهم متعاونين دون أدنى خلاف متناسين ميولهم وأهواءهم : ولعل من المناسب أن نذكر هنا أن هذا الأمر — وهو الإيمان بالتعاون التام ولو لمدة شهرين أو ثلاثة — كان أحد الأسباب التى أدت إلى قيام سكان هذه المنطقة بالعصيان والثورة ضد العرب ، كما كان هذا الاتحاد وذلك الاتفاق باعثين على ألا يستريح الحكام العرب طيلة المائتى عام التى استمرت فيها السيطرة العربية ، وأن يظلوا دائما فى صراع وصدام مع الخارجين والعصاة .

ولقد كانت مسألة الرى من هيرمند قبل انفصال أفغانستان عن إيران تأخذ وضعا معروفا ، فقد كان الذين يقيمون أعلى النهر يأخذون حقهم من المياه طبقا للتقاليد والأحكام

المحلية ، وما زاد عن ذلك ينساب إلى القرى والمدن الواقعة أسفل النهر ، وكان كل سد يقام يتناسب مع الحاجة لمياه النهر طبقا لتلك الأحكام والتقاليد .

أما بعد انفصال أفغانستان فى أواسط العصر القاجارى انفصالا كليا عن إيران ، وخاصة بعد هزيمة هرات وبعد حكومة محمد شاه قاجار ، وفى عصر ناصر الدين شاه وإمضاء معاهدة باريس سنة ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧ م) ، فإن مسألة هيرمند أصبحت من المسائل الهامة من النواحى السياسية والاجتماعية . ذلك أن أعلى النهر أصبح فى الأراضى الأفغانية ، وأصبحت الاستفادة من مائه تزيد عن الحد المعروف فلا تصل المياه إلى المناطق السفلى للنهر فى داخل إيران،خاصة وأن مصب هيرمند الذى يبلغ طوله نحو ٤٠ كيلو متراً ، قبل أن يصب فى المستنقعات قد أصبح جافا لا ماء فيه وازدادت بذلك مساحة الأراضى الجافة والرملية ، واضطر سكان تلك النواحى للهجرة وتفرقوا فى البلاد . وفى التحكيم الذى تم بعد عام ١٩٠٢ برئاسة الجنرال ماكماهون فإنه مع التسليم والإقرار بأن جزءاً هاما من الأرض الزراعية فى سيستان يقع فى الأراضى الإيرانية ، فمن المؤسف أنه تقرر استخدام ثلثى ماء هيرمند فى أفغانستان ، وثلثه الباقى فى إيران . ويبدو أن يمين نظام غفارى مندوب إيران لم يوافق على هذا القرار ، ومع هذا فحتى هذا الثلث من مياه هير مند لا يصل اليوم إلى إيران .

وفى عام ١٩٣٠ م قام الأمير شوكت الملك علم — من قبل الحكومة الإيرانية — بإجراء مباحثات مع الأفغانيين ، ولكنه لم يصل إلى نتيجة . حتى كان عام ١٩٣٦ م حينما تقرر أن يقسم الماء الذى يصل إلى سد كمال خان مناصفة بين أراضى سيستان فى إيران وأراضى تشخانسور فى أفغانستان ، وعقد اتفاق آخر عام ١٩٤٨ م ولكن مواده لم تنفذ . وقد اتخذت أفغانستان بالوسائل الحديثة التى لديها فى زيادة استغلال مياه هيرمند ، ومن

(١) من تقارير وزارة الخارجية الرسمية وهيئة مندوبى إيران .

ذلك أنها حولت نهر سراج ثم أنشأت ترعة عند مكان يعرف باسم « بقرا » أمكن بواسطتها سحب جزء كبير من المياه إلى الأراضى الواقعة داخل أفغانستان ، وعن طريق هذا السد الذى أقامته على النهر استطاعت رى ٥٠ ألف جريب من الأراضى الزراعية الجديدة .

ويقع سد كجكى على بعد نحو ٥٠٠ كيلو متر من دلتا نهر هيرمند ويبلغ ارتفاعه ١٠٠ متر ، ويقوم بتخزين ثلاثة مليارات متر مكعب من الماء (١٥ ضعفا لقدرة تخزين سد كرج الذى يقع على بعد نحو ٥٠ كيلو متراً شمال غرب طهران) . وإذا لم يصل إلى إيران نصيب من ماء السد فمن المحتمل أن تنضم سيستان إلى صحراء لوت لأن متوسط سقوط الأمطار السنوى فى هذه المنطقة لا يتجاوز ١٠ سنتيمترات .

هذا إلى جانب السد الذى أقيم على أحد فروع نهر هيرمند ، وهو نهر أرغنداب ، كما تم حفر كثير من الترع فى تشخانسور مما سيحول دون وصول المياه إلى الأراضى القريبة فى إيران .

الفصل الثامن

مظاهر القحط والجفاف

المخـازن تخلو :

قلنا إنه حدث قحط فى عام ٢٢٠ هـ ولم تنبت حبة قمح واحدة فى أرجاء سيستان ولجأ الأغنياء وكبار الملاك إلى فتح صوامع قمحهم وشعيرهم ، فباعوا ما بها أو وهبوه فى سبيل الله ، ولـكن المخزون من الحبوب أخذ ينفد بالتدريج ، ولم يكد ينتهى فصل الحصاد حتى بدأت المجاعة فى الظهور .

أما بست وأرض داور التى تعتبر مصدراً رئيسياً لاحتياجات سيستان فقد أصابها الجفاف ، وبالتالى لم تنتج شيئاً من الفواكه الطازجة أو التى تجفف أو أيا من المحاصيل الأخرى ، ولم ير أطفال سيستان فى ذلك العام لون الجوز أو الخوخ أو اللوز أو أنواع النقل الأخرى ، وبقيت أرفف وخزائن المنازل خالية من كل شىء ، وهى التى تـكون عامرة مملوءة بالفواكه المجففة ، وزجاجات عرق النعناع والورد . ونسى الغلمان لعبهم ومرحهم على ساحل « ترعة عمار »[1] ، وتركت الفتيات وسائل الزينة والسرور . ولم يعقد فى تلك السنة عقد زواج واحد ، ولم تنشأ أسرة جديدة ، وبقيت زجاجات زيت المن خالية متربة .

أما طواحين الهواء التى تديرها الرياح طول العام ، فقد توقفت عن العمل وتـكسرت مراوحها ، وكان كل قادم إلى سيستان من القرى المحيطة بها — قبل هذا العام الذى

---

(١) مكان كان يلعب عنده أطفال المدينة — تاريخ سيستان ص ٢٦٦

نتحدث عنه — يرى من بعيد دخانا يتصاعد من كل منازلها عند الغروب ، وكان هذا الدخان هو دخان مطابخ الأهالى الذين كانوا يطبخون بعض اللحم أو القديد أو يعدون الطعام للعشاء ، وكان الأهالى يعتمدون طيلة الشتاء على مخزون من اللحم المحفوظ ، إذ كان من عادتهم أن يسمنوا بعض الأغنام فى البساتين طيلة الصيف ثم يذبحونها فى أوائل الشتاء ، ثم يطبخون لحمها بشحمها فى أوعية كبيرة حتى يجف ماؤها تماما ثم يضعون هذا اللحم المطبوخ فى جلود نفس هذه الأغنام المذبوحة بعد غسلها وتنظيفها جيداً ، وتوضع هذه اللحوم فى أماكن باردة . وهذا الطعام اللذيذ الذى يطلقون عليه « قورمة » يمثل مخزونهم طيلة أشهر الشتاء الثلاثة ، لأن عادتهم جرت على عدم ذبح الأغنام فى الشتاء .

أما فى عامنا الذى نتحدث عنه ، فلم يعد القادمون للمدينة يشاهدون ذلك الدخان المتصاعد عند الغروب ، وكما يقول سعدى لم يكن سوى أنين أرملة عجوز إذا تصاعد صوت من الروزنة . ولم يمض وقت طويل حتى تبدل القحط والغلاء إلى مأساة ووباء عاناه المساكين والفقراء فى البداية ، ولم تكن هناك وسيلة اتصال مع الأنحاء البعيدة لإحضار مساعدات أو أغذية إلى هؤلاء المساكين ، أضف إلى هذا أن حالة الفوضى والاضطرابات والانقلابات وأعمال الخوارج والعيارين وظلم الحكام قد أدت إلى اختلال الأمور فى التجارة وتحويل قوافلها القادمة من طبس على بحر عمان إلى قصدار وسيستان ، والتى كانت تتجه بعد ذلك إلى هرات وسائر مدن الشمال أو العكس ، ذلك لأن الأمن والحرية من الضروريات اللازمة لانتشار التجارة واتساعها ، وهذه الضروريات كانت قد اختفت من سيستان قبل ذلك بسنوات .

لم يمض وقت طويل على تفشى الأوبئة بين الفقراء بسبب هذا القحط والجوع ونقص الأغذية حتى تجاوزتهم إلى التجار والأعيان وذوى اليسار وقضت على الكثيرين منهم[1] .

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ١٨٦ .

خراج بغير حساب :

لم يستطع عمال الديوان وولاة الأمر إيجاد حل لهذه الأزمة لأنهم كانوا طيلة السنوات السابقة فى نزاع وقتال مع الخوارج والعيارين والعصاة الثائرين ، وهو ما لم يترك لديهم أى فائض من الأموال يمكن به إمساعدة المنكوبين ، بل إن تلك السنوات العصيبة لم تدع لهم الفرصة للتفكير فى الاستعداد لمواجهة أى قحط قد يصيب الناس .

ولا يجب أن يغيب عن نظرنا أن هذه الاضطرابات وتلك الثورات أدت إلى ازدياد نفقات الديوان ، وهذه بدورها أدت إلى زيادة الخراج الذى يدفعه الأهالى ، فأصيبوا بالفقر والفاقة ومنعتهم من ادخار أى مال كان يمكن أن ينفعهم فى مثل هذه النكبة .

ولم يكن الخراج الذى يدفعونه منذ سنين طويلة خراجا قليلا ، إذ كانوا يدفعون ثلاثة ملايين واثنا عشر ألف درهم جزية وخراجا على أملاك وأراضى الحكومة يحمل منها مليونان إلى الخليفة فى بغداد ، وكان هناك مليونا درهم لإقامة التيمون[1] . ثم اثنا عشر ألفا لتحصين المدينة ، وأربعة آلاف درهم لتجديد وتعمير مصادر المياه ، وخمسين ألف درهم لإنشاء القلاع ، وعشرين ألف درهم للانفاق على السجون ، وكان سجن سيستان الرئيسى قلعة ضخمة اسمها « حصار طاق » فى اتساع المدينة له ثلاثة أسوار بين الأول والثانى منها مزارع وبساتين ، وكان الفناء بين الثانى والثالث مخصصا لسكنى الناس ، أما فى داخل الحائط الثالث فكان السجن الذى يحبس فيه كل من أريد التخلص منه حتى يهلك ، وقد وجدت به بقايا عظام كثيرة ، ويقال إنه عثر فى منزل أحد الأشخاص على أربع آلاف جمجمة[2] . وكان على أسوار قلعة طاق سبعة أبراج عظيمة[3] . وإلى جانب نفقات إصلاح سجن طاق المعروف كان يصرف ٣٠

---

(١) يبدو أنه كان نوعا من الجدران أو القلاع أو سدا معينا غير السدود العادية يحتاج إلى اصلاح وتعمير كل عام .

(٢) روضات الجنات فى أوصاف مدينة هرات، ص ٣٣٤ .

(٣) نخبة الدهر، ص ١٨٣ .

ألف درهم للطعام والشراب فى المسجد الجامع خلال شهر رمضان ، وأجور المقرئين والمؤذنين وغير ذلك ، وعشرة آلاف درهم لنفقات المستشفى ، و ٢٠ ألف درهم لإقامة السدود والجسور على النهر ، ثم ٣٠ ألف درهم مرتبات رئيس الشرطة فى عام ، و ٥٠ ألف درهم مرتبات رئيس المالية ، و ٢٠ ألف درهم نفقات صاحب المظالم (القاضى) و ٣٠ ألف درهم لإقامة الحواجز أمام الرمال ، و ٣٠ ألف درهم لصيانة القناطر (الكبارى) على نهر هيرمند وطرق الملاحة فيه(١) . ذلك لأن نهر هيرمند كان يمر من داخل مدن سيستان ، ولذلك كان يوجد فى كل مدينة بضعة جسور (كبارى) من أمثلتها فى العاصمة أمام بست كان يوجد جسر مقام على قوارب .

هذه هى النفقات التى كان على أهل سيستان دفعها كل عام ليُنفق بعضها فى المدينة ، أما فى أيام الحرب أو الثورات فإن أغلبها كان ينفق على الجيش والحرب وليس لمنفعة المدينة وسكانها .

ويجب أن ننبه إلى أن هذه النفقات غير الخراج الذى كان على أهل سيستان دفعه — مثل سائر الأقاليم — إلى الخليفة فى بغداد تنفيذا لتعهداتهم ، أو تقديمه كنوع من الخراج والرشوة للحكام مثلما فعل رتبيل ملك كابل عندما أرسل حملا من الذهب هدية إلى الحجاج ، وتعهد أن يرسل له سنويا مليونى درهم كضرائب ، وثلثمائة ألف درهم كفدية عن نفسه(٢) .

كل هذه الضرائب والخراج التى دفعها أهل سيستان طيلة سنوات عديدة أدت إلى قصم ظهورهم وانهيار اقتصادهم .

وقد وجد كشف بخط أحمد بن محمد بن عبد الحميد عن الخراج الذى كان يجمع من

---

(١) ترجمة كتاب بلاد الخلافة الشرقية، ص ٣٦٨ .

(٢) تاريخ سيستان، ص ١٠٨ .

الأقاليم ويرسل إلى بغداد في زمان الخليفة المأمون ، ونقله ابن خلدون من سجل الحكومة وفيه أن خراج سيستان كان أربعة ملايين درهم و٣٠٠ قطعة من النسيج و٢٠ الف رطل من السكر الأبيض [١] (الرطل — نحو نصف منّ أى ٥ر١ كيلو جرام) .

ولاشك أن الخراج كان يختلف من عام لآخر ، ولكنه على أية حال لم يكن يقل عن هذا المبلغ ، فقد بلغ خراج سيستان في عامى ٢١٠ و ٢١٢ هـ (أى قبل عشر سنوات على ذلك القحط) ٠٠٠ ر٧٧٦ر٦ درهما ، وهذا غير خراج طبسين وقهستان ورخيج وأرض داور وزابلستان . وكان خراج كابل وحدها ٠٠٠ر٠٥ ر٢٠ درهما و٢٠٠٠ عبد تركى . وكان هذا الخراج يرسل عادة إلى خراسان . وبلغ خراج خراسان كلها أيام عبد الله بن طاهر ٠٠٠ر٤٨٦ر ٤٤٠ درهما والفين من الخراف والفين من العبيد الغز و١١٨٧ قطعة قماش مقصب و ١٣٠٠ قطعة من الفئوس وألواح الحديد ترسل جميعها إلى بغداد [٢] .

وللأسف فإن جميع هذه الأموال لم تكن تتأثر كثيراً بالأضرار الطبيعية أو الكوارث ولم يكن هناك من يعين الأهالى أو يساعدهم لكى تخفض هذه الضرائب فى سنوات القحط والجفاف أو يتجاوز عنها ، بل إن هذه الأموال كانت تجمع طبقا للدفاتر والكشوف القديمة التى كانت مقررة فى السنوات السابقة . وكان من الضرورى دفع هذه الضرائب إن آجلا وأن عاجلا ، وكان لدى العامة مثل يقول « أموال الديوان وبرد الشتاء لها تقديم وتأخير ، ولكنهما لاينقطعان » أى أن أموال الديوان تجمع فى أى وقت ولاتضيع عليه ، كما أن أن الشتاء قد يبقى حتى بداية الربيع ولكنه لايتخلف عن المجىء أبدا .

خراج شواطىء هيرمند نفقات لسواحل دجلة :

فى أى شىء كان ينفق هذا الخراج الكبير الذى كان يتدفق طيلة سنوات عديدة من سيستان وكابل وكل أنحاء ايران على دار الخلافة ؟

---

(٢) ترجمة مقدمة ابن خلدون ، ٣٥٢ .

(٣) تاريخ خاندان طاهرى ، ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

من المسلم به أن ديناراً واحداً أو درهماً من كل هذا الخراج لم يكن يعود لينفق على تعمير المدن أو الولايات ، ولا يوجد فى أى مكان فى إيران دليل واحد على أن الخلفاء أقاموا سداً أو أصدروا أمراً بتعمير ناحية، أو ساعدوا البؤساء من الأهالى أو أقاموا مستشفى من المستشفيات .

وكانت هذه الثروات الهائلة والأموال المقنطرة تتدفق على بغداد حيث كانت قصور الخلفاء والقواد والعظماء تناطح السماء وحدائقهم الغناء ، وما يتبقى منها كان ينفق على الملذات والخلع والهدايا وصلات الشعراء والمادحين ، أو شراء الغلمان والجوارى من أقاصى البلاد مثل الصين وأرمينيا وبلاد الروم واليونان . وكان تحمل هذه القصور مما يثير الدهشة فمن المعروف أن زبيدة زوجة هارون الرشيد لم تكن تتناول طعامها فى أى شىء إلا فى أطباق من الذهب والفضة المرصعة ، وأنفقت فى سفرها إلى مكة ثلاثة ملايين دينار . وذكر سائح حظى بمقابلة المأمون فى تلك الأيام أنه رأى فى حضرة الخليفة ٢٠ فتاة يونانية كن يرتدين أفخر اللباس ، ويتحلين بأجمل الحلى ، وكنّ يرقصن أمام الخليفة وفى أعناقهن صلبان من الذهب وفى أيديهن أغصان من الزيتون ، وسعاف النخيل ، وعندما انتهين من أداء الرقص نثر بينهن ثلاثة آلاف دينار [١] .

وكان من نتيجة مثل هذه العطايا والبذخ أنّ قطراً عظيماً واسعاً مثل إيران كان يشكل جزءاً هاماً من الدولة الإسلامية أخذ ينحدر صوب الفقر والفاقة [٢] .

---

(١) ترجمة تاريخ العرب لفيليب حتى، ص ٩١ ، ١٠٨ .

(٢) المعروف أن إيران وبلاد المشرق بعامة كانت فى حالة من الرخاء والتقدم طيلة الخلافة العباسية وأن انهيار إيران والشرق الاسلامى حدث بعد الغزو المغولى وليراجع من يشاء الوقوف على هذه الحقيقة كتب الجغرافيين والرحالة ليعرف مدى اتساع المدن الإيرانية وعمرانها وازدهارها وما كان بها من مئات الحمامات والدكاكين والأسواق وغير ذلك (م).

ولكي ندرك كيف كان ينفق هذا الخراج ، يجب أن نلاحظ أن ديوان الخلافة كان يضم كثيراً من الأفراد الذين كانت حياتهم المترفة تقوم على العطايا والمنح المستمرة . ويقولون إنهم أحصوا أفراد أسرة العباس بن عبد المطلب إبان حكم المأمون ، لتوزيع المنح والعطايا عليهم ، فكانوا ثلاثين ألفا من رجال ونساء[1] ، وكان هؤلاء جميعا يحتاجون إلى العطايا والمنح لكي يواصلوا حياتهم المترفة .

وهناك رواية أخرى عن إسراف المأمون أثناء زفافه إلى بوران بنت الحسن بن سهل إذ أعطاها ليلة الزفاف فى شعبان عام ٢٠٩ هـ الف قطعة من الياقوت كمهر لها . وفى ذلك الحفل وضعوا شمعتين سوداوين ، تزن كل واحدة منها أربعين منا (١٢٠ كيلو جرام) وأوقدوها ، فسأل المأمون « ماهذا ؟ » قالوا « إنه صبر » فأمر بازالتها وقال هذا إسراف كما أنه يسبب صداعا[2] . كما فرشوا سجادا مصنوعا من الذهب ومطعما باللؤلؤ . أما الحطب اللازم للمطبخ ليلة العرس فقد نقلوه على ١٤٠ بغلا ظلت تعمل مدى عام كامل ، وكان كل بغل يحضر ثلاثة أحمال فى اليوم . وقد أحرق كل هذا الحطب فى ليلتين فقط ، وبلغت نفقات حفل عرس المأمون نحو ٥٠ مليون درهم[3] .

كان هذا مصير الأموال التى جمعت وحملت إلى بغداد من جيوب الأهالى الفقراء فى كرمان أو سيستان[4] ، والذين تتمثل أهم صادراتهم فى الحبال والمصنوعات الأخرى التى يستخدم فيها سعف النخيل وليفه ، وذلك قبل قيام يعقوب بنحو ٣٠ عاما .

---

(١) ترجمة مقدمة ابن خلدون نقلا عن المسعودى ، ص ٣٤٢ .

(٢) مجمل التواريخ والقصص ، ص ٣٥٥ .

(٣) ترجمة مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٣٨ .

(٤) تاريخ الحضارة الاسلامية ، لجرجى زيدان ، ج ٥ ص ١٤٠ .

(٥) لقد عاب المؤلف الخلفاء لعطاياهم هذه ولكنه اعتبرها من حسنات يعقوب كما سوف نرى فى هذا الكتاب المترجم .

أساس تطور المجتمع :

استمر قحط سنة ٢٢٠ حولا كاملا ، وبعث جسين السيارى ـ حاكم سيستان ـ أنباء القحط والغلاء والموت إلى خراسان التى كانت سيستان تابعة لها آنذاك ، وترسل خراجها إلى حاكمها هناك ـ عبد الله بن طاهر . فلما وصلت أنباء هذا القحط إلى عبد الله ابن طاهر ، أمر أن يفرق بين الأهالى مبلغ ثلثمائة الف درهم من الضرائب كانت متبقية فى خزانة السيارى ، ولم تكن قد أرسلت بعد إلى خراسان ، ووكل السيارى اثنين من أكبر علماء الدين فى وقته لتوزيع هذا المبلغ وتقسيمه بين الأهالى الذين لم يؤثر فيهم هذا المبلغ لضآلته .

هذا الاضطراب الاقتصادى ساعد كثيراً على اضطراب الأوضاع الاجتماعية والسياسية لأن الاضطراب الاقتصادى غالباً مايكون أساس التغييرات الاجتماعية والسياسية فالشعوب عندما تسوء أحوالها وتتدهور تقوم بعض جماعات منها بالهجرة ، ومن يبقى يتعرض بعضهم للموت ، وبعضهم الآخر يسيطر عليه التشاؤم والغضب والثورة الناتجة عن اضطراب الأوضاع ، ولهذا يتأثر دخل الدولة نتيجة للهجرة أو الموت أو عدم المقدرة على الدفع ، ولاتستطيع الدولة آنذاك القيام بمسئولياتها ، فتنهار الموارد الاقتصادية للبلد ؛ وهذا كله يؤدى فى النهاية إلى تطورات سياسية واجتماعية خطيرة فى المجتمع .

لم يكن استعداد أهل سيستان للانقلاب نتيجة لاستيلاء العرب عليهم ، وانقسام زعمائهم فيما بينهم ـ إلى عرب بكر وعرب تميم ـ أو نتيجة للقحط والجفاف ، بل إن تسلط عملاء الطاهريين وأقاربهم على تلك البلاد كان عاملا آخر لتقوية الروح القومية بين الأهالى ، وأدت كل هذه العوامل إلى ظهور رجل ينادى قائلا « لاتدفعوا درهما كخراج للخليفة بعد الآن ، لأنه لايستطيع رعايتكم [1] » .

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ١٥٨ .

الفصل التاسع

أوضاع سيستان الاجتماعية

اتسع نشاط عيارى سيستان بإقامة ارتباط مع عيارى المدن الأخرى ، وقاموا بانتخاب زعماء وقواد لهم ، وحصل بعضهم على لقب قائد (عقيد) ، منهم « أبو العريان » أحد عيارى سيستان وقوادها المعدودين والذى كانت تجتمع إليه الغوغاء[1] ، وكان أبو العريان هذا أول من ساعد حمزة الخارجى فى حربه ضد سفيان بن عثمان .

الفرق بين الخارجى والعيار :

أخذت قوة العيارين فى الازدياد إلى الحد الذى جعل الليث بن فضل عامل المأمون حينما وصل إلى سيستان يرى من باب الكياسة والسياسة ، أن يتفق مع العيارين ، لعله يستطيع أن ينهى أمر الخوارج ، ولهذا فإن كل ما جمعه من سيستان أنفقه على إطعام العيارين أو الإنعام بالخلع عليهم[2] .

ولم يمض وقت طويل ، حتى ظهر فى بست فى عهد محمد بن يزيد (٢١٦ هـ) أحد العيارين ، وأعلن العصيان ، واجتمع حوله الناس ، إلى أن استطاع عيسى بن أحمد تفريقهم وعاد إلى سيستان .

أما أحمد بن جابر ومحمد بن الأحوص فإنهما عندما وصلا إلى سيستان فكرا فى مقاومة الخوارج بوسيلة أخرى ، هى تحريض بعض رجال الدين ليدينوهم عن طريق المناظرة

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ١٦١ .

(٢) تاريخ سيستان ، ص ١٧٦ .

والمجادلة . وقد وجدوا ضالتهم فى أبى اسحق الجاشنى (لعله الخاشى) الذى كان أحد قواد الخوارج ، ولكنه تنكر بعد ذلك للخوارج واعتبر أعمالهم ضد الدين ، وعلم الخوارج بنوايا زعيمهم فتخلوا عنه وضغطوا عليه حتى اضطر إلى الالتجاء إلى مستنقع رزه ، والعيش فى أحد الأخصاص هناك إلى أن مات .

وكذلك فإن محمد بن الأحوص الذى جاء إلى سيستان عام ٢١٣ ﻫ جد فى مقاومة الخوارج بمساعدة علماء سيستان ، وبمعاونة آحاد من زعماء الخوارج أنفسهم ولكنه هزم فى الحرب التى جرت بينه وبينهم ، واستولى « أبو عوف » زعيم الخوارج على زمام الأمور ووقف فى وجه محمد بن الأحوص حتى لم يعد يصل لديوان الخلافة وحكومة خراسان أى دخل من سيستان[1] .

بست ، طليعة العصيان :

لم تكد تمضى بضعة أيام على الجفاف والقحط والغلاء الذى حدث عام ٢٢٠ ﻫ حتى أعلن رجل من بست العصيان ، وكان هذا الرجل هو « عبد الله الجبلى » الذى اجتمع عليه كثير من الخوارج ، وتوفى السيارى حاكم سيستان فى هذه الأثناء ، فأرسل عبد الله ابن طاهر ، إلياس بن أسد من خراسان إلى سيستان لقمع الخوارج ، فلما وصل كانت الأحوال قد تدهورت ولم يعد فى بيت المال درهم ولا دينار ، فجمع الأموال من الأهالى[2] ثم تعقب الخوارج الذين توجهوا إلى كرمان نتيجة للضعف الذى لمسوه فى أنفسهم آنذاك .

وبعد فترة من الوقت عين عبد الله بن طاهر فى عام ٢٢٥ ﻫ إبراهيم القوسى حاكما على سيستان ، فلما وصل إليها عين ابنه اسحق حاكما على بست ، فضاق الناس بهذه الحكومة العائلية ، واشتكى أهل بست ، فاضطر ابراهيم القوسى إلى استدعاء ابنه هذا

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ١٨٢ .

(٢) تاريخ سيستان ، ص ١٨٨ .

وإرسال ابن آخر له ، ولكن هذا الابن الثانى أساء التصرف إلى درجة دفعت الأهالى إلى الموافقة على الابن الأول — اسحق — وطلبوا عودته إلى بست فعاد وبقى هناك إلى أن مات سنة ٢٢٦ هـ (٨٤٠م) وبعودته عادت الفوضى والاضطرابات إلى بست .

البرد يقضى على الفاكهة :

فى هذه الأثناء توفى المعتصم وتولى الواثق الخلافة من بعده (٢٢٧ هـ) وقام بدوره بالإعتراف بولاية عبد الله بن طاهر على خراسان ، لأن أسرته كانت قد أرست قواعدها هناك ، ولم يكن فى استطاعة ديوان الخلافة الذى يسوده الاضطراب وعدم الاستقرار أن يقدم فى خراسان على أى إجراء آخر غير هذا .

ومن سوء الأقدار أن يصيب سيستان فى عام ٢٢٧ هـ برد قارس أدى إلى الإضرار بكل المحاصيل والمزروعات ، خاصة أشجار الفاكهة التى أصابها الذبول . ولم يقتصر الضرر على المزروعات ، بل تعداه إلى الأهالى الذين أصيبوا بالأمراض ، ثم انتشرت الأوبئة بينهم[١] . وقد ترك هذا البرد وما سببه من أضرار أثراً سيئاً على الوضع الاقتصادى لأهل بست التى كانت تعد من المدن الكبيرة الواقعة على شاطىء نهر هيرمند ، وكانت محطا للتجارة والتجار ، أما فى ذلك العام فإن تجارة الفواكه الطازجة والمجففة وسائر المحصولات الأخرى قد توقفت وازدادت حالة الناس سوءاً وتدهوراً .

أما فى خراسان ، فكان عبد الله بن طاهر يتولى الحكومة ، ولم يستطع ديوان الخلافة أن ينحيه ، وقام عبد الله بتعيين حسين بن عبد الله السيارى واليا على سيستان وجعل ابن أخيه عبد الله بن محمد حاكما على بست ، وقد أبعد كثيراً من رجال سيستان إلى خراسان ، فسجنهم عبد الله بن طاهر فى قلعة هرات ، وبهذا خمدت نار الفتنة فى خراسان وبقيت مضطرمة تحت الرماد[٢] .

(١) تاريخ سيستان ، ص ١٩٠ .
(٢) تاريخ سيستان ،ص ١٩٩ .

توفى عبد الله بن طاهر والى خراسان عام ٢٣٠ هـ ولم يكن قد توصل إلى أى حل لمشكلة سيستان وبست التى نشأت منذ عام القحط والجفاف فى سنة ٢٢٠ هـ ، وهى المشكلة التى لم يستطع أى حاكم أن يصلح ماخلفته من خراب وفقر .

بقى ابراهيم القوسى فى حكومة سيستان بعد وفاة عبد الله بن طاهر ، وحاول مسايرة كل فرق سيستان ، خاصة الخوارج وأهل السنة وطائفتى بكر وتميم ، وكان الأهالى يترقبون ماسيتخذه ديوان الخلافة من إجراءات تجاه خراسان وبالتالى سيستان . فلما عين الخليفة الواثق بالله الأمير طاهر بن عبد الله واليا على خراسان أيقنوا أن يد الطاهريين لن تبتعد عن خراسان .

ظلت مدينة بست مضطربة إلى أن اندلعت منها أول ثورة ضارية ـ كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل الأول ـ عندما علق رأس عشان على المشنقة وثار الناس ثورة عارمة وأصبح صالح بن نصر أخو عشان قائداً للثورة ، وذهب من بست إلى زرنج لمساعدة يعقوب بن الليث ، واستولى على العاصمة بمعاونة العيارين ، وبدأ فى مصادرة أموال أهل سيستان ، ولكن بعض أصحابه لم يوافقوه على خطواته العنيفة ، فلما برزت مشكلة سيستانى وسجزى وتصاعد الخلاف رأى صالح أن استمرار عمله فى سيستان غير ممكن فجمع سلاحه ومتاعه ليلاً ـ كما سبق أن قلنا ـ وكتب رسالة إلى صديق له هو مالك إبن مردويه ـ وكان نائبه على بست ـ يقول له فيها : « إننى قادم اليك لأن الوضع فى سيستان أدى إلى الخلاف مع أعوانى ولم تعد هناك وسيلة لإصلاحه »[1] .

وركب مالك فى ٥٠٠ من الفرسان وتوجه إلى سيستان ، وخرج صالح من المدينة وأسرع يعقوب وحامد سرناوك فى أثره ودارت بينهم معركة عنيفة على مقربة من المدينة قتل فيها مالك وأكثر أمراء وقواد جيش صالح ، ونهبت كل عدته ومتاعه ، أما صالح فقد استطاع أن يصل إلى بست بعد هذه الهزيمة .

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ١٩٩ .

وانضمت إلى صالح جماعة من قرى بست ؛ ولـكن يعقوب كان يتعقبهم بجيشه على مقربة من بوابة بست ، ودارت بينهما معركة قتل فيها طاهر بن الليث أخو يعقوب (٢٤٤ هـ ـ ٨٥٨ م) وانهزم صالح واستطاع الفرار ، وبقى مدة لا يعرف خبره ، وإن كان لم ينته أمره . وعاد يعقوب إلى المدينة فووجه بحادثة لم يـكن يتوقعها ، وهى أن بعض أعوانه وجنده وأهل بست بايعوا درهم ، أحد أعوان يعقوب حاكما عليهم ، وكان عينا من أعيان المدينة ، ولعل الأهالى كانوا مضطرين لاختيار أحد لرئاستهم ليقوم بحفظ الأمن والسيطرة على الأوضاع ، فلما عاد يعقوب من الحرب رأى من الحـكمة أن يؤيد درهماً وألا يصطدم به . وقد شعر درهم بخطر يعقوب وخطورة صديقه الوفى حامد سرناوك ونفوذهما بين العيارين ، فاضطر بدوره إلى مسايرتهما ومنح كلا منهما لقب « لواء » لأنهما كانا قد أبليا أحسن البلاء فى مواجهة خصوم درهم ، وفى حرب الخوارج وتطهير سيستان من المخالفين والمعارضين . وفى هذه الأيام (عام ٢٤٤ هـ) توفى محمد بن ابراهيم القوهى حاكم سيستان . وبموته فقد معارضو يعقوب رئيسهم وقائدهم .

أخذ نجم يعقوب فى الصعود ، وتحول كثير من أصحاب درهم عن طاعته إلى طاعة يعقوب وتأييده وإزاء هذا اضطر درهم إلى ترك سيستان وسط مظاهر الإجلال والاحترام وتوجه للحج . وفى أثناء عودته عرج على بغداد ، وبقى بها مدة اتصل أثناءها بديوان الخلافة ، ثم غادرها إلى سيستان حاملا رسالة وأوامر إلى يعقوب .

وقد أثار اتصال درهم بديوان الخلافة ثائرة يعقوب ، مما دعاه إلى التفكير فى التخلص من درهم ، وكان درهم يفكر فى نفس المصير ليعقوب ، ولـكن يعقوب كان أسبق فى الخلاص عن منافسه .

مؤامرة الحاكم المريض :

ذكر الرواة قصة خلاف درهم ويعقوب ، وقالوا إن درهماً كان يخشى قدرة يعقوب

وشجاعته ومركزه فكان يفكر فى وسيلة يتخلص بها من هذا القائد المحنك ، ولكنه كان عاجزا عن اتخاذ أى إجراء لأن جيشه كان من العيارين ، وكان العيارون يطيعون يعقوب لأنه كان قائدهم . ولهذا دبر درهم مؤامرة ، بأن ادعى المرض ولزم الفراش حتى يقطع صلته بيعقوب ، ويفكر فى أثناء ذلك فى الخلاص منه .

ولكن يعقوب أرسل إليه يقول إن سيستان لا يمكن إدارتها بهذا الشكل ، ويجب عليك أن تنهض وتخرج لأن الدولة لا تستغنى عن حاكمها ولو لنصف يوم . وقد أدى غياب درهم إلى تحول كل الجنود إلى يعقوب ، ذلك لأن درهماً لم يكن على دراية بأمور الجند وإدارتهم . وقد غضب درهم من هذه الرسالة . وأمر بعض الحاضرين فى مجلسه بقتل يعقوب . وبلغت هذه الأنباء يعقوب فسارع إلى المؤتمرين وقتل بعضهم وهرب الباقون ، وألقى القبض على درهم وأرسله إلى السجن . وذكرت بعض المصادر أن يعقوب قتل درهماً . ويقول البعض الآخر إنه لزم منزله بعد الحج وأصبح زاهداً متصوفا .

على كل حال ، فإن أهل سيستان أعلنوا بيعتهم ليعقوب بعد القبض على درهم ، وكان هذا فى يوم السبت لخمس بقين من شهر المحرم عام ٢٤٧ هـ (١٢ أبريل عام ٨٦١م) .

الفصل العاشر

السير نحو الشرق

معركة بست :

نعود إلى يعقوب وصالح بن نصر . لم يكن يعقوب قد انتهى من أمر صالح بن نصر ، ولهذا عين أخاه عمرا فى مكانه حاكما على سيستان ، وتوجه بنفسه إلى بست وهناك دارت بينه وبين صالح معارك كثيرة ، إلى أن أجبر صالح على الفرار ليلا ، وسقطت بست فى يد يعقوب .

وأراد صالح أن يباغت يعقوب من الخلف بالوصول قبله إلى العاصمة ، ولهذا سار عن طريق « ميان » عبر الصحارى والقفار إلى سيستان ، لأن الطريق العادى بين بست وسيستان كان يستغرق خمسة أيام[1] . أما عن طريق النهر بين بست وسيستان فإنه ضعف الطريق البرى ، وذلك راجع لأن النهر بين المدينتين ينحنى انحناءة تشبه نصف دائرة . ولهذا كان طريق « ميان بر » أقصر من الطريق العادى ولـكنه غير مأمون ولا مطروق واستطاع صالح أن يصل فى منتصف الليل إلى باب « آكار » ومعناه باب الزارع ، ولعل التسمية كانت نسبة إلى شخص بهذا اللقب ، وظن الأهالى عندما سمعوا صوت الجنود وضوضاء الجيش خارج المدينة أن يعقوب عاد من بست ففتحوا الباب ، وعندما بلغ الخبر إلى عمرو كان صالح قد دخل المدينة .

القبض على عمرو :

أدت هذه الغفلة إلى سقوط المدينة فى يد صالح ، وقد حصن عمرو منزله الذى كان يقع

---

(١) معجم البلدان ذيل « سجستان » .

فى محلة « كوشه » ، فقام صالح بمحاصرته وأخرجه من قصره ، وسجنه مع اثنين من قواده هما عزيز بن عبد الله وداود .

وبلغت أنباء صالح يعقوب ، فأسرع بالعودة إلى سيستان ، وعسكر على الطرف الآخر للمدينة ، وتحصن صالح فى الجزء الذى كان قد استولى عليه منها ، وحفر حوله خندقا ، ونشب القتال بين أحياء المدينة ، وبعد صراع مرير وصرعى كثيرين انتصر يعقوب وفر صالح . وأطلق يعقوب سراح عمرو ورفيقيه من السجن ، ووزع خمسين ألف درهم شكراً لله على هذا النصر وعلى إنقاذ أخيه حيا .

حرب الفيل ورتبيل :

اضطر يعقوب للعودة إلى بست على رأس قوة من ألفى فارس لكى يضع حداً لأمر صالح ، فلما وجد صالح أنه لا طاقة له بمواجهة هذه القوة ترك بست ، وذهب إلى رتبيل ملك كابل . وكلمة رتبيل التى وردت أيضاً على شكل رطبيل وزنبيل وزنتبيل فى بعض كتب التاريخ كانت لقبا لملوك كابل وما يحيط بها ، كما كانت تتبعه بعض قبائل الترك ، ويبدو أن معناها راكب الأفيال لأنهم كانوا يستخدمون الأفيال فى حروبهم ، وكان هؤلاء الملوك على دين بوذا ، وكانت عاصمتهم كابل مدينة خصبة ذات قلاع يسكنها مسلمون وبوذيون ، وبها معابد للأصنام، ولم تقتصر شهرتها على المدينة وما يحيط بها ، ولكن كثيرا من الهنود كانوا يأتون لزيارتها، ولم تكن مراسم تتويج مهراجا قنوج تتم إلا بزيارة هذه المعابد وتسلم لواء ملكه هناك . وارتفع أمر رتبيل الدينى إلى درجة أنه ادعى درجة من الألوهية وبنى معبدا ضخماً على قمة جبل وسماه بيت الله أو مكة .

مصدر ثروة بغداد :

كانت حكومة كابل تمتد غربا حتى حدود سيستان . ونظراً لوقوع مدينة كابل فى منطقة جبلية صعبة فإن جيوش المسلمين لم تستطع حتى ذلك الوقت أن تخضع حكامها ، ولهذا كانوا يصالحونهم فى بعض الأحيان لقوتهم وثروتهم ، أو كانوا يحاربونهم أحيانا أخرى ، وكان رتبيل يرسل كل عام مبلغاً من المال كخراج إلى بغداد .

وكان يعقوب يريد أن يطيح بملك كابل لعدة أسباب .

أولها أنها كانت دولة قوية تقع إلى الشرق من سيستان على منابع نهر هيرمند وكانت تمثل خطرا دائما ليعقوب .

وثانيها أنها كانت مملكة بوذية غير مسلمة .

وثالثها أن ملوك كابل كانوا منذ صدر الإسلام وحتى ذلك الوقت يدخلون فى صلح مع العرب فى مقابل دفع الجزية والخراج والرشوة ، وبهذا استطاعوا حفظ مملكتهم ، وهذه الأموال التى كانوا يدفعونها كانت أموالا طائلة . وقد حدث أول صلح فى أيام عبيد الله بن أبى بكر عام ٥١ هـ (٦٧٦م) وقبل رتبيل أن يدفع مليونى درهم . بل أنه ذهب بنفسه إلى البصرة لزيارة زياد بن أبيه .

وكانت المرة الثانية عام ٧٤ هـ حين عقد صلحا مع عبد الله بن أمية وأرسل إليه حملا من الذهب ، وتعهد بعدم الدخول فى أية حرب ، ودفع مليونى درهم سنويا ، وفدى نفسه بمبلغ ٣٠٠ ألف درهم . ثم اضطر فى عام ٧٨ هـ إلى دفع سبعمائة ألف درهم ، وفى عام ٨٨هـ عقد صلحا مع قتيبة بن مسلم على ثمانمائة ألف درهم . ولما لم يقبل الحجاج هذا الصلح اضطر عام ٩٤ هـ إلى الصلح على مليونى درهم . وفى عام ١٠١ هـ أرسل إلى معن بن زائدة

هدية من الأوانى الفضية والذهبية والعباءات التركية المنسوجة من الحرير ، والأشياء الطريفة ، لأنه كان قد طالب رتبيل بالخراج كما كان على أيام الحجاج[١] .

من هذا نرى أن كابل كانت قد أصبحت مورد ثروة للخلفاء ، وكان جنود العرب ـ كما وصفهم هؤلاء الرتابلة — جنودا نحاف الأبدان قد اسودت وجوههم من كثرة الصلاة، ينتعلون أحفافا من ليف النخيل[٢] ، فيقطعون صحارى سيستان ليتسلموا ذلك الخراج ، وقد أراد يعقوب أن يقطع هذا المورد عن بغداد نهائيا

ولا شك أن الحرب مع الرتابلة — وهم الملوك الذين قاوموا العرب أكثر من مائة عام — لم تكن أمراً سهلا ، ولهذا فإنهم كانوا يعدون أخطر أعداء يعقوب لوفرة جندهم وأفيالهم، ولكن يعقوب لم يكن يشعر بالاطمئنان من ناحيتهم وكان يقول « إذا أنا استرحت فإنهم لن يدعونى استريح فى مكانى » ولهذا لم يستقر فى مكان[٣] .

قبل أن يتوجه يعقوب إلى بست قام بالقضاء على فتنة قام بها شخص اسمه « أسدويه » فقتله وعلق رأسه على المشنقه ، ثم خرج إلى بست التى كان صالح قد عاد إليها ، فلما علم صالح بقدوم يعقوب أراد الذهاب إلى « رخج »[٤] التى تقع فى أفغانستان حاليا وكانت مدينة عامرة تقع فى خراسان القديمة ، واستطاع صالح أن يحصل على مساعدة رتبيل ، وتمكن يعقوب من اللحاق بصالح على مقربة من الرخج ودارت بينهما معركة انضم فيها رتبيل إلى صالح مع كثير من الأفيال التى أحضرها .

---

(١) تاريخ الأثير ج ٧ ص ١١٦ خود والرخج .
(٢) زينة المجالس .
(٣) تاريخ سيستان ص ٢٠٥ .
(٤) وردت فى الكتب العربية باسم « رخدو رخود والرخج » .

وقد أبلى أزهر فى هذه المعركة بلاء حسناً وأظهر شجاعة نادرة ، فقد قطع بسيفه خرطوم أحد الأفيال التى هجمت على جيش يعقوب[1] . وكان هذا العمل باعثا على هزيمة جيش صالح فى نهاية الأمر . وكانت قلة عدد الجنود فى جيش يعقوب فى مواجهة رتبيل وأفياله سبباً فى أن واجه يعقوب موقفاً صعباً ، ولكنه فكر فى حيلة إلى أن استطاع قتل رتبيل .

الحرب خدعة :

يبدو أن الأتراك « الدرارى » الذين كانوا يقيمون فى جبال سيستان ويخضعون لرتبيل كانوا يشتركون فى المعركة التى قتل فيها رتبيل الكبير وجميع من كانوا حوله ، وثلاثة من ملوك الأقاليم الذين كان يطلق على كل واحد منهم أيضاً لقب « رتبيل » .

أما كيف قتل رتبيل ، فيقولون أن يعقوب أعد مؤامرة قتل بها رتبيل[2] فقد أرسل إليه رسالة يقول فيها « إننى نادم على ما أقدمت عليه ، وإننى خجل من أبناء السادة فإذا قبلت العذر وأرسلت لى بالأمان والعهد والميثاق ، فإنى أقدم طائعاً وأتنازل عن الملك » . فدخلت هذه الخدعة على رتبيل ، ولكى يبحثا هذا العهد وذلك الميثاق ، فقد انتحيا ناحية بعيدة هو وصالح بن نصر ومعهما نحو مائتين أو ثلاثمائة فارس ، وذهب يعقوب مع نحو هذا العدد ، وقد غدر بهم يعقوب وقتل كل جماعة رتبيل ثم عاد فهجم بجيشه على ملك كابل فقتل منهم ستة آلاف شخص[3] . وقد ذكرت هذه القصة فى صورة أخرى ، وهى أن يعقوب أرسل إلى رتبيل يعرض الصلح وتعيين مكان للاجتماع ، ثم ذهب بجيشه إلى المكان المتفق عليه ، فلما اقترب يعقوب واصطف الفريقان ، أمر يعقوب السيستانيين باخفاء دروعهم تحت ملابسهم ، ووضع سيوفهم تحت آباطهم ، وربطوا الشيلان على سروج الخيل وأدلوها من الخلف كى يتصور جنود رتبيل أنهم لا يحملون سلاحا ، ثم أرسل

---

(٢) تاريخ سيستان، ص ٢٠٥ .

(٣) زين الأخبار ص ٧٠ .

(٤) تاريخ گزيده ، ص ٣٧٤ .

يعقوب شخصاً إلى رتبيل يقول له « إنه جاء لمقابلتك » فجلس رتبيل على عرشه وحملته جماعة كالعادة التى كان يتبعها ملوك كابل والرخج عندما ينتقلون من مكان إلى آخر ، فيجلسون على عرش من الذهب الخالص يحمله إثنا عشر رجلا على أكتافهم[١] . وتقدم يعقوب مع جماعته ببطء حتى أصبح أمام رتبيل فأحنى رأسه ، وعندما فتح جنود كابل الذين كانوا يحيطون بالعرش طريقاً ليعقوب كى يتقدم ويقبل قائم العرش ، وفى هذه اللحظة أشار يعقوب إلى جنوده بالاستعداد للعمل ، فهجم رجاله الشجعان من مهرة المبارزين بالسيوف والذين كانوا يلبسون دروعهم تحت ملابسهم ، وسحب يعقوب رمحه من خلف ظهره وهجم على رتبيل وطعنه فى صدره طعنة نفذت من ظهره ، وسحب السيستانيون الرماح وشهروا السيوف وهجموا على جند رتبيل الذين كانوا يظنون أن يعقوب جاء يعلن طاعته ، فلم يكونوا فى حالة استعداد للقتال ، ثم وجدوا ملكهم قد قتل ، فولوا الادبار ، وتركوا كثيراً من الغنائم التى وقعت فى يد يعقوب . ويقولون أن عدد الجنود الذين رافقوا يعقوب فى مؤامرته هذه كانوا خمسين جنديا فقط[٢] .

رؤوس بشر أحمال سفن :

بعد قتل رتبيل ، أعمل يعقوب وجنوده سيوفهم فى الأعداء فقتلوا ستة آلاف وأسروا ثلاثين ألفاً ، بينهم ابن رتبيل نفسه ، واستولوا على أربعة آلاف حصان غير الجمال والبغال والحمير والأفيال ، وطلب أعوان صالح الأمان من يعقوب[٣] ، أما صالح فقد استطاع الهرب مع خمسة من الفرسان .

أمر يعقوب بقطع رؤوس القتلى ، ووضعها فى قوارب ، وإرسالها إلى سيستان لكى يظهر أهمية نصره هذا ، فحمل أكثر من مائتى قارب رؤوس الأعداء[٤] .

ومن ناحية أخرى أسرع بعض الفرسان فى أثر صالح واستطاعوا القبض عليه نظراً

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ١١٦ .
(٢) زينة المجالس .
(٣) تاريخ سيستان ٢٠٥ .
(٤) نفس المرجع السابق والصفحة .

لأنه كان قد تخلف عن مرافقيه ، فحمله يعقوب مع باقى الأسرى وكل الغنائم إلى سيستان ، ماعدا أفيال الجيش التى قال عنها « أنها ليست ميمونة ، لأن الله ذكر أبرهة مقترنا بالأفيال » ويشير يعقوب بهذا إلى الآية « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ » ولكن الحقيقة هى أن يعقوب أدرك أن المحافظة على هذه الأفيال فى جيشه عبء ثقيل إذ أن أسفاره الطويلة لا تمكنه من الاستفادة من هذا الحيوان ، كما أن جو سيستان لا يساعد على تربية الأفيال .

وتوفى صالح فى سجن يعقوب فى سيستان بعد ١٧ يوما ، وكان ذلك فى شهر المحرم عام ٢٥١ هـ (فبراير عام ٨٦٥ م) .

عبرة الزمان :

يقولون إنه بعد أن فتح يعقوب مدينة بست خرج متنكراً للقيام بجولة فى أنحائها وكان يرافقه أحد كتابه ، ولعله محمد بن وصيف السجزى ، فوصل إلى منطقة عامرة بهما قصر متهدم يبدو أنه كان قصراً واسعاً عظيما ، فذهب إليه وعرف أنه كان لصالح بن نصر وأنه قد تهدم بعد ما أصاب صاحبه ، ورأى فى حجرة الضيوف المجصصة على عقد فوق المدفأة كتابة باللغة العربية التى لم يكن يعرفها فقرأها كاتبه وهز رأسه فسأله يعقوب عن سبب تعجبه هذا ، فأخبره الكاتب إنها تلك الأشعار المكتوبة على الحائط ، وكانت :

صاح الزمان بآل برمك صيحة　　　خروا لصيحته على الأذقان

ويآل طاهر سوف يسمع صيحة　　　غضباً يحل بهم من الرحمن

فأمر يعقوب أن يترجمها ، فترجمها ، ثم قص عليه قصة البرامكة ونكبتهم ، وأضاف أن الناس يئنون من ظلم أسرة الطاهريين ، وهذا الشعر ما هو إلا انعكاس لما فى نفوسهم ، فقال له يعقوب « دون هذين البيتين واحتفظ بهما معك لأننى سأطلبهما منك يوما ما[1] » . فدونهما الكاتب ثم خرجا من تلك الخرائب . وسنرى أن يعقوب سيطلب هذا الشعر من كاتبه فيما بعد .

(١) تاريخ سيستان ، ص ٢٢٠ .

رأس على المشنقة :

فى تلك الأثناء كان عمار الخارجى يجمع جيشه وينظمه للهجوم على يعقوب وإذا به يفاجأ فى « نيشك » إحدى مدن سيستان بحملة من يعقوب فأدبر أغلب جنده وقتل عمار نفسه (٢٥١ هـ) وأحضرت رأس عمار إلى مدينة سيستان ، وعلقت على بوابة « الطعام » فوق شرفة البرج ، وعلقوا جسده مقلوبا على بوابة « آكار » . ووصف بسام كرد ، الذى كان من الخوارج ، ثم رجع عنهم ومال إلى يعقوب ، قتل عمار فى أبيات من الشعر بإشارة وتقليد لمحمد بن وصيف فقال :

كل من لم يكن متهماً فى قلبه نعم لدعوتك
وتبرأ عمر عمار منه لأنه ـ لا شك ـ خالفك
ورأى البلاء فى جسده وروحه وصار فى ضنك
وكما جعل الله مكة حرماً للعرب فهكذا للعجم صيرك
فعاش من صار معك ، وفنى من لم يدخل حرمك[1]

ومنذ ذلك اليوم خلت سيستان نهائياً من الخوارج الذين قامت معهم أغلب معارك يعقوب وكره وفره ، بل إنه جرح فى إحدى معاركه معهم جرحاً جعله على شفا الموت . وقد رأى أحد سفراء الخليفة أثر هذا الجرح ، فقال : « سألت يوماً عن أثر الجرح الذى أصاب جبهة يعقوب ، وترك أثرا شوه وجهه ، فقال إن هذه الضربة التى أصابت وجهى فى إحدى معاركى مع الخوارج كانت من الشدة بحيث جعلتنى ألازم الفراش عشرين يوماً ، كان الطبيب أثناءها يضع فى فمى قصبة يستخدمها لإدخال الغذاء فى فمى قطرة قطرة » . والأعجب من هذا ما يقوله حاجب يعقوب من أنه على الرغم من هذا الجرح ، فإن يعقوب لم يتوان عن التفتيش على الجند ، أو الاشتراك فى الحرب[2] .

عصيان جديد :

فى عام ٢٥٢ هـ قام رجل يدعى « صالح بن حجر » بإعلان العصيان فى الرخج وتحصن

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٥ .
(٢) [illegible]

فى قلعة « كوه تيز » ، ففاجأه يعقوب بالهجوم عليه . وبعد بضعة أيام من القتال ، أدرك صالح أن يعقوب لن يتراجع عنه ، وأنه يزداد فى تضييق الخناق عليه ، فانتحر ، وألقى جنوده بجثته من على برج القلعة ، وطلبوا الأمان لأنفسهم فأمنهم يعقوب واستولى على القلعة ، وحمل جنود صالح بن حجر جثة قائدهم إلى بست ودفنوها هناك .

ومنذ ذلك التاريخ اعترف جيران يعقوب بحكومته ، وسلموا به وله ، وأرسلوا إليه الهدايا ، وكان من بين هذه البلاد مولتان وطبسين وزابلستان والهند ومكران .

وبعد هذه الفتوحات عين يعقوب عمالا من قبله على أراضى داور وبست ، ولما استراح جنده من عناء السفر بعض الوقت ، عزم على فتح هرات[1] .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣٣٨ .

الفصل الحادي عشر

«لايمكن خوض حرب مع هذا الرجل لأن له
جيشا مهولا ، وهو رجل جاد له عـادات
الملوك وطباع الغـزاة»

من أقوال أحد أعداء يعقوب

صوب الشمال والشرق

فتح هراة .

كان حاكم هراة آنذاك هو حسين بن عبد الله بن طاهر ، أحد أفراد أسرة الطاهريين ، فعيّن يعقوب داود بن عبد الله ، أحد العيارين خليفة له في سيستان وتوجه الى هراة .

وتقع هراة فى شمال سيستان ، وكانت مدينة كبيرة لها قلعة حصينة بالإضافة إلى أن المـدينة ذاتهـا تقع فى أحضان الجبل ويخترقها نهر هراة ، والطريق اليها يمر بفراه وسيزار ، وتبلغ المسافة من سيستان إلى هراة نحـــو ٨٠ فرسخا كلها من الرمال [1] .

تحصن حسين بن عبد الله فى قلعة المدينة ، وكانوا فى تلك الأيام يعلنون حالة الطوارىء فى المدن باغلاق جميع أبواب المدينة ، ولا يسمح بالمرور عبرها إلا فى الحالات الضرورية ، كما كانت الخنادق تملاء بالماء ثم يجتمع جنود المدينة وشبابها فى الحصن ، وهو غالبا ما كان قلعة فى وسط المدينة ، وأعلى من سائر مبانيها ، ويملأون خزانات الماء ويخزنون المواد الغذائية التى تـكفى لأشهر أو لسنوات حتى إذا سقطت المدينة فى أيدى الأعداء ، استطاعت هذه

---

(١) معجم البلدان ، ذيل سجستان .

القلعة أن تقاوم لمدة طويلة . وقد استمر حصار القلعة والقتال بين يعقوب وحسين بن عبدالله وقتا طويلا حتى ألقى القبض فى النهاية على حسين .

جندى مخيف لا يهاب القتل :

كان قائد خراسان (كانت خراسان قديما تضم أيضا هرات وجزء من أفغانستان حاليا) هو إبراهيم بن الياس ، وكانت أنباء فتوحات يعقوب قد بلغته ، فذهب إلى بوشنج على رأس جيش كبير لقتال يعقوب ، وكانت بوشنك على مقربة من هرات ، لكنها أصغر منها ، ويحيط بها خندق ولها قلعة حصينة [١] ، فترك يعقوب أخاه على بن الليث مع الأسرى والأسلحة فى هرات ، وأمن الناس كى يلتفوا حوله ، ثم توجه على رأس جيش من خيرة رجاله إلى بوشنج . وكانت حروب يعقوب فى تلك الأيام تمتاز بالسرعة الخاطفة ، وكانت هيبة جنوده قد وقعت فى القلوب مما جعل المقاومة أمامهم لا تجدى .

تقدم إبراهيم بن الياس لقتال يعقوب ، ولكن جيشه تكبد خسائر فادحة ، فاضطر إلى الهرب من الميدان منهزما [٢]، وقصد محمد بن طاهر فى نيسابور ، فلما وصل إلى هناك ذهب مباشرة إلى قصر الأمير وهو على حاله هذه ، ونزل من على صهوة جواده فشرب جرعة ماء ثم قال للأمير محمد بن طاهر « لا يمكن القتال مع هذا الرجل (يعقوب) لأن له جيشا مخيفا، لا يخشى جنوده القتل ويحاربون باندفاع وإقدام ، ولا عمل لهم سوى الضرب بالسيف ، كأنما ولدوا من بطون أمهاتهم محاربون ، وقد اجتمع عليه الخوارج أجمعين ، يطيعون أوامره . فمن الصواب استمالته حتى يمكن بذلك دفع شره وشر الخوارج ، فهو رجل جاد وله عادات الملوك وطباع الغزاة [٣] » . فلما وقف محمد على أحوال يعقوب عن طريق أقرب قواده وأقاربه اليه ، أدرك أنه لا طاقة له بلقاء يعقوب إلا عن طريق السلم ، ولهذا كتب له الكتب وأعد الرسائل وبعث بها مع الرسل إلى سيستان ، ثم كتب له منشورا بولاية حكومة سيستان وكابل

---

(١) حدود العالم ، ص ٩٢ .

(٢) تم فتح هرات وبوشنج سنة ٢٥٢ هـ .

(٣) تاريخ سيستان ص ٢٠٩ .

وكرمان وإقليم فارس ، وأرسله إليه مع بعض الحلم . وكان محمد بن طاهر يريد الانتصار عليه بهذه الحيلة ، وهي منحه حكومة كرمان كي ينتهز فرصة غيابه عن سيستان ويستولي عليها [1] لأنه كان يعتقد أن يعقوب سيتوجه مباشرة إلى كرمان بعد تسلمه منشور ولايته عليها .

وكان يعقوب قد فتح سيستان وكابل قبل ذلك، ولكن محمد بن طاهر كتب إليه بولاية حكومتي كرمان وفارس لأن حاكمي هذين الاقليمين كانا في الواقع قد خرجا عن نفوذ حكومة خراسان قبل ذلك بوقت طويل . وكانا يعينان من قبل دار الخلافة في بغداد . وكأن محمد بن طاهر بهذا الشكل ، قد لعب لعبة سياسية محكمة فقد تصالح مع يعقوب من ناحية وحوله عن خراسان وشغله بصحارى كرمان وفارس من ناحية أخرى ، حيث أرسله ، في الواقع ، وراء سراب .

تسلم يعقوب هذه الكتب والرسائل ، فقرر العودة ،واصطحب معه بعض أفراد الأسرة الطاهرية كأسرى حرب ، فلما وصل إلى سيستان ، كانت أنباء هزيمة الطاهريين قد بلغت للخليفة المعتز ، فكتب إلى يعقوب رسالة يطلب فيها منه أن يطلق سراح هؤلاء الأسرى .

الرجل الذي لم يقبل رسالة الخليفة :

روى ابن بلعم الذي حمل رسالة الخليفة إلى يعقوب قصة لقائه به فقال « حملت هذه الرسالة إلى زرنج (عاصمة سيستان) وطلبت الاذن بمقابلة يعقوب فأذن لي ، ودخلت القصر ، ولكني لم أسلم عليه ، بل جلست أمامه ، وأعطيته الرسالة ، فلما أخـــذها قلت له هذه رسالة أمير المؤمنين فقبلها ، ولكنه لم يفعل » . ويتضح لنا من هذه القصة مدى قدرة سفراء الخليفة وأنانيتهم وما كانوا يتوقعونه من الحكام التابعين للخلافة ، وكيف كانوا يتعاملون معهم . ويبدو أن يعقوب كان أول من ترك عادة تقبيل رسائل الخلفاء .

---

(١) تاريخ گزيده ، ص ٣٧٥ .

ويواصل السفير حديثه فيقول : « وفض يعقوب أختام الرسالة ، وكانت الرهبة قد استولت عليّ من هذا الرجل ، ونسيت أنني مبعوث الخليفة ، وأخذت أتقهقر حتى ذهبت إلى آخر المجلس، ثم قلت « السلام عليك ايها الأمير ورحمة الله ». فلما رأى يعقوب سلوكي هذا وقارنه بتكبري في البداية ، وخضوعي بعد ذلك ، تمالكه العجب . وقد أكرمني بعد ذلك ، ثم استجاب لطلب الخليفة ، وأطلق سراح الأسرى من الطاهريين » [١] .

ولا شك أن سلوك مبعوث الخليفة مع يعقوب يبعث على التعجب ، ويبدو أنه أول أمير لم يسلم على سفير الخليفة ، ولم يقبل رسالته ، ونفذت هيبته إلى قلب السفير بحيث أجبرته على أداء فروض الاحترام له .

ومع أن يعقوب كان رجلا متعصبا لدينه ، فان سلوكه هنا يبدو متعمدا لأنه أدرك أن رسالة الخليفة كانت خاصة بالشفاعة للأسرى الطاهريين ، ولهذا لم يهتم بها ، وإلا فاننا نراه في موقف آخر حينما بعث اليه الخليفة رسالة وهدايا ينزل من على عرشه ويؤدي صلاة شكر لله وقد أصبح عمله هذا سنة اتبعها سائر الأمراء ، كما حدث عندما جاء سفير الخليفة إلى بلاط مسعود الغزنوي ، وقدم له الهدايا فنزل الأمير ، وفرشوا له المصليات ولبس الخلعة ، وصلى ركعتين للشكر ، كما كان يفعل يعقوب بن الليث [٢] .

السفير ضيف على أمير الخيل :

ذكر الرواة قصة عن ضيافة أزهر لسفير من سفراء الخليفة ،أكبر الظن أنه هذا السفير فيقولون « وصل إلى سيستان رسول أمير المؤمنين ، فأنزله يعقوب في سراي أزهر ، فلما جن الليل سأل الرسول أزهر قائلا : « ماهي صلتك بالأمير ؟ »

فقال أزهر « أنا حارس خيله » . ولم يقل شيئا آخر تلك الليلة .

وقد غضب الرسول ، ولكنه كظم غيظه وغضبه ، إذ كيف ينزله يعقوب في منزل

---

(١) تاريخ بيهقي ص٤٧ .

حارس الخيل . وفي اليوم التالي ، أقام يعقوب مأدبة على شرف السفير الذي لاحظ أن مضيفه — أزهر يجلس بجانب يعقوب على صدر المائدة . وبعد فترة من السكوت التفت السفير إلى يعقوب وقال : « كنت غاضبا ، ولكنني أتعجب الآن » .

فقال يعقوب « ولماذا ؟ »

قال السفير : « لقد أنزلتني في قصر حارس خيلك ، وهو الآن يجلس على المائدة بجوارك » . ففطن يعقوب إلى أن أزهر لابد وأن يكون قد مزح معه ، فلم يقل شيئا إلى أن انتهى الطعام ، فأمر بإحضار ثوري صراع إلى ميدان القصر ، ثم تركهما يتصارعان ، فلما تناطحا وجعل كل منهما رأسه في رأس الآخر ، التفت لأزهر وقال له « قم بإبعاد الثورين عن بعضهما البعض » فنهض أزهر وأمسك قرن أحد الثورين بيده وأمسك بالأخرى أحد قرني الثور الآخر ، ووقف بينهما كالجبل وأبقى الثورين بجانبه لا يتناطحان ، ثم قال له يعقوب « اذبح » فأطاح أزهر بأحد الثورين بعيدا حتى كاد يسقط على جانبه ، ثم استل سيفه وضرب الثور الآخر ضربة شطره بها نصفين . فتعجب الرسول . فقال له يعقوب « إذا كان أزهر حارس خيل فإنه برجولته التي رأيتها أصبح ذا حرمة عظيمة ، ولا بد لي من إجلاسه على مائدتي ، لأن مثل هذا الرجل ينفع ، وأما إذا كنت أنزلتك في قصره ، فذلك احتراماً لك لأنه ابن عمي وليس حارساً ، ولكنه اعتاد أن يقول أشياء تبدو غير معقولة ، ولكني أعرف أنه ذكي » .

وقد سر الرسول ، وشكر يعقوب[1] .

بعد هذا كتب يعقوب رده على كتاب المعتز ، وأرسل له هدايا من غنائم حربه الأخيرة من بينها مصلى من الفضة تتسع لخمسة عشر شخصاً يؤدون بها الصلاة ، كما قبل يعقوب في رسالته أن يدفع للخليفة ١٥ ألف ألف درهم سنوياً (١٥ مليوناً) كخراج إذا قبل الخليفة استدعاء والي كرمان « علي بن حسين بن شبل قريش » ، من كرمان .

وبعد هذا الاستقبال جد يعقوب في تنظيم أمور المدينة الداخلية ، ثم أخذ يجمع جيشه ويدربه ويجهزه بالسلاح والعتاد لحملة حربية عظيمة ، هي الحملة على كرمان .

---

(١) تاريخ سيستان ، بتصرف ص ٢٧٢ .

الفصل الثاني عشر

أنت معجزة الرسول المكى
فى الفعل والفكر الذكى والقول
وسيفخر عمار يوم القيامة
ويقول أنا الذى سفك يعقوب دماءه
(أحمد بن مخلد فى مدح يعقوب)

تنظيم الشئون الاجتماعية للمدينة :

اطمأن يعقوب من ناحية الشرق والشمال الشرقى بعد أن تم له فتح زرنج وكابل وقندهار وهرات وبست ، فجعل زرنج عاصمة له ثم شرع ينظم شئون المدينة قبل أن ينشغل بالمناطق الغربية والشمالية الغربية ، أى بكرمان وخراسان .

مدينة زرنج :

لم يبق من مدينة زرنج التى كانت عاصمة لأقليم سيستان منذ نحو ١١٠٠ عام أية آثار تدل عليها ، خاصة وأن نهر هيرمند غير مجراه عدة مرات على مر السنين ، ولا يمكن التأكد أيا من خرائب سيستان الحالية كانت مدينة زرنج . فيوجد حول مدينة زابل عاصمة سيستان الحالية — والتى كانت حتى عام ١٩٣٦ تسمى نصرت آباد والتى يبلغ عدد سكانها نحو ١٢ ألف شخص — بعض الآثار التى يطلق على كل منها اسم ما ، وأهم هذه الآثار :

قلعة رستم : على بعد عشرة فراسخ من زابل ، ويبدو من بقايا خرائبها أنها

هجرت منذ نحو ٤٠٠ أو ٥٠٠ عام ، وأن تغيير مجرى نهر هيرمند كثيرا سبب خراب هذه المدينة .

شهر سوخته : على بعد فرسخ من قلعة رستم ، وقبل الوصول إلى طريق زابل توجد بعض التلال التي لا يزيد ارتفاعها عن خمسين مترا ، ويطلق على هذا المكان اسم المدينة المحترقة . ويوجد على هذه التلال كثير من الفخار المكسور القديم ، وإذا حفرنا قليلا نصل إلى بقايا خشب محترق وآثار حريق . ولذا فإن الاسم الذي أطلق على هذا المكان ليس غريبا عليه .

وتقع المدينة المحترقه على طريق زاهدان إلى زابل وعند انشعاب الطريق إلى فرعين ، يذهب أحدهما إلى مشهد والآخر إلى زابل . ويمكن أن نرجع تاريخ هذه المدينة إلى ٣٥٠٠ أو ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد .

جبل خواجه : تعتبر بقايا جبل خواجه من الآثار التاريخية الهامة في سيستان ، وتقع هذه التبة على بعد نحو عشرة فراسخ من زابل وفي وسط بحيرة هامون تماما ، وتحيط بها أحراش البوص المعروفة بتلك البحيرة ، ولكي نصل إلى هذه التبة فلا بد من ركوب قارب من القوارب التي يستعملها أهل سيستان ، والمصنوعة من البوص وتسمى في اللهجة المحليه « توتين » وهي من توت بمعنى البوص ، وتدفع هذه القوارب بعذراة صغيرة وسط البوص ، ومياه مستنقعات هامون تفيض وتنقص على مدار العام وتبلغ أقصى فيضانها في الربيع ، ويحدث أحيانا أن يطغى الماء على الأراضي المحيطة بالبحيرة مسافة أربعة أو خمسة فراسخ .

وارتفاع جبل خواجة ليس واحدا في كل أجزائه ، ولكن أقصى ارتفاع له يبلغ ٩٠٠ متر . وكله مغطى بالصخور وله طريق من ناحية الجنوب ، هو الذي كان يستخدم قديما في

الصعود إلى قمته ، وتوجد على هذا الجبل أربعة خرائب ، لازالت إحداها موضع احترام أهل سيستان ومحل زيارتهم ونذورهم ، وتوجد فى وسط إحدى هذه الخرائب قلعة قديمة .

قلعة دختر : البناء الثانى فى هذا الجبل يسمى (كوك كهزاد) أو (تخت رستم) ، ويجوز أنه كان بيتا للنار . والبناء الثالث الذى يقع فى الجزء الجنوبى من الجبل يسمى (كوچك گل كنجة) مبنى من اللبن . ولما كانوا يطلقون فى سيستان كلمة (گنجه) على البنت ، فإننى أميل إلى الاعتقاد بأن هذا المكان كان معبدا لناهيد (أناهيتا) لأنه من نوع سائر القلاع والأبنية التى كانت تعد من معابدها .

البناء الرابع هو ضريح الشيخ غلطان ، الذى مازال موضع احترام الناس وتقديسهم ويذبحون له كل عام الذبائح . كما أن ضريح (پير گندم بريان)[1] يوجد على هذه التبة أيضاً ، ويقصده أهل سيستان فى الأسبوع الأول من السنة الهجرية الشمسية ناذرين له القمح المشوى .

ويحتمل أن اسم (أوشيدا) الذى جاء فى الأفستا اسما لأحد الجبال ، كان اسما لهذا المكان ، لأن أحجار بيت النار التى أخذت من معبد نار هذا الجبل مشابهة لأحجار بيت نار (آبادانا) فى شوش الذى يقال إنه من أيام الهخامنشيين .

أما باقى الآثار التى عثر عليها فى هذا الجبل فأكثرها يرجع إلى السكان الذين جاءوا إلى هذه الناحية حوالى القرن الثانى الميلادى ، ويجوز أن اسم سيستان أطلق على هذه البلاد منذ ذلك الحين ، وأنه حل رويدا رويدا محل اسم زرنج الذى جاء فى نقوش داريوش أو (درنكيانا) فى كتب اليونانيين ، مع أن اسم زرنج وزرنك ظل يطلق لسنوات بعد الإسلام على عاصمة سيستان أو سجستان أو سكستان .

---

(١) كندم بريان بمعنى القمح المشوى وپير بمعنى الشيخ .

وأميل إلى الاعتقاد كثيراً بأن المقصود من (اسبند كوه)الذى ورد فى الشاهنامه أى الجبل المقدس ، هو جبل خواجه هذا ، ويقول عنه الفردوسي :

اعقد العزم للانتقام لدم نريمان واذهب عاديا حتى جبل البخور .

وقال أسدى الطوسي فى گرشاسب نامه :

كانت هناك مدينة وراء جبل البخور اجتمع فيها كثير من قطاع الطريق .

بالاضافة إلى ماذكرناه فإنه توجد بقايا مناطق كانت مسكونة ، مثل (تپة شيخ على) غرب زابل وآثار (تخت شاه) على بعد ١٠ فراسخ من زابل وعلى حدود أفغانستان ، ويطلق عليها الناس (عاصمة يعقوب) .

ولم يبق اليوم أى أثر لمدينة زرنج عاصمة سيستان القديمة ، المدينة التى وصفت بأنها مدينة ذات قلعة يحيط بها خندق وتشقها أنهار ، وبداخل منازلها مياه جارية ، ولها خمسة أبواب من الحديد ، ولها مربض له ١٣ باباً ، وهى مدينة حارة لا يسقط بها جليد[١] ، ويعتقد البعض أن عاصمة سيستان القديمة هى القرية المعروفة اليوم باسم (شهرستان) . وهناك رواية تقول إن عاصمة سيستان قبل زرنج كان يطلق عليها اسم (رام شهرستان)[٢] ، وكما قلنا فلعل تغيير مسير هيرمند أو لعل فيضانه قد أدى إلى خراب المدن والقرى القديمة فى تلك الناحية ، ولم يبق اليوم أى أثر لأى عاصمة من عواصم سيستان القديمة ، وقد تكشف الحفريات عن كثير من هذه التكهنات .

وفى القصص المحلية التى يرويها أهل سيستان ، أسطورة عن خراب إحدى العواصم

---

(١) حدود العالم ، ص ١٠٢ .
(٢) معجم البلدان ، ذيل سجستان .

وهى المعروفة اليوم باسم (خرائب سابور شاه) وتقع شمال جبل خواجه تحت مياه بحيرة هامون، وتظهر بعض بقاياها كلما انخفض الماء فى البحيرة . وتقول الأسطورة إن صهر سابور كان يعيش فى مدينة شهرستان – إحدى مدن سيستان – فقالت ابنة سابور يوما لطفلها « عندما تذهب إلى جدك (يبدو أنه كان يعيش فى أعالى نهر هيرمند) فلا تقبل كل ما يظهره نحوك من عطف ، وطلب منه أن يضاعف نصيبنامن ماء هيرمند، وهو حاليا نصف طوبة » . فلما طلب هذا الطالب من جده استجاب له فطغى الماء على المدينة وأغرقها [1] .

ومع أن هذه القصة لا تعدو أن تكون إحدى الأساطير المحلية الا أنها ، بغير شك ، تحمل شيئا من الحقيقة وهو أن خرائب سابور شاه بقايا مدينة غمرها الماء نتيجة فيضان نهر هيرمند ، أو انهيار الجسور والسدود فى أعالى النهر ، كما أن الأشارة الثانية فى هذه الأسطورة ، هى أن ماء هيرمند كان يقسم فى جزئه الأعلى طبقا لنظم معينة ومقاييس معروفة جاءت فى هذه الأسطورة على أنها كانت تقدر بالطوبة (قالب الآجر).

ويعتقد المؤرخون اليوم أن زرنج عاصمة سيستان كانت فى صدر الإسلام وفى عصر يعقوب وخلفائه تقع على الضفة الشرقية لبحيرة هامون ،وهذا يقارب المكان المعرف محليا باسم « عاصمة يعقوب » .

على أية حال فإن يعقوب شرع فى إصلاح أمور المدينة بعد الفراغ من غزواته فى الشرق والمناطق المحيطة بعاصمته .

إعادة صلاة الجمعة :

كانت صلاة الجمعة قد توقفت منذ بداية الاضطرابات فى سيستان ، أى منذ بداية

---

(١) مجلة « يغما » ، السنة السابعة ، ١٠٥٤٠ .

ظهور يعقوب ، لأن رجال الدين لم يجدوا من يقرأون باسمه الخطبة لكثرة تغيير الحكام . وانتهى بهم التفكير إلى الامتناع عن الذهاب إلى المساجد ، كما أن يعقوب وافق على ألا تعقد اجتماعات عامة فى سيستان قبل أن تعود الحياة إلى طبيعتها ، ولهذا فإنه بعد أن حصل يعقوب على منشور حكومات سيستان وكرمان وهرات ، وبعد تثبيت ركائز حكومته كتب — وهو مازال فى هرات — إلى عثمان بن عفان ، كبير علماء الدين فى سيستان ، بتعيينه إماما وأمره باقامة الصلاة وقراءة الخطبة باسم يعقوب نفسه . وقد صلى عثمان بن عفان ثلاث جمع قبل أن يعود يعقوب من هرات .

وكانت إقامة صلاة الجمعة بعد تركها مدة طويلة إعلاناً لعودة الحياة الطبيعية إلى المدينة وإلغاء الحكومة العسكرية وانتهاء فترة الاضطرابات والثورات .

وكان عثمان موضع تقدير يعقوب واحترامه إذ كان يعدنفسه من مريديه ـ وهناك قصة عن تعلق يعقوب بهذا الشيخ إلى حد أنه كان يعتبر مقامه ومنزلته أعلى من مقام ومنزلة الخلفاء وأئمة صدر الإسلام، فيقولون إن أبا يوسف يعقوب بن سفيان كان يطعن فى عثمان ابن عفان هذا ؛ فأمر يعقوب بن الليث باحضار أبى يوسف كى يعاقبه ، فقال له وزيره « أيها الأمير ، إنه لا يطعن فى شيخك عثمان بن عفان السجزى ، ولكنه يتحدث عن عثمان بن عفان الصحابى » فقال يعقوب « اتركوه فلا شأن لنا بالصحابة » [١] .

مدح الشعراء :

بعد هزيمة عمار الخارجى وعودة يعقوب إلى سيستان ، توافدت كل الطبقات لتهنئته

---

(١) مجالس المؤمنين ص ٢٩٦ .

وجاء شعراء المدينة كالعادة ، ينشدون أشعارهم ومدائحهم ، وكان من بينهم شاعر قرأ هذه القطعة على الحاضرين :

قد أكرم الله أهل المصر والبلد　　بملك يعقوب ذى الأفضال والعدد

قد أمن الناس نحواه وعزته　　ستر من الله فى الأمصار والبلد

وكان يعقوب رجلا صريحا ، ولذا كان رده على هذا الشعر لافتاً للأنظار ، فيعقوب كما نعلم لم يذهب إلى كتاب ، ولم يدخل مدرسة ، بل تربى فى دكان أبيه الصفار فى سوق سيستان ، ولم يسمع غير صوت المطارق وسندان الحدادين ، ولم ير غير الدخان ونيران النحاسين ، وأدت شجاعته وحوادث الدهر إلى وصوله إلى هذا المركز الذى رأيناه ، وجعلت هذا الطفل يصل من الحضيض إلى القمة ، ولهذا لم يكن يعرف اللغة العربية التى كانت رائجة فى ذلك الوقت ، وكان الأعيان والأشراف يدفعون أبناءهم إلى تعلمها .

لهذا ، فعندما انتهى الشاعر من إلقاء قصيدته ، لم يكن يعقوب قد فهم شيئا منها ، فانتهز هذه الفرصة — بما كان لديه من حقد على العرب ، وبدافع من الوطنية — لكى يضرب ضربة قاصمة لنفوذ العرب المعنوى أمام هذا الجمع . ولهذا التفت إلى كاتبه محمد وصيف وقال له بصوت عال : « لماذا يقال ما لا أفهم » ؟ (١)

وهذه جملة من أقوال يعقوب التاريخية الحاسمة ، فقد ذكر أنه لا يفهم اللغة العربية ، فما هو الباعث على أن يكون الشعر والحديث والمكاتبات باللغة العربية ؟

ومنذ تلك اللحظة تدبرت الدوائر وكتاب ديوانه الأمر وأنشأ محمد بن وصيف ،

(١) هذا التفسير أكثر مما يحتمله النص ولم يقصده يعقوب — رجع لمقدمة المترجم

الذى كان كاتبا فاضلا ، وذا طبع شاعرى ، أول شعر فارسى ، وكان أول شعر فارسى فى العجم [1] ، وإن كان اول شعر فارسى ينسبه البعض إلى حنظلة البادغيسى ، وينسبه آخرون إلى عصر بهرام جور .

على أية حال ، فقد قرأ محمد بن وصيف الشعر الذى كان قد أنشأه فى تهنئة يعقوب بمنحه منشور الولاية ،وفتحه لمدينة هرات، وقتله لرتبيل وعمار الخارجى ، ومع أنه وصلنا بصورة فيها شىء من الغلط الا أننا ننقله كما هو :

أيها الأمير الذى يخضع له كل أمراء العالم ، الخاصة والعامة جميعا

عبيد له وأسرى ومـوالى وخـدام

لقـد كتب فى اللوح منذ الأزل أنك ستمنح حظـا بالملك

لأبى يوسف يعقوب بن الليث الهمام

وجاء رتبيل إلى الحرب فهزم شر هزيمـــة

وتمزق جيشه وأصبح هباء وحطام

أيها الأمير ، لقد قرأت آيـة « لمن الملك » بإيمـان

فانتصرت بفئة قليلة على هذا الجيش الجرار

وقـد أرادك عمر عمـــار حينما تبرأ منه

وأصبح سيفك وسيطا بين الضوارى والأنام

---

(١) تاريخ سيستان ص ٢١٠ .

وقد أضيف عمر عمار لك ، فمش مثل نوح

لأن جسده فى (آكار) ورأسه على (باب الطعام) (١)

وقال محمد بن مخلد — وهو شاعر آخر — شعرا فى هذا المعنى ترجمته :

لم تلد حواء ولم ينجب آدم الاك   طباع الأسد وجرأته من سجاياك

وأنت معجزة الرسول المكى   فى الفعل والقول والفكر الذكى

وسيفخر عمار يوم القيامة   ويقول أنا الذى سفك يعقوب دماءه

ومن الجدير بالملاحظة أن شعار النبي زردشت وهو « الفكر الطيب والقول الطيب والعمل الطيب » قد ورد هنا بنصه فى شعر ابن مخلد ، ولكنه نسب إلى الرسول المكى . وهذا يبين أن عقائد الدين الزرد شتى كانت لا زالت حتى تلك الايام تتردد فى أفواه الناس فى بعض أنحاء سيستان ، ويثبت أن قوانين ومبادىء زردشت كانت مسيطرة على أفكار الناس ، ويمكن أن تعد هذه العوامل مصدرا من مصادر تعصب يعقوب ضد الخليفة وسعيه المحافظة على السنن الوطنية . ويجوز أيضا أن يكون الشاعر قد أورد هذا الشعار الدينى الإيرانى لجلب الرضا وبعث السرور فى النفس .

وكان يعقوب يهتم اهتماما خاصا باللغة الفارسية ، فكانوا يتحدثون فى ديوانه باللغة الفارسية ويكتبون رسائلهم بها ، وكان يصر على هذا الأجراء ، ويحكى أن رسولا من بغداد وصل إلى سيستان ودخل عند الغروب إلى بلاط يعقوب ، (لعله ابن بلعم الذى سبقت الاشارة اليه) فخف أزهر ابن عم يعقوب — وهو معروف بمزاحه ونوادره — للقائه ، ولكى يعبر لرسول الخليفة عن احترامه وترحيبه خاطبه بلهجة عربية ركيكة قائلا (صبحكم الله بالخير) ، مع أن الوقت كان قرب الغروب ، كما قلنا . . . .

---

(١) آكار وطعام ، بابان من أبواب مدينة بست .

ومع أن يعقوب لم يكن يعرف العربية ، إلا أنه أدرك ان أزهر قد أخطأ لأن الوقت كان وقت الغروب ، وكان يجب أن يقول (مساكم الله بالخير) وليس (صبحكم بالخير)، ولهذا سأل يعقوب ابن عمه عن الباعث على هذا الكلام أمام رجل عربى . فقال أزهر « لا تحاول أن تمسك على خطأ ، فقد أردت أن يعلم هذا الرسول أن فى بلاطك واحداً على الأقل يمكنه ان يتحدث باللغة العربية [١] . »

أما فيما يتعلق باهتمام يعقوب باللغة الفارسية ، فان أحسن دليل عليه هو ظهور أول شعراء اللغة الفاسية فى بلاطه ، وهناك إشارات فى كتاب (مجالس المؤمنين) عن اهتمامه بتاريخ إيران القديم ، وكتاب خداى نامه والشاهنامه . ويذكرون ما يمكن أن نستنتج منه ان يعقوب فكر فى كتاب خداى نامه ، وهو تاريخ إيران القديم ، ثم تبعه بعد ذلك أبو منصور عبد الرزاق ، ونحن ننقل هنا نص ما ذكره صاحب مجالس المؤمنين :

« من آثاره (يعقوب) ترجمة تاريخ ملوك العجم . فحينما وقع هذا الكتاب الذى كان فى قصر يزدجرد آخر ملوك العجم ، فى أيدى المسلمين ، صار من نصيب أهل الحبشة عند تقسيم الغنائم على الجيوش ، فقام جند الحبشة بارساله هدية إلى ملكهم الذى أمر بترجمته ، فلما ترجموه له سر من قراءته وارتاح إليه كثيرا ، وانتشر فى أكثر بلاد الحبشة ، وحمل من هناك إلى الدكن وسائر ممالك الهند ، وانتشر هناك أيضاً ، فلما صارت الإمارة ليعقوب بن الليث ، أرسل شخصا إلى الهند وأحضر تلك النسخة .

وقد أمر ابو منصور عبد الرزاق بن عبد الله فرخ [٢] الذى كان معتمد الملك بنقل ما ذكره العلماء والدهاقين من اللغة البهلوية إلى الفارسية ، وان يلحقوا به كل ما حدث منذ أواخر عصر خسرو برويز حتى نهاية أمر الملك يزدجرد .

---

(١) جند مقاله تاريخى وأدبى .

(٢) كان حاكما على خراسان سنة ٣٣٥ أى بعد ٧٠ عاما على وفاة يعقوب .

بعد ذلك أمر أبو منصور عبد الرزاق الكليد دار فى عام ٣٦٠ هـ (٩٧٠ م) ، سعد ابن منصور العمرى بإتمام هذه النسخة ، فأتمها بمعونة أربعة آخرين هم تاج بن خراسانى من هرات ، ويزدان بن سابور من سيستان ، وماهو بن خورشيد من نيسابور ، وسليمان بن برزين من طوس . وقد أخذت نسخ منها إلى خراسان والعراق . ولما آلت دولة آل يعقوب إلى آل سامان ، اهتموا بقراءة هذا الكتاب [1] .

ويستنتج من هذه الرواية أن يعقوب أحضر أصل هذا الكتاب من الهند [2] ، ثم شرع الدقيقى الشاعر فى نظمه شعرا ، وأمر ابو منصور بترجمته ، وأخيرا نظمه الفردوسى. أما سبب اهتمام يعقوب بهذا الموضوع فهو — إلى جانب الأسباب الوطنية وتقديس إيران ، وعلاقته باللغة الفارسية — فهو الفخر بالأجداد لأن يعقوب كان يعتبر نفسه من أولاد أنوشيروان ، ولهذا كان يريد احياء نسبه لأن بعض الروايات تقول إنه بعد استئصال العجم ذهب ولدان من أبناء أنوشيروان هما كيخسرو وهامان إلى دز فول واستقرا هناك فى ظل حماية احد العظماء إلى ان مضى قرنان او ثلاثة ، إلى ان علم بعض العرب بهذا الأمر ، فأسرع أولاد هامان صوب دار المرز ، وذهب اولاد كيخسرو إلى قلعة هفتواد المعروفة فى بم كرمان، واختار الليث ناحية من نواحى سيستان ، والليث هذا هو ابو يعقوب .

---

(١) مجالس المؤمنين ص ٦١ .

(٢) مقدمة أديب الممالك على الشاهنامه ص ٧ .

الفصل الثالث عشر

« لقد قمنا تدفعنا عقيدة طيبة وهى ألا ندع سيستان تقع فى يد أحد ، فإذا نصرنا الله تعالى فإننا سنضيف إلى ولاية سيستان مانستطيع إضافته إليها »

« من أقوال يعقوب »

فتح كرمان ، قدم بقدم على طريق الإسكندر :

قلنا إن محمد بن طاهر كتب منشور ولايتى فارس وكرمان باسم يعقوب ، وكان الباعث على إصدار هذا المنشور ، على مايبدو ، هو الخلاف الذى كان بين محمد بن طاهر وحاكم كرمان آنذاك .

كان حاكم إقليم فارس من قبل الخليفة المعتز فى ذلك الوقت هو على بن حسين بن شبل قريش ، وكان هذا الحاكم يريد أن تنضم اليه ولاية كرمان أيضاً . ولهذا ، فإنه بعد أن بلغه ضعف الطاهريين وتزايد قوة يعقوب ، أرسل إلى الخليفة كتابا أشار فيه إلى أن الطاهريين قد ضعفوا ، وأن يعقوب بسط نفوذه على سيستان ، ولذا أصبح من الصعب على الطاهريين جمع خراج كرمان[١] .

وقد أراد على بن حسين بكتابه هذا أن يوكل اليه الخليفة أمر جمع خراج كرمان

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ، ج ٧ ص ٥٢٠ .

وإرساله اليه ، ولكن يلاحظ — من الناحية الأخرى كما ذكر الرواة — أن على ابن حسين نفسه لم يكن على وفاق تام مع الخليفة[١]، وهذا ما جعل الخليفة يتخوف منه أيضاً. ولعل هذه المخاوف كانت من الأسباب التى دفعت محمد بن طاهر إلى كتابة منشور ولاية كرمان باسم يعقوب بن الليث . ولهذا فان الخليفة بعد أن اطلع على كتاب عامله فى خراسان — محمد بن طاهر — بمنح ولاية كرمان ليعقوب ، رأى من الصواب أن يؤيد هذا القرار ولكنه كان قد أعطى وعدا لعلى بن حسين بشأن خراج كرمان ، ومع هذا ، فلم ير حاجة للرجوع فى أحد هذين القرارين . وكانت هذه الطريقة — وهى إعطاء ولاية إحدى الجهات لشخصين — إحدى وسائل الخلفاء السياسية للافادة من الحروب التى تقع بينهما لصالحهم. ولهذا كتب الخليفة كتابا ثانيا إلى يعقوب منحه فيه ولاية كرمان رسميا ، وكان هدفه من هذا اضعاف كل من على بن حسين ويعقوب بن الليث ، لأن على بن حسين كان قد تلكأ فى إرسال خراج فارس فى ذلك الوقت[٢] . وقد رأى الخليفة أن ضعف أى واحد من هذين الشخصين سيكون فى صالحه هو .

سبق أن ذكرنا أن يعقوب تعهد فى رسالة بعث بها إلى الخليفة أن يرسل خراج كرمان وفارس ، وهذا يدلنا على أن حاكم كرمان كان قد قصر فى إرسال خراج ولايته ولعله أيضاً كان قد أعلن العصيان ، بل لعله كان يفكر فى غزو سيستان أيضاً . ولهذا رأى يعقوب أنه إذا ذهب إلى خراسان ، فإن جيش كرمان سيفاجئه من الخلف[٣] . ولعل هذا من الأسباب التى دفعته إلى غزو كرمان .

على أية حال فان يعقوب رتب أمور العاصمة والأقاليم ، وعين أحد قواده الأوفياء العيارين وهو « عزيز بن عبد الله » ليخلفه على سيستان ، وأعطاه جميع الصلاحيات ،

---

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) الكامل جـ ٧ ص ٦٧ .

(٣) تاريخ گزيده ، ص ٣٧٥ .

ثم قاد جيشه متجها ناحية الغرب صوب كرمان وكانت حركته فى ذى الحجة عام ٢٥٤هـ (ديسمبر ٨٦٧م) .

وذات صباح استيقظ أهل كرمان ليجدوا ثلاثة أحكام صادرة من الخليفة بولاية كرمان أحدها لعلى بن حسين بن شبل قريش ، والثانى ليعقوب بن الليث ، وأهمها لمحمد بن طاهر الوالى الأصلى فى خراسان .

فى صحراء لاعمران فيها ولا ماء :

لم تكن هذه الحملة تشبه حملات يعقوب السابقة،لأن حملاته فى النواحى الشرقية والشمالية كانت فى مناطق عامرة محيطة بنهر هيرمند ، وكان يعقوب وجنوده على معرفة تامة بها،ولكن حملته هذه المرة كانت إلى ناحية لم تكن فى يوم من الأيام فى طريق جيشه ، وتختلف عنها كل الاختلاف إذ كان عليه أن يقطع نحو ٨٠ فرسخا إلى بم ، ثم ٥٠ فرسخاً أخرى من بم إلى كرمان فى طريق غير معبدة (أصبحت اليوم بعد أن رصفت ١٠٢ فرسخا فقط .)

وهذا الطريق فى صحراء (مساحتها نحو ٣٢٤٠٠ كيلو متر مربع) يحدث كثيراً ألا يرى الانسان فيها أى أثر للعمران فى مساحات تبلغ ثلاثين فرسخا . ولهذا كان عبورها محفوفاً بالمصاعب والمخاطر الشديدة ، إذ لم تكن قد وضعت فيها أية علامات للطريق (بعد نحو مائتى عام من مرور يعقوب ، قام أحد سلاطين سلاجقة كرمان ، وهو قاورد بوضع علامات يتراوح ارتفاعها بين ٣٠ و ٤٠ ذراعا ، ولازالت إحداها باقية حتى اليوم على مقربة من فهرج وتعرف باسم علامة نادرى)[١] .

ولما كانت الريح تحرك الرمال فى هذه الصحراء من مكان إلى مكان بصفة مستمرة ، فإنه لا يوجد طريق معينة للسير فيها ، ولهذا لا يستطيع الاستدلال على الطريق إلا بعض الأدلاء أو من لهم دراية بالنجوم حيث يستدلون بها على طريقهم أثناء الليل،وهؤلاء الأدلاء يتولون قيادة القوافل عند السير فى الليل .

---

(١) سلجوقيان وغز در كرمان ، مقدمة ص ٨٩ ومتن ص ١١ .

والصعوبة الأخرى كانت صعوبة تأمين مياه الشرب والطعام والعلف فى هذه الطريق فيذكر التاريخ أنه قبل يعقوب بنحو ألف عام دفن ثلاثون ألف جندى من جنود الاسكندر تحت رمال هذا الطريق وهم جوعى وعطشى[1].

وكان يمكن توفير جزء من احتياجات الجيش عن طريق قرب كبيرة للماء تحملها الجمال والأبقار ، كما كان ركاب الجمال السريعة يستطيعون قطع هذه الصحراء فى أسرع وقت ، وكان هناك حل آخر وهو إرسال بعض حفارى الآبار أمام الجيش لكى يحفروا فى كل أرض يرونها مناسبة ، آباراً عميقة قد توفر بعض الماء العذب أو المالح ليستفيد منها الجيش عند وصوله إليها . وقد لجأ الاسكندر إلى هذه الوسيلة قبل هذا[2] . وكانت هذه الطريقة مستخدمة إلى عهد قريب فى حملات القاجاريين على بلوشستان ، وكثيراً ما يحدث أن تحفر الآبار فلا تصل إلى الماء .

ولا يمكن عبور هذه الصحراء إلا فى الليل ، حين يكون الجو ألطف فلا يتعرض المسافر للرياح المحرقة ، كما أن رؤية النجوم تسهل الاستدلال على الطريق .

وكان الطريق من سيستان إلى كرمان مقوسا ، فكان يجب على المسافر أن يتوجه إلى الجنوب للعبور من « ملك سياه كوه » و « شوره كز » ، ثم يسير إلى الغرب والشمال الغربى مكونا ما يشبه نصف دائرة لكى يصل إلى بم ثم كرمان . ويوجد طريق آخر هو طريق « ميان بر » ، ولكن نظراً لأنه يمر من « لوت زنكى أحمد » ولا يوجد به حتى مدينة خبيص (شهداد) أى نوع من العمران فإن عبوره يعتبر صعبا بل مستحيلا ليس فى الماضى فقط ، بل واليوم أيضاً ، خصوصاً بالنسبة للجيوش .

ومع هذا ، فإن سلوك طريق « ملك سياه كوه » و « شوره كز » وكثبان الرمال التى

---

(١) ايران باستان ، ص ١٧٦١ .

(٢) ايران باستان ، ص ١٨٦١ .

تعترضه يعتبر عملا فى غاية الصعوبة . ويمر هذا الطريق من فهرج « بهره » و « ريگان »ثم ينتهى إلى بم . والمسافة من سيستان إلى فهرج أكثر من ٥٠ فرسخا ، وتهب على هذا الطريق رياح محملة بالأتربة ، تجعل الرؤية أحياناً تكاد تنعدم .

ومن فهرج إلى كرمان نحو ٢٠ منزلا ، ولا بد من المرور على « كوچ كردان» ووادى « كشكى » وجبل « هزار » ووادى النزال « بزمان » وبزهو وجاء ملك وريگان ثم ينتهى إلى بم . ولا يرى فى هذه الصحراء – خصوصاً فى أيام الصيف — أى طائر لأنه لا توجد بها أية وسيلة لحصوله على طعامه ، كما أنه لا يمكنه أن يبيض هناك لأن بيضه سوف يشوى تحت حرارة الشمس قبل أن يفقس . وإذا مات جمل أو حيوان فى هذه الصحراء فإن عينيه تبقيان تنظران إلى الفلاة لأنه لن يصل إليه أى حيوان أو طائر ليخرج عينيه من رأسه التى تبقى حتى يدفن تحت الرمال.

ولا توجد فى هذه الصحراء أية نباتات ، سوى فى بعض الأماكن المعروفة حيث توجد شجيرات الطرفا « كز » وهى من النباتات الخاصة بتلك الصحراء المالحة . و« شوره كز » و « كزك » ليستا الا تركيبا من اسم هذه الشجيرة وتلك الأرض . وهما واحتان صغيرتان فى وسط ذلك الطريق .

فى قلعة بم :

تم عبور يعقوب للصحراء بين سيستان وبم بعد كثير من المشقة والعناء ، فلما صار على أطراف بم سمع أن اسماعيل بن موسى قد استعد لمقاومته ، وكان اسماعيل بن موسى هذا أحد رؤساء فرق الخوارج الذين خرجوا متفرقين من سيستان واجتمعوا فى بم ، ثم بايعوا إسماعيل لرئاستهم وقامت لهم هناك دولة وسلطان .

وكان لبم قلعة حصينة مستحكمة اتخذها الخوارج مركزا لهم ، ولازالت هذه القلعة قائمة حتى اليوم وتعرف باسم « حصن بم » وتعد من عجائب قلاع الدنيا ، وتقع على قمة جبل

مرتفع ، ولها برج عظيم وساحة واسعة وتضم سوقاوحماماًومسجداًوكل مرافق الحياة الأخرى كما توجد بها بئر عميقة مربعة الشكل يبدو أنها كانت لامداد القلعة بالماء . وهذه هى نفس القلعة التي قاوم فيها هفتواد — حاكم كرمان الأسطورى — هجوم أردشير بابكان ، ولم يستطع أردشير أن يستولى عليها إلا عن طريق المكر والخديعة . وكان من يستولى على هذه القلعة فى تلك الأيام يستطيع أن يتحكم فى المناطق الشرقية والجنوبية والشرقية من كرمان ، أى من بلوشستان إلى السند . وهى تعد فى الواقع بوابة الدفاع عن بلوشستان . وظلت هذه القلعة مستخدمة حتى العصر القاجارى ، ولا زالت بقاياها موجودة للآن .

دارت المعركة بين قوات يعقوب وقوات إسماعيل ، وكانت شديدة ضارية حيث قاتل جنود يعقوب كجنود « وهرز الديلمى » (*) لأنه كان وراءهم بحر من الرمال وأمامهم سيوف الخوارج ، ولم يكن أمامهم مفر من القتال حتى النصر . وقد وقع إسماعيل بن موسى أسيراً فى قبضة يعقوب ، وقتل كثير من جنوده [١] ، وبهذا طهرت منطقة بم من الأعداء ، وتفرق شمل من كان هناك من الخوارج . وقد عين يعقوب حاكما من قبله على بم ثم أسرع صوب كرمان التى تبعد عن بم نحو ٤٠ فرسخا ، ولكن الطريق إليها يمر فى مناطق أكثر عمراناً ، إذ تقع عليه سبعة منازل هى : بم ، بيدران ، دارزين ، تهرود ، راين ، ماهان ثم كرمان . وهناك قطعة من الشعر المحلى تضمنت هذه المنازل تقول :

أنا ليلة فى بم ، وليلة فى بيدران .

والليلة الثالثة ، أنا ضيف فى دارزين .

---

(١) تاريخ سيستان ص ٢١٣ .

(*) وهرز الديلمى هو قائد جيش الفرس الذى ذهب لليمن فى عصر انوشيروان بناء بناء على طلب سيف بن ذى يزن لقتال الاحباش ، فلما نزل الجند من السفن هناك ، أمر وهرز باحراقها واغراقها وقال لجنوده ؟ العدو أمامكم والبحر وراءكم فبأيها تحتمون ؟ فحارب الجنود ببسالة حتى انتصروا .

والليلة الرابعة ، أكون فى تهرود وأنا نشوان .

والليلة الخامسة فى ظلال أشجار الحور فى راين

والليلة السادسة أقوم بزيارة الضريح فى ما هان (ضريح الولى شاه نعمت الله) .

والليلة السابعة أكون فى أحضان الحبيب فى كرمان .

العشائر المحلية فى مواجهة يعقوب .

كان على بن حسين يتولى حكم كرمان وفارس من قبل الخليفة عندما توجه إليها يعقوب، وكان على قد عقد اتفاقاً مع عشائر فارس وكرمان ، وجعل مقر حكمه فى فارس واختار أخاه عباس بن حسين على حكومة كرمان نيابة عنه ، وكان معه أحمد بن الليث الكردى رئيس الفدائيين من عشائر فارس . فلما بلغتهم أنباء حركة يعقوب صوب كرمان غادروا كرمان وتوجهوا إلى شيراز كى يعدوا العدة للمعركة ،ويجمعوا جيشا من عشائر فارس والأكراد، إذ أن ظروف فارس كانت أكثر ملاءمة للدفاع من كرمان .

توجه يعقوب مع أخيه إلى سيرجان، وبعد معارك بسيطة استولى على تلك المنطقة،ووزع بعض قواته على الطرق حتى حدود « دارابجرد » ثم عاد ثانية إلى بم حيث توجد قلعتها الحصينة للاحتماء بها . وفى هذه الأثناء كان أحمد بن الليث الكردى قد جمع فريقاً من عشائر « رم بازنجان » وعبر بهم الجبال من فارس متوجها إلى كرمان فلما وصل إلى دارابجرد ، التقى بطلائع يعقوب التى كانت مستقرة هناك وشتتها لأنها فوجئت بهجوم العدو عليه فقتل جيش الكردى بعضهم وفر الباقون . وأرسل الكردى رؤوس القتلى إلى على بن حسين فى شيراز .

وصلت أنباء هذه الهزيمة إلى يعقوب : فغادر بم متوجها صوب الغرب ، واختار على ابن حسين قائداً من قواده هو « طوق بن مغلس » على رأس خمسة آلاف من أكراد عشائر فارس وكرمان ، غير هؤلاء الذين سبق إرسالهم تحت إمرة أحمد بن الليث الكردى،وسار

هذا الجيش حتى وصل إلى مدينة « أناس » وتحصن هناك ، كما وصل يعقوب ونزل بالقرب من هذه المدينة أيضاً .

ولا يوجد اليوم فى كرمان مدينة باسم « أناس » ، ولم يحدد الجغرافيون فى عصور التاريخ المختلفة مكان هذه المدينة بوضوح ، فقد ذكر أغلبهم أن أناس من مدن روذان . وإذا أردنا أن نتصور أن هذه المدينة كانت من توابع روذان أو « أحمدى » حالياً ، فإنها لا تنطبق مع بيانات الجغرافيين الاسلاميين ، ذلك لأنه لا يوجد اليوم ضمن توابع روذان مثل هذه المدينة . وقد جاء وصف روذان فى كتب الجغرافيا العربية هكذا « ولروذان ثلاثة توابع هى أناس وإذ كان وأبان ، وتقع روذان على بعد ١٨ فرسخا من أبان ، ومن روذان إلى بابك ثلاثة أيام ، وأول منزل اسمه « دهشتروان » وكانت روذان من ناحية اتساعها مثل مدينة أبرقو ، ولها سور مرتفع وثمانية أبواب »[١] .

وعلى ضوء هذه البيانات ، يمكن القول إن مدينة أناس كانت تقع بين مدينة « أنار » الحالية وبين بابك ورفسنجان وسيرجان .

وذكر بعض الجغرافيين أن أناس كان إقليماً ، وأن عاصمته كانت تسمى « كران »[٢] وكران اليوم قرية عامرة جنوب « باريز » ، وإذا كانت هذه القرية عاصمة لأناس فمن الواضح أن ذلك الإقليم كان يضم شيب تل ، آبشار ، ثم منـــاطق السهل بين سيرجان ورفسنجان ومدينة بابك . ويجب أن نشير إلى أنه توجد اليوم قرية بالقرب من رفسنجان اسمها رودن ، ولعل هذه التسمية أن تكون تحريفا لروذان التى أشار إليها الجغرافيون .

وعلى هذا فيمكننا القول إن القتال الذى نشب بين يعقوب وطوق دار على مقربة من رفسنجان — وهذا ينطبق على العوامل الطبيعية أيضاً — لأن يعقوب الذى كان قد استولى

---

(١) ترجمة سر زمينهاى خلافت شرقى ص ٣٠٧ .

(١) معجم البلدان ، ذيل روذان .

على كرمان سار من طريق رفسنجان صوب الغرب إذ أن طريق رفسنجـان كان أنسب الطرق لعبور الجيش ، لأنه ليس جبلياً مثل طريق سيرجان الجبلى .

أما جيش فارس فقد سلك طريق داراب وكفه ومدينة بابك إلى قرب رفسنجان وهناك نشب القتال بين يعقوب وطوق على مقربة من شيب تل أو أبشار ، أو أبعد من ذلك قليلا على مقربة من « خوهل كوه وجاه بهره » أو شورون وكران (هذا هوا نفس المكان الذى كان ميدانا للقتال فى زمن آل المظفر فى الحرب بين جيش مبارز الدين محمد وأمير بيك جكاز ، كما يروى أن جيش نادرشاه عبر من هناك بعد ذلك بعدة قرون ، كما كان هذا المكان ميدان قتال فى الحرب التى دارت بين جيشى آغا محمد خان قاجار ومحمد تقى خان الكرانى)

طوق فى عنق طوق :

على كل حال فإن يعقوب أقام الحجة على طوق ، إذ أرسل ينصحه ألا يتدخل فيما لا علم له به ، وكان يقصد بهذا أمور الحرب . فرد عليه طوق بكتاب شديد اللهجـــة ، قال له فيه « وأنت أيضاً أعلم بصنعة النحاس منك بفنون القتال ، ولهذا فمن الأفضل لك أن تتحدث عنها »[٢] .

وقد استمر الحصار شهرين ، وكان من عادة أهل المدينـة أن يختزنوا فى بيوتهم مؤونة تكفيهم لمدة عام أو عامين لكثرة تعرضهم لحصار جيوش فارس أو خراسان ، وكان سور المدينة وقلعتها محكمين ، كما كانت أغذية الجنود متوفرة ، ولهذا فكر يعقوب فى حيلة هى أن يتقهقر بجيشه مسافة منزلين ثم أشاع أنه لا يريد الاستمرار فى حصار المدينة لنقص المؤن أو لأسباب أخرى ، وأنه يرغب فى العودة من حيث أتى .

وظن طوق أن جيش يعقوب قد أصابه الضعف والوهن ، فاستبد به الطمع ، وأراد

---

(٢) الطبرى جـ ٧ ص ٥٢١ .

أن يتعقب يعقوب ويأسره ، فأقام حفلا وقضى الليل بين الكاس والطاس ثم فتح أبواب المدينة وخرج بجيشه ، ولم يكد يبتعد قليلا عنها حتى رأى سواداً بعيداً فسأل عنه الناس ، فقالوا « يبدو أنه بعض قطعان من الأغنام والمواشي ذاهبة للرعى[١] »

ولم يمض وقت طويل حتى أخذت أسنة رماح جند يعقوب تلمع فى وسط الغبار والتراب ثم وجد طوق وجنوده أنفسهم فى حصار جيش يعقوب ، ودار بين الجيشين قتال مرير ، وكان طوق على فرسه فى مقدمة جيشه يحث جنوده على الهجوم وكان أزهر ابن عم يعقوب الوفى أحد قواده فى هذه الحملة ، فوقع بصره على طوق ورأى أن حيل العيارين هذا قد تنهى المعركة بسرعة لصالحهم ، لهذا فقد أعد حبل أنشوطته وألقاه على طوق فالتفت الأنشوطة حول وسطه ، واستدار طوق بفرسه إلى الخلف بسرعة مما جعله يسقط كالصخرة من على جواده ، وبهذا وقع طوق فى الطوق وأخذ أسيراً فى وسط المعركة[٢] .

فى يد من ؟

تفرق جند طوق ، ووقع الفان منهم أسرى فى يد جيش يعقوب ، كما وقعت أموالهم وأسلحتهم ومعداتهم أيضاً ، كما أن ألفين من جنود طوق سقطوا قتلى فى هذه المعركة[٣] .

وقد وجد بين المتاع والغنائم صندوقان مغلقان حملا إلى يعقوب ، وقد ظن بادىء الأمر أنهما يضمان الجوهرات والأشياء الثمينة ، فلما فتحوهما وجد بهما قيد وغل كان على بن حسين قد أعطاهما لطوق وأوصاه أن يضعهما فى يد يعقوب وعنقه بعد أسره ويرسله إليه فى فارس .
وشاءت الأقدار أن يسقط هذا الغل وذاك القيد فى يد يعقوب فيضعهما فى يدى طوق وعنقه . وقد لاحظ يعقوب بعد تقييد طوق أن يديه ملفوفتان فى منديل فسأله عن السبب ، قال طوق « لقد أصبت بحرارة أثر الأفراط فى الأطعمة الدسمة والحارة فاضطررت لإجراء

(١) الطبرى ، جـ ٧ ص ٥٢١ .
(٢) تاريخ سيستان ، ص ٢١٣ .
(٣) وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٤٥٠ .

فصد ربطته بالمنديل» ففك يعقوب عقدة الشال الذى يتمنطق به فسقطت منه قطعة من الخبز الجاف ، فقال يعقوب « ياطوق لقد كان هذا الخبز الجاف غذاء لى ولجندى لمدة شهرين ، أما أنت فقد جلست للشراب الذى شربت منه حتى أخذتك حرارته[١] . »

سلوك إسلامى :

طلب بقية جند طوق الأمان من يعقوب فأمنهم . أما على بن حسين الذى بلغه نبأ هزيمة قائده ، فقد بعث برسالة إلى يعقوب برأ فيها نفسه مما حدث وقال ان طوق دخل الحرب دون علمه ، ولم يكن لديه إذن بالأقدام على هذا العمل ، ويحتمل أن يكون على بن حسين قد عرض فى هذه الرسالة أيضاً أن يأتلف مع يعقوب ضد الخليفة الذى كانت علاقته به غير طيبة.

على كل حال ، فإنه كتب فى آخر الرسالة « إذا كنت تريد كرمان فهى وراء ظهرك وإذا كنت تريد فارس فابعث برسالة إلى الخليفة كى يستدعينى وأنا مستعد للعودة وإلا فإن العمل دون أمر الخليفة ليس سلوكا إسلامياً » .

وقد أجابه يعقوب « إن معى أمراً الخليفة لا أستطيع أن أعرضه إلا إذا دخلت إحدى المدن ، فإذا خرج على بن حسين من شيراز فبها ، وإلا فإن السيف يحكم بيننا ، وموعدنا فى ربوع سنجان » (على بعد ٣ فراسخ من شيراز) ، وبعث أصدقاء يعقوب فى شيراز بكتاب قالوا له فيه « أن على بن حسين لن يترك شيراز إلا بناء على كتاب وأمر من الخليفة» وكان فى شيراز ثلاثة من أصحاب يعقوب كان طوق أسرهم وأرسلهم إلى شيراز حيث وضعوا فى السجن .

ومن الأحداث الطريفة أن طوق كان قد اشترى عند خروجه من شيراز لمحاربة يعقوب منزلا بمبلغ ٧٠ درهماً وبدأ فى إصلاحه . وفى أثناء القتال كتب إلى ابنه يحثه على الايتوان

(١) الكامل ، ج ٧ ص ٦٧ والطبرى ، ج ٧ ص ٥٢٢ .

فى إصلاح هذا البيت . ولـكنه بعد أن هزم فى المعركة ووقع أسيراً فى قبضة يعقوب ، كتب إلى ابنه — بأمر من يعقوب — يقول له إن على أصحابه أن يساعدوا يعقوب إذا دخل المدينة . وقد وقعت هذه الرسالة فى أيدى أعوان على بن حسين فسلموها إليه ، فاتخذ منها ذريعة لمصادرة ممتلـكات طوق ومنزله الذى كان قد أصلحه ولم يقم فيه ، ولعل على بن حسين كان يتمنى منذ البداية أن يلقى طوق هذا المصير .

قلنا إن على بن حسين أراد أن يجد نقطة ضعف يستفيد منها فيما أقدم عليه يعقوب ، فاتخذ الدين والإسلام ذريعة ، وقال إن يعقوب دخل الحرب دون أمر من الخليفة ، وأراد بهذا أن يدفع الناس للخروج عن طاعـــة يعقوب ، ولـكن يعقوب فى رده قال « إذا كان على بن حسين مسلما ، فلماذا يتعاون مع الأكراد والقبائل الـكافرة (أطلقت هذه الـكلمة فى وفيات الأعيان على قبائل إقليم فارس ولا يعرف لماذا عدهم كفرة ولعل ذلك يرجـع إلى عاداتهم القبلية والتى يحتمل أنها لم تـكن تتفق مع بعض تعاليم الدين ، ولعل هذه العشائر كانت مثل طوائف الـكوتش (القفص) والبلوص التى كانت تعد فى نظر الناس آنذاك من عبدة الأصنام[1]) وكتب يعقوب فى آخر رسالته يقول « لعل على بن حسين لا يعلم أن أحمد ابن الليث الـكردى زعيم القبائل قطع رؤوس ٧٠ شخصاً فى كرمان دفعة واحدة ، ولعله لا يعرف أيضا أنهم أخذوا مائتى فتاة بكر من بيوت أشراف كرمان كغنائم حرب ، وحملوا ألفين من النساء كجوارى ، فهل يرضى الإسلام عن هذه الأعمال ؟ »[2] .

أما أحمد بن الحـكم الذى كان يعمل رسولا وواسطة بين على بن حسين ويعقوب فقد عاد إلى شيراز فى جمادى الأولى من ذلك العام يحمل رسالة يعقوب وسلمها إلى على بن حسين ولـكنه لم يستطع أن يأخذ رداً مناسباً عليها .

وكان السبب فى هذا أن على بن حسين لم يشتم رائحة الوفاق فى رسالة يعقوب ، ولذا

---

(١) ساجوقيان وغز در كرمان .
(٢) وفيات الأعيان ، ج ٥ ص ٤٥١ .

شرع فى إثارة اضطرابات جديدة ، فكتب إلى رؤساء عشائر اقليم فارس الذين أيدوه من قبل ، وأغاروا مرة — كما سبق أن قلنا — على كرمان وخطفوا مائتى بكر من منازل أهلهن ، فجمعهم حوله ، ثم كتب رسائل أخرى إلى الكفشان وطلب مساعدتهم[١] .

وهؤلاء الكفشان كانوا من عشائر جبال بارز والمناطق المحيطة بمدينة جيرفت ، وقد ذكروا أيضا باسم القفص[٢] ، ومازالت بقاياهم إلى اليوم تعيش حول هنزا التابعة لجيرفت ، ويعرفون باسم الكوتشمى (كوجى) وهم مثل رماد متخلف عن نار .

كان هؤلاء القفص يقطنون نواحى رودبار وجبال بارز ، وكانت هذه المناطق تعرف باسم جبل قفص « وتضم سبعة سلاسل من الجبال[٣] ، وكان لكل طائفة رئيس خاص ، ويقدرون عدد رجال هؤلاء القوم فى الجبال بنحو ١٠ آلاف رجل ، ولم يكن لدى هؤلاء القوم خيل يركبونها ، بل كانوا يحاربون مشاة أثناء المعارك ، ومع هذا فإن هجماتهم كانت تبعث الرعب والفزع فى كل كرمان ومناطق الحدود بين فارس وسيستان .

وسكان هذه الجبال الذين كانوا يقطنون فى شعابها ووديانها لم يخضعوا منذ القدم لحكام فارس أو حكام كرمان ، ولما كانوا يقيمون فى جبال « بارز » فقد عرفوا باسم « البارزيين » ، وهم القوم الذين أشار الرسول إلى ضرورة حرب العرب معهم فقال « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً ينتعلون الشعر ، وهم البارز » .

وهؤلاء القوم أيضاً هم الذين لم يخضعوا لأحد حتى عصر أنوشيروان ، ولهذا اعتبر من أهم أعماله إخضاعه لقوم باسم « البارز » أو « الباريز » كانوا يسكنون فى كرمان ثم اختارهم للأعمال العسكرية[٤] . ومن المحتمل كثيراً أن الاسم الأصلى لهؤلاء القوم كان

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ٢١٣ .

(٢) قفص بضم القاف وسكون الفاء جبل بين كرمان وفارس وهذا مكان الاكراد ويعد اهله من أشرار العالم — تقويم البلدان (م) .

(٣) المسالك والممالك ، ص ٢١٦ .

(٤) عقد العلى ، ص ٦٥ .

واحدا مع اسم برسه أو بارس (*) — وهو شعبة من الأسر الإيرانية القديمة التى نشأت منها أسرة الهخامنشيين الملكية — ويجوز كذلك أن طوائف « البارزان » الأكراد لهم صلة قرابة بهؤلاء القوم .

وهؤلاء القوم هم أيضاً الذين ثاروا — بعد يعقوب — فى عصر معز الدولة الديلمى ، كما قاموا بثورة أيام قاورد السلجوقى . وعلى كل حال فإن هؤلاء القوم الجبليين لم يخضعوا مطلقاً للحكم ما حتى العصر الأخير ، وذلك لسكناهم فى وديان وجبال صعبة العبور . كما أن جبل بارجى الذى جاء فى كتب التاريخ باسم « بارجان » هو نطق آخر من لهجة هؤلاء الناس ، وعلى امتداد جبال بارز توجد قرية باريز التى يظن أنها بقية من مساكن هؤلاء الناس .

وعلى أية حال فإن أهل جيرفت أعلنوا العصيان بتحريض من أحمد الكردى ، وكانت شوكة أهل جيرفت تتمركز فى ناحية جبل « بارجان » وكان هنالك زعيم يأتمر بأمره كثير من قبائل القفص واللصوص وعدد كبير من الشاة ، وقد احتال يعقوب بلطائف الحيل حتى قبض عليه ثم أرسله إلى قلعة بم حيث هلك هناك ، وبهذا انكسرت شوكة أهل جيرفت (١) .

ولم يكد يعقوب يفرغ من أمر جيرفت حتى وصلته أنباء عن اضطراب الأوضاع فى سيستان ، وعلم أن محمد بن طاهر ـ الأمير الطاهرى فى خراسان ـ حينما بلغته أنباء ذهابه إلى كرمان ، أرسل جيشا كان قد أعده للاستيلاء على سيستان ، وبهذا يكون قد طعن يعقوب من الخلف . ولم يمض وقت طويل حتى وصل نبأ هزيمة هذا الجيش وعودته مدحورا . وتفصيل هذا الأمر أن محمد بن طاهر كان قد اختار أميراً اسمه قاسم وأرسله على رأس جيش جرار لاسترجاع سيستان أثناء غيبة يعقوب عنها ، فتصدى له بعلان أحد غلمان يعقوب

(*) ذو القرنين يا كورش كبير ، ص ٣٧ .

(١) ايران در زمان ساسانيان ، ٢٥٦ .

وقاتله وهزم هذا الجيش وقتل قاسماً ، وكان هذا الغلام هو الذى حمل نبأ هزيمة قاسم ومقتله إلى يعقوب .

ويبدو أن انتصاره كان نتيجة لحيلة لجأ إليها ، مثل الحيل التى كان يستخدمها يعقوب نفسه فى حروبه .

أما كيف أبلغ يعقوب بنبأ انتصار جيشه فى سيستان ، فيقولون إنه كان يجلس يوما على منظرة يفكر فى سيستان ، فإذا به يرى جمازا قادما من ناحيتها ، فلما اقترب اتضح أنه بعلان أحد غلمان يعقوب ، والذى كان أميراً على مملكة فراه ، وتقدم بعلان إلى المنصة وترجل عن جمازه ، وصعد المنظرة ووضع رأس قاسم أمام يعقوب ، فسر يعقوب غاية السرور ، وسأل عن تفصيل الأمر . فقال بعلان « قام قاسم بمحاصرتنا ، وطالت مدة الحصار ، وأوشك الخلاف أن يقع بين الناس فأرسلت إلى قاسم رسولا قال له إن الحصار قد طال ولم يصل أحد من الأطراف إلى هدفه ، ومن الخير أن تأتى غدا مع بعض فرسانك إلى جوار القلعة ، وسأخرج إليك مع جماعة أيضاً ونتحدث فى هذا الشأن ، فإذا تعهدت فى حضورى أن تستجيب لما أطلبه منك فإننى أسلم لك القلعة . » فاغتر قاسم بهذا الكلام وخرج فى اليوم التالى فى خمسين فارسا ، فأسرعت إليه فى خمسين من الشجعان ، فلما وقعت عيناى على قاسم ، قلت لأصحابى اهجموا هجمة رجل واحد على أن يكون هدفكم قاسم ، وجدوا فى قتله . وقد حملت عليه بنفسى ، ووصلت إليه وأطحت به من على صهوة جواده وقطعت رأسه ، فلما رأى جيشه أن قائده قد قتل ولى الأدبار » ، وقد رأيت أنه لا يوجد من هو أحق وأولى منى بابلاغ هذه البشارة إليك ، ولهذا تركت القلعة لأحد ممن أثق فيهم وقدمت اليكم » فخلع عليه يعقوب خلعة سنية وأرجعه مكرما .

ولهذا فإن يعقوب بعد أن أخمد فتنة جيرفت واطمأن على العاصمة واستقرار الأوضاع فى سيستان ، انصرف عن فكرة العودة إلى العاصمة ، وتفرغ لأعداد حملته على فارس والاستيلاء على مدينة شيراز .

الفصل الرابع عشر

أول سفن لفارس :

انتهت كل حروب يعقوب فى كرمان بالنصر ، واستسلمت بم ، وخضعت له سيرجان وجيرفت ، وجاء دور فارس . وكان جميع أعوان على بن حسين ، وخاصة أحمد بن الليث الكردى قد جمعوا عدة حربية وعتاداً عظيما ، فإذا كان يعقوب قد عاد إلى سيستان ولم ينه أمرهم ، فربما — بل ومن المؤكد — أنهم كانوا سيهاجمون كرمان ، وربما لم يكتفوا أيضاً بالمناطق التى يستولون عليها ، بل وتجاوزوها إلى المشرق أى إلى سيستان نفسها .

ولهذا لم يكن أمام يعقوب إلا أن يضع نهاية لأمر فارس ، فجمع جيشه وعدته وعتاده وتوجه صوب الغرب عن طريق نيريز وفسا وسروستان .

كلب دليل جيش :

قاد على بن حسين جيشه من شيراز ، وتوجه صوب الشرق ، أى إلى كرمان وعسكر على الشاطىء الغربى لنهر « كر » لأن هذا النهر كان يمثل منطقة استراتيجية هامة ، إذأن عبور قوات يعقوب لهذا النهر لم يكن أمراً سهلا . ويقع هذا النهر على مقربة من شيراز ، ويمر على حدود اصطخر ويصب ماءه فى بحيرة بختان[1] .

وصل يعقوب إلى النهر فوجد من الصعب عليه عبوره ، فلما رأى على بن حسين — من

---

(١) حدود العالم ، ص ٤٥ .

الناحية الأخرى ـ حيرة يعقوب صاح قائلا « يابن الصفار ، من الأفضل لك أن تتحدث عن القدور والأباريق والقصدير ، بدل قيادة الجيوش والدخول فى الحرب[١] » . فلم يرد يعقوب بشيء ، وعاد إلى معسكره . فلما كان اليوم التالى ، عبأ يعقوب جيشه على شاطىء النهر ، وكان يصاحب الجيش كثير من الدواب والحيوانات . وكان يعقوب يحمل معه صندوقاً لا يعلم أحد مابه ، أو لماذا أحضره . ولكن كاتباً عربيا فى جيش على بن حسين اسمه ابن حماد يصف مشاهداته فيقول « فتح يعقوب الصندوق فقفز منه كلب ذئب كبير ، وأمر يعقوب جنوده أن يركبوا خيولهم دون سروج وأن يحملوا رماحهم فى أيديهم ، وكان على بن حسين يجلس مستريحاً على الجانب الآخر للنهر لتصوره أن يعقوب لن يتمكن من عبور النهر ، ولهذا لم يهتم بتجهيز قواته التى تفرق أفرادها فى المنطقة[٢] . فلما امتطى الجنود خيولهم ، أمر يعقوب بإنزال الكلب فى النهر ، فأخذنا نضحك على تصرفاتهم ، ولكننا فوجئنا بالكلب يسبح عابراً النهر ونادى الجنود على خيولهم وحثوها فإذا هى تلقى بنفسها فى الماء وتخوضه للشاطىء الآخر دون خوف من الماء مقلدة الكلب .

وكان يعقوب وأخوه عمرو يتوقعون كل شيء فى حملاتهم ، خصوصاً عمرو بن الليث الذى كان يحمل قرباً فارغة على الجمال ، ولا أحد يعلم سبب حملها ، وفى إحدى المرات ، أثناء السفر ، اعترضهم نهر فأمر عمرو أن تملأ هذه القرب بالحصى والرمال وتلقى فى الماء حتى تكون منها جسر عبر عليه الجيش[٣] .

وحينما تمكن على بن جسين من جمع جيشه وتنظيمه كان جيش يعقوب قد عبر النهر ، وأغار مباشرة على معسكر على بن حسين الذى فوجىء جنوده بهذا الهجوم فولوا الأدبار نحو شيراز[٤] .

وقد تظاهر يعقوب أمام أهل اصطخر بأنه سيقضى الشتاء فى مدينتهم ، وبلغ هذا النبأ

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٥ ص ٤٥١ .

(٢) وفيات الاعيان ، ج ٥ ص ٤٥١ .

(٣) زينة المجالس فى تدابير اصحاب الدوله .

(٤) الطبرى ، ج ٧ ص ٥٢٤ .

إلى على بن حسين فاطمأن ، ولكن يعقوب استدعى قواده بعد نحو أسبوع وأمرهم أن يهيئوا الجيش ليكون فى أول الليل على أهبة الاستعداد عند أبواب المدينة . وبعد صلاة العشاء خرج يعقوب من اصطخر وسار بجيشه طول الليل فوصل فى الصباح إلى أبواب شيراز[١] .

والخيل أيضاً تطيع الأوامر العسكرية :

كانت حملة يعقوب خاطفة بالنسبة لجنوده ، فعندما نادى المنادون فى المعسكر على الجنود أن ألجموا خيولكم واستعدوا للسير فوراً ، سحب الجنود خيولهم من طويلاتها ، وبلغ من عجلة أحد الجنود فى هذه اللحظة أن سحب حزمة العلف من فم الحصان ووضع اللجام مكانها خوفاً من أن يتأخر عن موعد السير . ويقولون إن الجندى لكى يبرر موقفه أمام حصانه التفت له وقال « إن أمير المؤمنين — يقصد يعقوب — قد أمر بالسير فوراً ، وعلى هذا يجب التحرك ومنع الخيل عن تناول طعامها » ونقل المسعودى فى تاريخه مروج الذهب هذه الجملة كما هى باللغة الفارسية . ويبدو أنها جملة أحد الجنود عندما أمر يعقوب بالسير[٢].

كذلك شوهد أحد قواد هذا الجيش وقد لبس دروعه على بدنه دون أن يجد فرصة ليلبس ملابسه الداخلية . وذكر هذا القائد أنه كان يستحم حينما دقوا طبول السير ، ولهذا لم يجد الوقت ليلبس ملابسه مما اضطره إلى لبس دروعه على بدنه والسير مع الجيش[٣] . وهذه القصص تصور التنظيم الدقيق والإخلاص الشديد والطاعة العمياء التى كان يدين بها جند سيستان لقائدهم .

أما جيش على بن حسين فكان تعداده خمسة عشر ألف جندى ، ووقع عليه هذا

(١) زينة المجالس فى تدابير اصحاب الدولة .

(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣١٥ .

(٣) وفيات الإعيان ، ج ٥ ص ٤٥١ .

الهجوم ففر جنود على بن حسين وأعوانه مسرعين ، حتى أنهم وصلوا عصر نفس اليوم إلى شيراز منهزمين ، وقد دارت المعركة الثانية حول شيراز ، وقتل فيها من جند على بن حسين نحو خمسة آلاف جندى وهربت جماعة منهم إلى الأهواز . وقد أصيب على بن حسين نفسه بثلاث ضربات ، أطاحت بدروعه وأسقطته من على فرسه وأراد جنود يعقوب ، فى بادىء الأمر ، أن يقتلوه ، ولكنهم عدلوا عن هذا ، وأخذوا شال عمامته ولفوه فيه وحملوه إلى يعقوب ، يرافقه الجندى الذى قام بأسره ، فأراد يعقوب أن يكافئه بعشرة آلاف درهم ، ولكن الجندى رفض الجائزة قائلا : « لقد وجدت هذا الكلب وكان على أسره وإحضاره وليس لى أكثر من هذا » ثم عاد إلى مكانه فى الجيش .

وقد ضرب يعقوب — بنفسه — على بن حسين عشر هراوات ، ثم سلمه إلى حاجبه الذى سحبه من لحيته خارج الخيمة ، ثم أمر يعقوب أن يقيد على بن حسين فى سلسلة ثقيلة وزنها عشرون رطلا ، وأن يوضع هو وطوق بن مغلس الذى كان يرافق يعقوب فى هذه اللحظة أسيراً ، فى خيمة واحدة[١] .

٣٠٠ درهم لكل جندى :

بعد أن انتصر يعقوب ، دخل مدينة شيراز ، وسار الجنود فى السوق والحوارى يدقون الطبول وينفخون فى الأبواق بينما تفرق أعوان على بن حسين واختفوا .

وفى هذا اليوم بقى الأهالى فى منازلهم لم يبرحوها لما بلغهم عن يعقوب قوله إنه إن انتصر فإنه سينهب شيراز ، ولكن يعقوب ظل طيلة ليلة دخوله المدينة يتجول فى أنحائها ، حتى إذا كان الصباح أعطى الأمان للناس على أن يفتحوا الأسواق . وكان هذا بمثابة إعلان بإنهاء حالة الحرب . ثم ذهب يعقوب إلى المسجد الجامع وأمر الخطيب أن يقرأ الخطبة

(١) وفيات الأعيان ، ج ١ ٤٥١ .

(٢) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٣ ص ٢٩٤ .

باسم الخليفة المعتز .. ولم يبق يعقوب فى شيراز أكثر من يومين قضى أغلبهما فى مصادرة ثروات على بن حسين وجمع أمواله . وقد ذهب أخوه عمرو إلى منزل على بن حسين وصادر أثاثه ومتاعه ، ولما لم يعثر على خزائنه أحضر على بن حسين نفسه إلى المنزل وهناك أرشده إلى ألف صرة من الذهب . وقد بلغ نصيب كل جندى من جنود يعقوب ٣٠٠ درهم من فتح شيراز وحدها .

وقام يعقوب بتعذيب على بن حسين بكل أنواع التعذيب ، فضغطوا على خصيتيه وشدوا على صدغيه بجوزتين إلى أن أفشى سر خزائنه .

وكان مما قاله ليعقوب « لقد أخذت منى كل ما أردت حتى البساط الذى تحت قدمى والذى يبلغ ثمنه أربعين الف درهم ، فماذا تريد بعد هذا ؟ » ولكنهم استمروا فى تعذيبه ، ووضعوا فى عنقه سلسلة وزنها أربعون رطلا « فاضطر على بن حسين أن يرشدهم إلى خزائن فى بيت آخر » أخرجوا منه أربعة آلاف درهم ومقدارا كبيراً من الجواهر « ثم استمروا فى تعذيبه وسلموه إلى حسين بن درهم فضربه بالسياط وعذبه وسبه بأقذع السباب « كما عذب طوق بن مغلس » وبعد ذلك قيدوهما معاً ووضعوهما فى السجن (١) .

هدية للخليفة :

وجد يعقوب من واجبه أن يبرر موقفه للخليفة — وكان لا يزال المعتز بالله — فأرسل إليه تقريراً عما حدث « كما أرسل إليه كثيراً من الهدايا » وكان من بينها عشرة صقور بيض « وعدد من الصقور البلقاء الصينية » وصقور صيد « ومائة صرة من المسك (٢) وكافور وكئوس كبيرة » وخيول أصيلة وما يهدى للملوك غير هذا (١) .

---

(١) تاريخ سيستان ص ٢١٤ .

(٢) وفيات الأعيان ، جـ ٥ ص ٤٥٢ .

وقد استغرقت حملة يعقوب فى بلاد فارس والتى اكتنفتها المصاعب والشدائد نحو خمسة أشهر ، أى من ذى الحجة عام ٢٥٤ إلى جمادى الأولى عام ٢٥٥ (إبريل ٨٦٩ م) .

وفى يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى عام ٢٥٥ هـ توجه ناحية المشرق وعاد إلى سيرجان ، وكان معه أسيراه ، طوق بن مغلس وعلى بن حسين ، فلما وصل إلى كرمان أراد أن يعرض على الناس نصره وقوته فأمر بإلباس الأسيرين – على بن حسين وطوق – ملابس مزركشة وسروالا وعباءة نسائية ، والطواف بهما فى المدينة ، ثم أعاد وضعهما فى القيود ، وسار من كرمان متوجها إلى سيستان [1] .

وكانت الثروات التى حصل عليها يعقوب من خزائن فارس لاتعد ولاتحصى ، إذ يقال إن من بينها ألف ثوب من الأطلس والسجاد ، وألف وأربعمائة حمل من أوانى الذهب والفضة[2] . ودخل يعقوب سيستان يوم الخميس لخمسة بقين من شهر رجب عام ٢٥٥ هـ وكان معه خمسة آلاف جمل وألف بغل غير الخيول العربية والحمير والمواشى والأموال الأخرى ، وقد فرح أهل سيستان بعودة الجيش منتصراً ، وأقام يعقوب هناك مدة لم تطل كما سنرى .

أما عن نتائج هذه الحملة ؛ فيمكن القول إن أعداء يعقوب تنبهوا بعد هذه الحوادث إلى خطورته ، وأحس ديوان الخلافة أن هناك خطراً كبيراً يتهدد بغداد من سيستان ، كما أن محمد بن طاهر أدرك أنه لا توجد قوة تستطيع الوقوف فى وجه يعقوب .

ومن جهة أخرى فإن أهل سيستان رأوا أن الثروة والأموال تتدفق عليهم ، وأن كثيراً ممن كانوا يمضون أيامهم فى عمل القفاف ، أو نسج الحصر ، أو صيد السمك ، أصبحوا ذوى مال وثروة ، وظهرت الرفاهية فى مجتمعهم .

---

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ ٣ ص ٢٩٤ .

(٢) اسمه حمدان بن عبد الله .

الفصل الخامس عشر

« إننا نرغب فى التوسع وضم ولايات أكثر »
من أقوال يعقوب للخوارج

الحملة الثانية :

كابل — فارس — هرات

لما عاد يعقوب إلى سيستان من حملته فى أقليم فارس بلغه أن ابن رتبيل — حاكم كابل والذى كان سجينا فى قلعتها - قد هرب من حبسه وأنه جمع حوله جيشاً كبيرا فى الرخج ، ولهذا عين يعقوب نائبا له فى سيستان [1] ، وجمع جيشه الذى لم يكد ينفض عن نفسه غبار طريق العودة من فارس ، وتوجه إلى الرخج ، وكان هذا فى ذى الحجة عام ٢٥٥ ﻫ . أى بعد خمسة أشهر من عودته لسيستان .

بعد أن انتهى يعقوب من أمر الرخج ، قصد غزنين واستولى فى طريقه على زابلستان ثم أخضع غزنين ، وسار إلى جرديز وحارب أبا منصور أفلح بن محمد بن خاقان الذى كان أميرا على جرديز ، واستمر القتال بينهما طويلا حتى توسط بينهما جمع من الناس ، وقدم أبو منصور رهينة وتعهد أن يدفع كل عام عشرة آلاف درهم كخراج إلى يعقوب [2] .

---

(١) تاريخ سيستان، ص ٢٠٥ .

أما ابن رتبيل فإنه عندما سمع أنباء خروج يعقوب إليه ، ذهب إلى كابل ، واضطر يعقوب إلى تعقبه حتى وصل إلى حدود خاشاب .

هزيمة من البرد :

آنذاك كان الوقت شتاء ، واليوم قصيرا ، والبلاد جبلية . فلا يكاد الجنود يعدون أنفسهم للسير حتى يهبط الليل عليهم ، ويكون عليهم أن يبحثوا عن مكان يأوون اليه ويستريحون فيه . وكانت السماء ملبدة بالغيوم ، والثلج يتساقط فأغلق الطريق ، وأدرك يعقوب أنه معا يتنافى مع العقل والحكمة والمهارة الحربية أن يتقدم فى جبال مغطاة بالثلوج بجيش غالبية جنوده من سيستان ، ممن اعتادوا على الهواء الحار والنخيل ، فى تلك البلاد ، ليقاتل جيوش كابل والرخج المكونة من جنود جبليين اعتادوا على الحياة فى الثلوج وعلى قمم الجبال ، ولهذا استدار بجيشه متوجها ناحية الغرب، فلما وصل إلى بست فرض على أهلها كل أنواع الخراج لغضبه عليهم لأنهم كانوا قد ثاروا ضده أثناء غيابه ، ثم عاد إلى سيستان (١) فوصلها فى ١٤ شوال ٢٥٦ هـ (سبتمبر ٨٧٠ م) .

تغير سياسة الخلافة :

فى تلك الأثناء حدثت فى بغداد تغييرات جديدة اذ تولى المعتمد على الله الخلافة بعد المعتز والمعتضد ، وكان هذا الخليفة لا يوافق على كل أعمال يعقوب فكان أول ما فعله أن أصدر منشور حكومة خراسان باسم محمد بن طاهر وضم إليه فى هذا المنشور حكومة ولاية سيستان وتوابعها . وبهذا لم يعترف الخليفة الجديد بحكومة يعقوب ، أما اقليم فارس وكرمان فقد اختار لها حاكما جديدا من ديوان الخلافة .

---

(١) زين الأخبار، ص٦ .

وأدرك يعقوب أن الخليفة المعتمد لايميل اليه لأن تضمين حكومة ولاية سيستان في منشور ولاية خراسان معناه تحريض الطاهريين عليه من جديد .

وقد أعطيت حكومة فارس وكرمان إلى محمد بن واصل التميمي الذى كان رجلا حكيما وكانت كل هذه الإجراءات للقضاء على أمر يعقوب دفعة واحدة ، وقد تعهد محمد ابن واصل أن يقاتل خوارج فارس ، وأن يرسل لديوان الخلافة خمسة ملايين درهم كل عام كخراج عن اقليم فارس .

واستقر رأى يعقوب على ان يضع نهاية لأمر كرمان ، ولهذا قام بتنظيم أمور سيستان على النحو التالى استعدادا لحملة عسكريه فاصلة :

عين حمدان بن عبد الله مرزبان نائبا عنه ، واختار الفضل بن يوسف قائداً لجيش سيستان ، وجعل إبراهيم بن داود البجي — أحد كبار العلماء — شيخا على رجال الدين في المكان الذى خلا بوفاة عثمان بن عفان كبير رجال الدين في سيستان ، عام ٢٥٥ هـ ، وأمره بإمامة الصلاة وقراءة الخطبة ، كما عهد ببيت المال والمسائل المالية إلى اسماعيل بن إبراهيم . ثم توجه إلى كرمان [٢] لأنه كان يرى أنه مالم يطمئن من ناحية كرمان ، فانه لن يستطيع أن يهاجم خراسان .

يعقوب يعين الولاة :

كان محمد بن واصل التميمي — الذى عين واليا على فارس وكرمان — ومرافقه الحرث ابن سيما ، أحد المقربين من الخليفة ، يدركان ان مقاومة حملات يعقوب الخاطفة مما لايستطيعانه ، ويبدو أن الخليفة المعتمد كان قد لفت نظره إلى هذه النقطة ، وأوصاه أن يقضى على يعقوب بالدهاء ولطائف الحيل .

---

(٢) تاريخ سيستان، ص ٢١٩ .

لما بلغ يعقوب خبر تقلد محمد بن واصل حكم اقليم فارس ، غلت مراجل غضبه ، فأسرع من سيستان متوجها الى فارس ، فبعث محمد بن واصل -- الذى كان يخشى حملات يعقوب الخاطفة – صهره أبا بلال الرداسى من رامهرمز الى يعقوب يطلب شفاعته والصلح معه ، وقد رد يعقوب بارسال كتاب أمان حمله بعض المقربين من يعقوب الى محمد ابن واصل ، ولكن ابن واصل غدر بالرسل وحبسهم ظنا منه أنه يمكنه مفاجأة جيش يعقوب بالهجوم والقضاء عليه ، فلما وصل من شولستان الى قرب البيضاء ، ماتت جماعة من جنده ومرافقيه جوعا وعطشا لشدة الحرارة بسبب سيره فى طرق صعبة العبور فلما بلغ هذا يعقوب جمع قادة جنده وعرض عليهم الأمر وأحضر أبا بلال الرداسى ، وأبلغه أن محمد بن واصل سيعاقب جزاء غدره . ثم سار يعقوب للقاء ابن واصل [١] . وقد انتصر يعقوب فى أول معركة وطلب محمد ابن واصل الأمان ، فأمنه يعقوب ، وجاء بنفسه الى يعقوب يعرض طاعته وخضوعه وقدم الكثير من الهدايا والأموال . ويبدو أنه حدث وفاق بين يعقوب ومحمد بن واصل .

وهنا نجد يعقوب يشن أولى حملاته المنوية الموفقة ضد الخلافة ، فإن المنشورات بالولاية على فارس وخراسان وسيستان حتى ذلك اليوم كانت تصدر من الخليفة ، ولكن يعقوب فى ذلك الوقت ، أمر كاتبه أن يصدر باسمه منشور حكومة فارس الى محمد بن واصل ، وبهذا ولاه يعقوب على اقليم فارس [٢] .

ولكننا سنرى فيما بعد أن محمد بن واصل هذا قام بأعمال عنيفة ضد يعقوب ، دفعته الى التوجه من جديد الى فارس ، بل بغداد نفسها .

---

(١) فارسنامه ناصرى ، گفتار أول ص ١٥ .

(٢) تاريخ سيستان ، ص٢١٦ .

أنا محطم الأصنام

أراد يعقوب أن يسترضى ديوان الخلافة بعد هـذا النصر ، فأرسل — فى ربيع الثانى عام ٢٥٧ هـ (فبراير ٨٧١ م) — كتابا مع رسول الى ديوان المعتمد ، وحمله بـكثير من الهدايا ، وكان من بينها خمسين صنما من الذهب والفضة مما كان يعقوب قد استولى عليه من معابد الأصنام والبوذيين فى كابل والرخج ، وقد أشار يعقوب فى كتابه الى هذه الأصنام وطلب من الخليفة المعتمد أن يرسلها الى الكعبة كى تصهر هناك ، وتسك دراهم ودنانير تنفق على راحة الحجاج والزوار .

وبعد أن وصل هذا الرسول وتلك الهدايا الى المعتمد ، أوفد أخاه الموفق — الذى كان ولى عهده أيضا — الى يعقوب فى فارس ، وجعل مرافقيه ثلاثة من كبار رجال ديوانه ، هم اسماعيل بن اسحاق القاضى ، وأبا أسعيد الأنصارى ، وطفتا [١] .

وكان طفتا هذا أحد أمراء الأتراك فى ديوان الخلافة . وحمل هذا الوفد فيما حمل الى يعقوب منشورا بولاية حكومات بلخ وطخارستان وفارس وكرمان وسيستان والسند — هى نفس الأقاليم التى كان يعقوب قد فتحها قبل وصول المنشور اليه .

وقد أكرم يعقوب أعضاء الوفد ، وخلع عليهم وقدم لهم الهدايا ثم أعادهم جميعا وعاد هو الى سيستان .

فتـح بـلخ :

بعد أن وصل يعقوب الى سيستان ،اضطر فى ربيع الأول عام ٢٥٨ هـ للتوجه للمرة الثانية لتهدئة كابل ، وحل موضوع خروج ابن رتبيل ، فلما وصل الى زابلستان التجأ ابن رتبيل الى

---

(١) الطبرى ، جـ٧ ص ٥٩٨ .

قلعة « ناى لامان » وتحصن بها ، فحاصره يعقوب إلى أن اضطره للتسليم وأمر بوضعه فى القيود .

سار يعقوب بعد ذلك إلى بلخ التى ذكرت فى كتب التاريخ أيضا باسم بلخ باميان أو بامى (الصغيرة) وهى تقع فى شمال أفغانستان حاليا ، والطريق اليها يمر فى مناطق جبلية صعبة ، وتعتبر مدينة « مزار شريف » أهم مدن تلك الناحية حاليا وكان حاكمها آنذاك هو داود بن عباس ، الذى آثر الفرار ، وتحصن أهل المدينة فى كهن دز ، قلعة المدينة . ولكن يعقوب فتح المدينة من أول هجوم شنه عليها ، وقتل جيشه كثيرا من الناس ونهب البلدة (١) . وكان من أعمال يعقوب الأخرى أنه هدم كل المبانى التى كان داود بن عباس قد أقامها فى المدينة ، كما هدم نوشاد بلخ (٢) . وكان هذا النوشاد هو بيت أصنام بلخ المشهور وهو الذى بقى منه للآن تمثالا سرخ بت وخنك بت وهما من عجائب الدنيا .

وقد أرخوا دخول يعقوب الى بلخ فى جمادى الثانية عام ٢٥٨ هـ ، ويبدو أن بخارا خضعت أيضا ليعقوب فى هذا الوقت واستسلم حاكمها رافع بن هرثمة الذى كان واليا من قبل الطاهريين ، ولكن يعقوب طرده لأنه كان ذا لحية طويلة ومنظر قبيح جداً ، وقد ثار رافع — فيما بعد — لهذا السبب .

وبعد ان فتح يعقوب بلخ جعل عليها محمد بن بشير ثم توجه الى هرات ، وكانت هذة الرحلة تمثل دورة فى أفغنستان الحالية ، اذ أن سير يعقوب ناحية الغرب قاده الى هرات التى فر حاكمها عبد الله بن محمد بن صالح الى نيسابور وبهذا استسلمت هرات أيضا .

ثورة عبد الرحمن :

فى هذه الأثناء ، وصلت أنباء عن ثورة عبد الرحمن الخارجى الذى كان قد جمع نحو

(١) تاريخ سيستان ، ص ٢١٧.
(٢) زين الأخبار ، ص ١١

عشرة آلاف من الخوارج والمخالفين ، واحتمى بهم فى جبال هرات واسفزار ، وكانوا يغيرون عليها ؛ وعجز قواد خراسان وأعيانها عن دفع شرهم [٣] . فسار يعقوب الى الجبال وكان الفصل فصل الشتاء والهواء شديد البرودة والثلوج تغطى الأرض ، ولكن يعقوب كان مضطراً لمحاربتهم فى معقلهم كروخ هرات فى الظروف الطبيعية القاسية ، وقد جاهد يعقوب ليهزمهم فى قلعتهم هذه واضطرعبد الرحمن الى طلب الأمان والخروج مع بعض قواده مثل المهدى بن حسن ومحمد بن موله واحمد بن موجب وطاهر ابن حفص ، وقد داراهم يعقوب لما كان لعبد الرحمن الخارجي في تلك المنطقة من منزلة ونفوذ،فمنحه يعقوب حكومة اسفزاز وتوابعها وبذلك ضمها الى حكمه ، كما استمال أحد خصومه إليه وعاد الى هرات .

استمالة الخوارج :

وفى هذه الأثناء جاءت أنباء تقول إن اثر المؤامرة التى حاكها أعوان عبد الرحمن — أى الخوارج — فقد قتل عبد الرحمن ، واختاروا ابراهيم الأخضر قائدا لهم ، وأدرك ابراهيم الا فائدة من مخالفته ليعقوب ، فحمل بعض الهدايا وذهب بنفسه الى يعقوب فمنحه ولاية اسفزار ، وقال له فى خطبة يستقبله بها ويستميل الخوارج معه ، ويتخلص من مخالفتهم نهائيا « إن عليك وعلى أصحابك أن تطمئنوا ، فان أغلب جيشى وعظمائى من الخوارج ، ولستم وحدكم فى هذا الأمر ، فاذا لم يستقم الأمر بما منحتكم ، فأرسل الى رجالا كثيرين لعلنى أستطيع أن أستظهر بهم وأدفع رواتبهم وأنظم شئونهم وأمنحهم كل ما يريدون ، فهذه الجبال والصحارى من الثغور التى يجب عليكم حمايتها من الأعداء لأننا نريد توسعة ولايتنا ولن أتمكن من المجىء الى هنا كل عام ، وأرغب فى رجل مثلك خصوصا وأنت من بلدتى ورجالك أغلبهم من « بسكر » (قرية من قرى زرنج) ، ولا أستطيع بحال من الأحوال أن أصيبهم بأذى [١] » .

وكان لهذه الكلمة أثران ، الأول : أنها جعلت الخوارج وخصوم يعقوب يميلون اليه ،

(٣) تاريخ سيستان، ص ٢١٧ .

(١) تاريخ سيستان ،ص٢١٨.

والثانى أن قائدهم عاد وهو مطمئن قوىّ ، وأصبح من فدائيى يعقوب ، وقدقرر يعقوب لهم مبلغا من المـال كراوتب وعشر ينيات . ثم عاد الى سيتسان فى جمادى الأولى عام ٢٥٩ هـ ، وعندما وصلها كان فصل الشتاء لم ينته بعد ، وتساقطت الثلوج كثيرة على غير العادة فى سيستان ، مما أدى الى ذبول النخيل (١) .

بعد أن عاد يعقوب الى سيستان ، واطمأن الى حد ما من ناحيتى الشرق والغرب ، شعر أنه لا أمان ولا استقرار طالمـا بقيت أسرة الطاهريين فى خراسان والمناطق المجاورة ، وان هناك احتمالا كل يوم بهجوم يشن عليه أو على أملاكه تدبره الخلافة بالتعاون مع أسرة الطاهريين ، ورأى أن الوقت مناسب لخلع جذور الطاهريين والإطاحة بهم ، ولهذا عزم على فتح خراسان .

---

(١) نفس المرجع السابق .

الفصل السادس عشر

« لقد أقمت العـــدل بين خلق الله
تبارك وتعالى ، وسأكون السبب فى
القضاء على الطاهريين وظلمهم للناس »
من أقوال يعقوب

اضمحلال أسرة الطاهريين

مـــكافأة قتل الأمين :

استولت أسرة الطاهريين على خراسان نتيجة لحادثة تاريخية ، فعندما توفى هارون الرشيد فى طوس ، وادعى المأمون الخلافة فى خراسان ، أرسل إليه الأمين جيشاً من بغداد ، ولـكن هذا الجيش هزم فى الرى وأسرع طاهر ذو اليمينين — أحد الأرقاء الإيرانيين الذين استعربوا — إلى بغداد وحاصرها سنة ١٩٧ هـ (٨١٢ م) وأراد الأمين أن يلتجىء إلى هرثمة القائد العربى لجيش المأمون، فاستقل قارباً يعبر به نهر دجلة، ولـكن طاهراً علم بهذا، فـكمن له مع جماعة من خاصة جنده على شاطىء دجلة حتى إذا ما وصل الأمين ، هجموا على القوارب ، وألقوا القبض على الأمين ، وقام أحد غلمان طاهر بقتله فى تلك الليلة نفسها.

وفى اليوم التالى أرسل طاهر رأس هذا الشاب إلى أخيه المأمون فى مرو ، وقام هو بالاستيلاء على بغداد ، وبعد سنوات عندما جاء المأمون إلى عرش الخلافة منح طاهر حكومة خراسان عام ٢٠٥ هـ مكافأة له ، فجاء طاهر إلى نيسابور وتسلم حكومة خراسان ، وبعد مدة رأى طاهر أن يستقل ، فأسقط اسم الخليفة من الخطبة أى أنه خلع المأمون فى خطبة الجمعة

عام ٢٠٧ هـ، ولكنه مات فجأة فى الليلة نفسها [١] .

ويقولون إن جارية كان الخليفة قد أرسلها مع طاهر ، وقال لها « إذا وجدت فى يوم ما أن طاهراً ينوى الغدر ، أو القيام بعمل ما ضد الخلافة ، فعليك أن تقضى عليه بالسم الذى سيكون معك » ، هى التى دست السم لطاهر فى تلك الليلة .

وتولى طلحة بن طاهر أمر خراسان فى عام ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) ، ولما كان مركز قد قوى ، فإن عزله أصبح صعباً ، إلى أن توفى عام ٢١٣ هـ ، ثم تولى بعده أخوه عبد الله ابن طاهر حكومة خراسان حتى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) . فلما توفى تسلم طاهر بن عبد الله الملقب بطاهر الثانى ولاية خراسان ، وهو الذى أصدر منشور حكومة كرمان باسم يعقوب. وتأتى أسماء الأمراء الطاهريين فى بيتين من الشعر الفارسى ترجمتهما :

ملك من آل مصعب فى خراسان   طاهر وطلحـــة وعبـــد الله
ثم طاهر ومحمـــد الثانى الذى   أعطى ليعقوب العرش والتاج [١]

قلنا إن يعقوب بعد أن استقر له أمر سيستان وكرمان ، وجد أن أمر سيستان لن يستقيم له حتى يتقرر مصير خراسان وموقفها ، ولكن محمد بن طاهر الذى كان يعلم مايكنه يعقوب ، لم يعطه فرصة لتنفيذ مآربه ، فكان دائماً يسترضيه ويستميله بمختلف الوسائل .

ومع هذا ، فإن محمد بن طاهر كان أشد أعداء يعقوب ، لأن يعقوب هو الذى قضى على سلطان أسرة الطاهريين فى سيستان وبست وبوشنج وهرات وكابل والرخج وحتى من كرمان ، وطرد كل الأمراء الطاهريين منها ، أو ألقى القبض عليهم ، ونفاهم فى القلاع النائية ، وجعل طرق القوافل التى كانت تحمل الخراج إلى نيسابور تتحول إلى سيستان .

---

(١) مجمل التواريخ والقصص، ص ٣٥٤ .
(١) مجالس المؤمنين ، ص ٢٩٦.

ومع أن محمد بن طاهر كان في الظاهر يساير يعقوب ، ومنحه منشور حكومة كرمان، إلا أنه — فى الواقع — كان ينتظر الوقت الذى يضرب فيه ضربته ، كما حدث أثناء غياب يعقوب عن سيستان . إذ أرسل جيشاً ولـكنه ـ كما رأينا ـ هزم وقتل قائده .

كذلك كان محمد بن طاهر يقوم بالدس ليعقوب فى ديوان الخلافة ، ويحاول أن يمسك عليه نقاط ضعفه ، وكثيراً ما كتب فيه الرسائل الطوال ، بل إنه ذهب بنفسه مرة إلى بغداد ، ليتقصى الأمر ، ويسعى لدى الخليفة لـكى يغير رأيه فى يعقوب .

نفوذ شادان المخنث :

كان محمد بن طاهر قد عرض على ديوان الخلافة أمر يعقوب ، واستيلائه على ولاية خراسان ، ولـكنه لم يتلق أى رد ، فاضطر للذهاب بنفسه إلى بغداد لبحث الأمر ، ولـكن الخليفة ، الذى كان مشغولا باللهو والطرب ، لم يهتم بالموضوع ، ولما طال بقاء محمد بن طاهر فى بغداد دون أن يحصل على إذن بمقابلة الخليفة ، عرض أمره على أحد خواص الخليفـة فقال له « عليك بالذهاب إلى شادان المخنث ، ومحاولة استرضائه لـكى يقوم لك بما تريد ». ففعل ابن طاهر بما أشار به عليه ، وفى اليوم التالى أخذ له الإذن بالعودة[1] .

وكان يعقوب ، الذي يعلم بمؤامرات محمد بن طاهر ، يبحث عن ذريعة يبعث بها جيشه إلى نيسابور . وسبق أن قلنا إنه عندما ذهب يعقوب إلى هرات فر حاكمها عبد الله بن محمد ابن صالح ، والتجأ إلى محمد بن طاهر فى نيسابور ، وكان سبب فرار عبد الله بن محمـد أنه وأخويه كان قد وقع بينهم وبين يعقوب قتال استطاع فيه عبد الله أن يهجم بسيفه على يعقوب ويجرحه ، فلما انتصر يعقوب فر عبد الله وأخواه من سيستان إلى نيسابور ، حيث التجأوا إلى محمد بن طاهر .

---

(١) يرجع إلى كتاب « تاريخ خاندان طاهرى »

وقد اتخذ يعقوب من هذه الحادثة ذريعة وقال « لا بد لى من الذهاب إلى خراسان لتعقب عبد الله بن محمد ». لهذا عين حفص بن زونك[1] نائباً عنه فى سيستان ، وسار إلى نيسابور عن طريق قهستان وقائنات ، فى شعبان ٢٥٩ هـ .

وكان عبد الله بن محمد عندما فر إلى نيسابور ، قد ذهب إليها مع بعض جيشه ، ولهذا استطاع أن يحاصر المدينة ، ولكن العلماء والفقهاء ، توسطوا بينه وبين محمد بن طاهر ، وأصلحوا بينهما ، فمنحه محمد بن طاهر حكومتى قهستان وطبسين ، ولعل منح هاتين الناحيتين المجاورتين لسيستان إلى عدو يعقوب اللدود كان الباعث على تفكير يعقوب فى غزو خراسان وفتح نيسابور . ومما يبعث على العجب أن محمد بن طاهر — بعد هذا العمل مباشرة — كتب رسالة إلى يعقوب طلب منه فيها القضاء على عبد الله بن محمد[2] ، وقد أراد بهذا أن يسحق رأس الأفعى بيد عدوها اللدود .

قادم يوقظ النائم :

كان لدى يعقوب ذريعة أخرى لغزو خراسان ، وهى أن أحمد بن فضل السيستانى كان قد فر مع صهره ومع بعض الأعيان من سيستان ، والتجأوا إلى بلاط محمد بن طاهر ، فأرسل يعقوب الرسل إلى نيسابور فى طلبهم ، ولكن محمداً رفض تسليم هذه الجماعة ، وقد أضيف هذا الرفض إلى ذرائع يعقوب الأخرى فى سيره إلى نيسابور[3] .

كان أحمد بن فضل خارج نيسابور عندما بلغته أنباء حركة يعقوب ، فاستولى عليه الرعب ، وتوجه إلى دار الإمارة فى نيسابور ، حتى يعرض الأمر شخصياً على محمد بن طاهر فلما وصل إلى باب القصر ، قال له الحاجب « الأمير نائم ، ولا يمكن مقابلته » .

---

(١) زين الأخبار ، ص ١٠ .

(٢) ديوان المبر ، ج٣ ص ٢٩٥ .

(٣) حبيب السير ، ج ٢ ص ٣٤٤ والطبرى ج ص ١١ .

واضطر أحمد بن فضل إلى العودة ، ولـكنه هز رأسه وأشار إلى قصر محمد بن طاهر وقال « حسن ولـكن شخصاً سيأتى ويجبره على الاستيقاظ[١] » ، ثم سار مع أخيه إلى عبد الله بن محمد حيث تشاوروا فى الأمر ، واستقر رأيهم على الذهاب إلى الرى .

على أبواب نيسابور :

حينما وصل يعقوب إلى إحدى قرى نيسابور ، وهى « فرهادان[٢] » التى تقع على بعد ثلاثة منازل ، أو إلى داود آباد فى رواية أخرى[٣] ، بلغه أن بعض اللاجئين السيستانيين قد خرجوا من نيسابور ، فأرسل رسولا إلى محمد بن طاهر يقول له « إننى قادم للسلام عليك[٤] » . وإلى هنا كان يعقوب يتظاهر بأنه جاء يتعقب الهاربين ، فعقد محمد بن طاهر مجلساً مع كبار رجاله للتشاور بعد أن استقبل هذا الرسول دعى إليه بعض اللاجئين ليبحثوا ما يمكن عمله مع هذا الضيف الطفيلى ، والرد الذى يجب أن يرسله الأمير على سلام هـــذا الريفى الجرىء .

أما عبد الله بن محمد الذى كان يعلم أن أول شرط ليعقوب هو إعادته إليه ، فقال لمحمد بن طاهر « ليس من الصواب أن يجىء يعقوب ويسلم ، فاجمع الجيش لقتاله » . فقال محمد بن طاهر « إننا لا نستطيع قتاله ، لأننا إذا حاربناه فإن النصر سيكون له ، وسيقوم بتعذيبنا[٥] » .

وبهذا أظهر محمد بن طاهر لضيفه الآخر ـ عبد الله بن محمد ـ تلميحاً أنه غير مستعد للحرب . فلما رأى عبد الله هذا الموقف ترك نيسابور متوجهاً إلى دامغان وبهذا تفرق

---

(١) حبيب السير، ج ٢ ص ٣٤٤ .
(٢) زين الأخبار، ص ٦ .
(٣) الطبرى، ج ٨ ص ١١ .
(٤) تاريخ سيستان، ص ٢١٩ .
(٥) نفس المرجع السابق والصفحة .

اللاجئون من حول محمد بن طاهر ولم يبق فى الظاهر أى سبب لتدخل يعقوب ، أو إصراره على دخول نيسابور ، ولكن جيشه كان قد ضرب خيامه أمام أبواب المدينة .

قيدهم جميعاً :

ذهب أعمام وقواد محمد بن طاهر جميعاً إلى يعقوب، وبعث الأمير محمد برسالة إلى يعقوب حملها إبراهيم بن صالح المروزى ، قال له فيها « إن كنت قادماً بأمر أمير المؤمنين فأظهر العهد والمنشور لى كى أسلم لك الولاية ، وإلا فعد » . فلما وصل الرسول إلى يعقوب ، وقدم الرسالة ، أخرج سيفه من تحت سجادته وقال « هذا عهدى ولوائى[1] » . ثم نزل يعقوب فى شادياخ ـ أحد أحياء المدينة المعروفة . وفى اليوم التالى ركب محمد بن طاهر وذهب بنفسه لاستقبال يعقوب ، فلما ترجل عن فرسه ودخل السرادق ، وانتهت مراسم الاستقبال وأراد أن يركب فرسه ويعود، التفت يعقوب إلى عزيز بن عبد الله ـ وهو من قواد جيشه العيارين ـ وقال له « إحبس هؤلاء جميعاً » ، فقبض عزيز عليهم ، ووضع محمد بن طاهر وكل خاصته فى القيود[1] .

ويؤرخ البعض لهذه الحادثة فى الثانى من شوال عام ٢٥٩ هـ . ولكن إذا وضعنا فى الاعتبار تاريخ حركة يعقوب من سيستان ، وهو شهر شعبان فإن التاريخ الأول أقرب إلى الصواب .

ويبدو أن الأمير محمد بن طاهر كان قد خدع بأقوال يعقوب وظاهره ، غافلا عن أن هدف يعقوب الأصلى هو الاستيلاء على خراسان ، وليس استرداد اللاجئين ، لأن العدو الذى كان الخليفة يحركه دائماً ، ويشكل الخطر الرئيسى على استقلال يعقوب ونفوذه ، كان خراسان وأسرة الطاهريين ، لأنهم كانوا ـ على مر السنين ـ قد أصبحوا من القوة والنفوذ

---

(١) زين الأخبار، ص ٧

(٢) تاريخ سيستان، ص ٢٢٠.

بحيث أن الخلفاء أنفسهم كانوا لا يستطيعون انتزاعهم من أماكنهم ، وقد كان كل خليفة يتولى الخلافة يجد نفسه مضطراً لأن يصدر أول منشور له بتولية الطاهريين حكومة خراسان وما يتبعها ، وكان على الطاهريين — فى مقابل هذا — أن يقضوا على أية معارضة أو ثورة محلية قد تقوم ضد العرب ، إلى جانب إرسال مبالغ ضخمة كخراج الى الخليفة . ولهذا كان قصر الأمير محمد بن طاهر ومدينة نيسابور هما الملجأ والملاذ الوحيد أمام اللاجئين والفارين وأعداء يعقوب .

وقد حطم يعقوب فى حملته هذه آخر قلعة تساند معارضيه وتؤيدهم وهى أسرة الطاهريين.

من بست إلى نيسابور :

بعد أن أسر محمد بن طاهر أمر يعقوب بإحضار كاتبه وقال له : « هل تتذكر ذلك اليوم الذى تجولنا فيه فى منزل قرب بست ، وكان على الحائط فوق المدفأة شعر مكتوب ، وقلت لك دوّن هذا الشعر ؟ » .

قال الكاتب : « نعم » .

فسأله يعقوب : « هل معك هذا الشعر الآن ؟ »

فأخرج الكاتب الشعر وقرأه وهو :

صاح الزمان بآل برمك صيحة　　　خرّوا لصيحته على الأذقان

وبآل طاهر سوف يسمع صيحة　　　غضبا يحل بهم من الرحمن(١)

قال يعقوب : « قلت لك فى ذلك اليوم إننى يجب أن أكون الرجل الذى يأخذ حق الناس من أسرة الطاهريين ، والآن اذهب واعرض هذين البيتين على محمد بن طاهر وقل له إننى سأسمح له ولحريمه وأسرته وكل من يريد منهم أن يذهب إلى سيستان ويقيم بها » .

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ٢١٢ .

ولكنهم عندما قرأوا هذا الشعر على محمد بن طاهر بكى وقال « لا مرد لقضاء الله ، والأمر له الآن ، ونحن عباده وفى رحمته » . ثم كتب رغباته فى رسالة بعث بها إلى يعقوب » (١) .

ويجب أن نذكر هنا أن أهل نيسابور وخراسان كانوا قد ضاقوا ذرعاً بظلم أسرة الطاهريين ، بل إن أقارب محمد بن طاهر نفسه ، كانوا معه فى صراع شديد لأنه فى الفترة الأخيرة من حكمه لم يكن يهتم إلا بملذاته ، فحلت مجالس الشراب مكان مجالس الحرب ، وبلغ حنق أهل نيسابور مداه من ظلم الحاكم وعماله . وقد وصف محمد بن طاهر بالفضل والأدب ، وعرف بحب الملذات والشراب ، وشغل باللهو والطرب عن تدبير أمور الملك ، فاستولى أعداؤه على ثغوره وأطراف مملكته مما أدى إلى ضعفه (٢) .

وكل الروايات التاريخية تتحدث عن فساده وفساد حاشيته ، وتحكى أنه كان أسير نفسه لا أمير ملكه ، وكان دائم البحث عن البيوت التى قد توجد فيها فتيات جميلات يمكنه أن يأخذهن أو جوارى حسان يختطفهن ، كما حدث حينما وقعت عيناه على جارية الوراقين ، فيقولون إنه كان بنيسابور وراق اسمه محمود الوراق ، وكانت له جارية فى غاية الحسن والجمال ، تحسن قول الشعر والعزف على العود ، ولعب الشطرنج ، فوصلت أوصاف هذه الجارية إلى سمع الأمير محمد بن طاهر فشغف بها ولما اشتدت به الرغبة فيها ، أرسل مرات كثيرة إلى محمود الوراق لكى يشترى منه تلك القينة بثمن باهظ ، ولكن محموداً رفض بيعها لأنه كان شغوفا بها ، ولهذا ذهب محمد بن طاهر بنفسه إلى منزل محمود الوراق ، ووضع أمامه أربع بدرات من الفضة ، و . . . .(٣)

وكما يقال فان الجارية رفضت الذهاب إلى قصر محمد وبقى عار هذا العمل فى أسرة

---

(٢) نفس المرجع السابق .

(١) روضة الانوار ، ص ٦ .

(٢) روضة الصفا ، ج ٤ ص ١٦ .

الطاهريين على مدى التاريخ . ولا يقتصر فساد الطاهريين على عصر الأمير محمد بن طاهر بل إن أباه عبد الله كان رجلا أنانيا ، وكان مطلق الإرادة فيما يفعل فى خراسان ، وقد رووا عن عبادته للمال وهوسه وشهواته قصصا كثيرة .

يقولون إن عبدالله بن طاهر كان فى أحد مجالسه ، فدخل عليه أحد أبناء أعيان غزنين ، وسلم على الامير ودعا له ، وقال : « إن لى على الامير حقا » .

فقال عبد الله : « أى حق هذا ؟ »

قال الرجل : « إننى كنت فى بغداد أرش الطريق الذى كنت تمر منه أمام منزلى كل يوم بالماء كى لا يغبرك التراب » .

قال الأمير : « والآن ، ماذا تريد منا ؟ »

أجاب الرجل : « امنحنى إمارة أبيورد كى أجمع لنفسى عشرة آلاف درهم » .

فقال عبد الله : « لقد منحتك إمارة أبيورد » .

وفى الحال صدر له منشور إمارة تلك الناحية . والعجيب أن ابنه محمداً كان قد شعر بهذا الإسراف الذى لاموجب له ، فبعد أن هزمه يعقوب سألوه عن السبب فى زوال ملكه فقال « الشرب فى الليل والنوم بالنهار ، وإسناد المناصب الهامة لمن لا يستحقها »[1]

ومثل هذا المسلك لم يثر أهل نيسابور فقط ، بل أثار كل أهل خراسان ، وسوف نرى كيف أن أحمد بن عبدالله الخجستانى أو حسن بن زيد العلوى ، قد قاما بثورتيهما بسبب هذا السلوك ، مما أدى إلى قيام فتن كثيرة ووقوف العيارين أمام كل عمل . وظهر غيرهما

---

(١) روضة الأنوار ١٧ ص

فى كل ناحية من نواحى إمارة الطاهريين ، وكان أكثرهم نجاحا هو يعقوب بن الليث الصفار [١].

وكان أهل نيسابور ، ومن يتنبأون بالأحداث ويسمعون أخبار نجاح يعقوب يرسلون إليه يدعونه إلى خراسان . والحقيقة أن مجىء يعقوب إلى نيسابور ، لم يكن برغبة يعقوب وحده بل كان بتحريض جماعة من أعيانها وخصوم محمد بن طاهر فى داخل إمارته ، ممن كانوا يبعثون الرسائل باستمرار إلى يعقوب ، وكان يعقوب من ناحية أخرى على صلة بالمحيطين بمحمد بن طاهر . وبهذا نجد أن حكومة الطاهريين قد انقرضت من الداخل بسبب تقرب أعيان حكومة الطاهريين من يعقوب وإرسالهم الرسل يستعجلون قدومه لإنقاذ ثغر خراسان أحد الثغور الكبيرة ، لان ملكهم لاهم له إلا اللهو واللعب [٢].

أمر يعقوب من نسيج أوامر الخليفة :

قال محمد بن طاهر لأعوانه قبل خروجه من نيسابور « إننى ذاهب لرؤية يعقوب ، ولكن يجب أن تعلموا أن هذا الرجل لايحمل أمراً من الخليفة يتيح له الحضور إلى نيسابور » .

وفى اليوم التالى سمع أعيان نيسابور نبأ القبض على محمد بن طاهر بدلا من نبأ عودته ، فاجتمعوا وتشاوروا وعلا صوت بعضهم عن هذا الرجل القادم من سيستان والذى لايحمل أمرا من الخليفة ولا حكما من بغداد ، كما أنه خارجى ، ولكن جند يعقوب كانوا فى نفس اللحظة يدخلون المدينة ويحتلون سورها وقلاعها .

ولكى يقضى يعقوب على هذه الفكرة وإشاعات المغرضين ، أمر المنادين أن يطوفوا

---

(١) تاريخ طبرستان، ص ٢٤٥ .
(٢) تاريخ بيهقى، ص ٢٤٧ .

فى المدينة ، وخاصة فى الشرق يدعون الناس وخاصة الأعيان والعلماء والفقهاء ليجتمعوا فى اليوم التالى ليعرض عليهم منشور الخليفة .

وسار المنادون ، وتجمع الأعيان والناس فى اليوم التالى أمام قصر الإمارة ، وكان يعقوب قد أمر أن يصطف ألفان من الغلمان الذين يلبسون سلاحهم أمام القصر أيضاً ، وكان كل منهم يحمل درعه وسيفه ويمسك فى يده عصا من الذهب أو الفضة ، وكانت كل هذه الأسلحة قد استولى عليها من خزائن الأمير محمد بن طاهر فى نيسابور .

جلس يعقوب على طريقة الملوك ورسومهم ، ووقف الغلمان فى صفين أمامه وقد أعطى بريق سيوفهم ورماحهم ودروعهم أثناء شروق الشمس رهبة وجلالا لجهاز يعقوب وجيشه ، وأمر يعقوب بإدخال الرجال ووقوفهم بين يديه ، ثم أمرهم بالجلوس فجلسوا جميعاً بينما توقفت قلوبهم فى صدورهم من الرعب ، ثم التفت يعقوب إلى حاجبه ، وقال له :

« أحضر منشور أمير المؤمنين حتى أقرأه عليهم » . فتقدم الحاجب ووضع أمامه ربطة جميلة من القصب المصرى الأبيض كانت فى يده ، فتعجب الجميع كيف يكون هذا أمرا أو منشورا ؟ . ثم فك الحاجب القماش ، وأخرج منه سيفا يمانيا براقا وضعه فوق رأسه ، ثم هزه ولوح به ، فكان يلمع ويكاد سنا بريقه يأخذ بالأبصار ، ثم أعاده وضعه أمام يعقوب .

وقد أغمى على أغلب الحاضرين ، فقد ظنوا أنه يريد بهم سوء . أما يعقوب الذى لاحظ اختطاف لون وجوههم ، فتوجه إليهم فى هدوء قائلا : « لم أحضر السيف هنا لأننى أريد السوء بأحد منكم ، ولكنكم اشتكيتم من أن يعقوب ليس معه أمر من أمير المؤمنين ، فأردت أن تعرفوا أنه معى » .

أفاق الرجال قليلا ، ومسح العلماء عيونهم وتحسسوا الحاجم ، ثم نظروا إلى بعضهم البعض كما لو كانت عيونهم تتكلم وتقول ، لم يعد الأمر هزلا أو مزاحا . ثم واصل يعقوب حديثه متسائلاً « أليس لأمير المؤمنين فى بغداد مثل هذا السيف القا ؟ »

قالوا جميعاً « بلى » .

قال يعقوب « لى هنا أيضاً هذا السيف البتار ، فعهدى وعهد أمير المؤمنين من نسيج واحد . ثم سمح لهم بالعودة إلى منازلهم . وبعد هذا أخذ فى إلقاء القبض على خصومه ، وخاصة من أسرة الطاهريين وأصحابهم . وأعلن على الأهـــالى رسالة كان آخر ما جاء بها :

« لقد أقمت العدل بين خلق الله تبارك وتعالى ، وأخذت أهل الفسق والفساد ، وإذا لم أكن هكذا لم يمنحنى الله النصر كما منحنيه حتى الآن، فلا شأن لـكم بمثل هذه الأمور ، وعودوا للطريق القويم »(١)

يجب الحفاظ على أحرار الرجال :

وبعد أن أخذ يعقوب فى القاء القبض على زعماء وحاشية محمد بن طاهر ، كان من العجيب أن كثيراً من أصحاب محمد بن طاهر سعوا للتقرب من يعقوب ، وحاول كل منهم أن يخدمه بطريقة ما ، ولـكن بعضهم لم يهتم بيعقوب . وكان من بين من لم يهتموا به رجل اسمه إبراهيم بن أحمد ، فاستدعاه يعقوب وقال له « إن كل الأعيان قد جاءوا إلى ، فلماذا لم تأت أنت ؟ قال إبراهيم « أيد الله الأمير ، ليس لى بك سابق معرفة حتى أحضر إليك أو أراسلك ، كما لم أكن عاتبا على الأمير محمد حتى أعرض عنه ، وأنا لا أقبل خيانة سيدى، حتى أرد إحسانه وإحسان أبيه بالغدر »(٢)

وكان حديث يعقوب مع إبراهيم بن أحمد ذا أهمية وعبرة ، ويبدو أن الذين لم يتعاونوا مع يعقوب ، ولم يذهبوا إليه كانوا ثلاثة أشخاص ، أمر يعقوب باحضارهم أمامه .

---

(١) تاريخ سيستان، ص ٢٢٣ .

(٢) زين الأخبار، ص ١١ .

وقال لهم : « لماذا لم تتقربوا إلى كما فعل أصحابكم ؟ »

قالوا : « أنت ملك عظيم وسيرتفع شأنك ، فان أردت أجبناك على الاتنصب » .

قالوا : « هل رآنا الأمير قبل اليوم ؟ »

قال : « لا » .

قالوا : « فهل كان لنا معك أو كان لك معنا مكاتبات أو مراسلات ؟ »

قال : « لم يكن » .

قالوا : « نحن رجال كبار فى السن ، وقد خدمنا الطاهريين سنوات طويلة ، وأصبنا فى ظلهم خيرات وفيرة ، ووصلنا إلى مراكز كبيرة ، فهل تجيز لنا أن نكفر بالنعمة ونتقرب لمخالفيهم ، ولو كانوا يقطعون الرقاب ؟ هذه أحوالنا ، ونحن اليوم بين يدى الأمير ، وقد سقط أميرنا ، فلتفعل بنا ما يقبله الله تبارك اسمه ، وما يليق بشهامتك وعظمتك » .

قال يعقوب : « عودوا إلى منازلكم آمنين ، فان رجالا أحرارا مثلكم يجب الحفاظ عليهم فانكم تنفعوننا ، ويجب عليكم أن تحضروا دائما إلى ديوانى » . فعادوا آمنين شاكرين[1] .

وقد أعجب يعقوب بموقف هؤلاء الرجال ، خاصة إبراهيم بن أحمد الذى أكرمه وقربه ، وقال له : « يجب الاحتفاظ بعظيم مثلك » وصادر أموال كل الأشخاص الذين ذهبوا للقائه واستقباله[2] . ثم أمر بوضع كل الرجال من الطاهريين فى القيود ، وأرسلهم إلى جبل « اسبهبد »[3] . وكان تاريخ القبض على الطاهريين وأعوانهم هو الثانى أو الرابع من شوال ٢٥٩ هـ . وقد وبخ محمد كثيراً وأخذت جميع خزائنه[4] . ونقلوه بعد هذا من

(١) تاريخ بيهقى ، ٢٤٨ .

(٢) زين الأخبار ، ص ١٣ .

(٣) تاريخ سنى ملوك الأرض ، ص ١٧٠ .

(٤) زين الأخبار ، ص ١٣ .

قصر نيسابور إلى سجن سيستان الكبير على مقربة من باب مسجد الجمعة حيث حبسوه . ويقولون إن سبعين شخصا — وفى رواية أخرى مائة وسبعين فردا — من أسرته وأقاربه كانوا معه[1] . ويبدو أن هؤلاء الأسرى نقلوا بعد هذا فى قيودهم وأغلالهم إلى قلعة فى كرمان تعرف باسم قلعة « بم » وبقوا فيها حتى توفى يعقوب[2] . وبهذا أصبحت قلعة « بم » منفى لحاكم قوى . وهى نفس القلعة التى استضافت بعد ذلك بعدة قرون « محمد ابن المظفر » ، و« أغا خان المحلاتى »[3]

وبقى يعقوب فى نيسابور حتى بلغه أن عبد الله بن محمد ذهب من دامغان إلى جرجان وتحالف مع حسين بن زيد العلوى . وحينئذ فكر فى غزو جرجان التى كانت فى ذلك الوقت تمر بفترة جديدة من تاريخها ، بعيدة عن نفوذ وسلطان أسرة الطاهريين .

وقبل أن نتحدث عن حملة يعقوب على جرجان ، نجمل وقائع الأحداث فيها فى ذلك الوقت .

---

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) حبيب السير ، ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٣) المشهور بأغا خان زعيم طائفة الاسماعيلية الأسبق (م) .

الفصل السابع عشر

السيل يجرف الصخور أمامه

فاذا وصل للبحر تلاشى كيانه

أول هزيمة – هزيمة جرجان

كل شاطىء ليس شاطىء هامون:

كانت الثورات ضد الخلافة العباسية تثار — بصفة خاصة — من جانب العلويين والزيديين — أحفاد على بن أبى طالب — التى تعتبر نفسها تسترد حقها المغتصب . وكانت هذه الأسرة الشريفة مغضوبا عليها منذ بداية الخلافة العباسية ، وفقد أغلب رؤساء هذه الأسرة وأئمتها وأبطالها أرواحهم فى سجون الخلفاء العباسيين . ولهذا التجأ بعض أبناء هذه الأسرة الذين نجوا من حد السيف إلى المدن الداخلية والشمالية فى إيران ، ومع هذا فقد كانوا فى هذه المدن تحت رحمة الولاة العباسيين أو عذابهم ، ولكنهم كانوا على كل حال يتمتعون بالحماية الصادقة من الأهالى ،

وكان ديوان الخلافة العباسية يسعى أحيانا لاسترضاء أو إسكات هؤلاء السادات شريفى النسب بمختلف الوسائل تهديدا أو إغراء ، ولكن هؤلاء الأشخاص كما يقول أحد المؤرخين لم يتزحزحوا عن طلب الخلافة ، ولم يستسلموا على الرغم من الآلام والعذاب الذين قاسوها مما جعل كثيرا من مدن إيران وقراها اليوم مدافن لهؤلاء الأئمة الشهداء تزار ويتبرك بها .

وكان من بين المناطق الآمنة منذ صدر الإسلام ، والتى وضعها العلويون والسادات الزيديون فى اعتبارهم ، منطقة ماوراء جبل البرز وسواحل بحر الخزر التى لا يستطيع جيش الخليفة الوصول إليها .

وقد حدث فى ذلك الوقت الذى نتحدث فيه عن يعقوب أن قامت حركة فى مازندراز وجيلان جرّت رجل يعقوب إليها وهو ماسنتحدث عنه .

قلنا إن عبدالله بن محمد — عدو يعقوب اللدود — ذهب إلى حسن بن زيد العلوى فى جرجان ، واضطر يعقوب إلى أن يرسل جيشه فى إثره ليتعقبه فى تلك البلاد .

ظهور الزيدية :

كان يعقوب يعلم أن جيشه ليس مستعدا لعبور طبرستان ، والوصول إلى جرجان بعد المرور فى غابات شمال البرز ، وكان يمكنه بعد استقرار الأحوال فى نيسابور أن يعود الى سيستان ، ولكنه أراد ألا يدع الائتلاف بين عبد الله بن محمد وحسن بن زيد العلوى يثمر ثماره ، لهذا دق طبول الرحيل وسار بجيشه إلى جرجان حتى يقضى على حسن ابن زيد العلوى .

وحسن بن زيد هذا هو حسن بن محمد بن اسماعيل بن حسن بن زيد بن حسن المعروف بصاحب طبرستان ، والذى أعلن دعوته عام ٢٥٠ هـ فى آمل ، وعرف بـ « الداعى الكبير » ويذكرون أن سبب خروجه هو « سوء سلوك محمد بن أوس أولا ، وظلم المدعو جابر — عامل الطاهريين — للرعية ثانيا .

وتفصيل هذا ، أنه عندما منح المستعين بالله العباسى حكومة طبرستان لعبد الله بن طاهر ، أناب عبد الله عنه شخصا اسمه جابر على تلك الولاية ، وكان على أطرافها مزرعة يزرع بعضها عمال الوالى ويترك باقيها للأهالى ، فلما قدم جابر جعل كل هذه المزرعة للوالى

ولم يلتفت إلى تظلمات الناس ، فطلب أهل طبرستان العون من الديلم ، واتفقوا معا على مبايعة حسن بن زيد العلوى ، الذى كان يقطن إحدى قرى طبرستان آنذاك .

وقد جاءت هذه الدعوة نتيجة لظلم سابق ، ففى عهد محمد بن أوس بلغ ظلمه لأهالى رويان منتهاه ، وكان الأهالى يتظلمون للسادات ؛ وكان أحدهم ويدعى محمد بن ابراهيم يقيم فى كجور ، وكان ورعا زاهداً متديناً ، فاجتمع أهل رويان وقراها وذهبوا جميعاً إلى « السيد محمد » وقالوا له : « لقد ضقنا بظلم هؤلاء الحكام ، والدين الإسلامى والإيمان فى رعايتكم ، ونريد سيداً من آل محمد (صلعم) نجعله حاكماً علينا ، فما رأيك فى أن نبايعك ؟ » فقال لهم السيد محمد : « أنا لست أهلا لهذا العمل ، ولكن لى زوج أخت يسكن الرى ، إن كنتم صادقين أرسلت أستدعيه » . وكان يشير بهذا إلى الداعى الكبير حسن ابن زيد [1] .

وكان الاستيلاء على مزرعة صغيرة هو الشرارة التى أشعلت ثورة أهل مازندران وغضبهم ، ويجب ألا ننسى قول أرسطو : « مهما كان السبب المباشر للثورات صغيراً ، فإن دوافعها الأصلية عظيمة الأهمية » . وكان خروج حسن بن زيد العلوى ودعوته شبيهاً بخروج يعقوب بن الليث من حيث الرغبة فى تخليص الأهالى من سيطرة الخلفاء العباسيين ، ودفع الظلم عنهم خاصة من قبل الطاهريين الذين كانوا يحكمون طبرستان والديلم إلى جانب سيستان وغيرها ، وكانوا شديدى الظلم والبطش [2] .

فى حوالى عام ٢٥٠ هـ كان سليمان بن عبد الله بن طاهر ، عم محمد بن طاهر يحكم الرى وطبرستان [3] من قبل ابن أخيه محمد بن طاهر ، وقد ضاق به الناس وبأعوانه ، واشتكوا كثيراً من ظلمه وظلمهم . ولكن يبدو أن محمد بن طاهر الذى عين واحداً

(١) تاريخ رويان ، ص ٦٥

(٢) معجم البلدان ، لليعقوبى ص ٣٠٧ .

(٣) الطبرى ، جـ ٧ ص ٤٣٠ .

من أقرب أهله لحكومة طبرستان لم يكن على استعداد للاستماع لشكاية الأهالى أو بحثها(١) .
وكان هذا مقدمة لظهور الزيدية. ومع أن يعقوب لم يكن بينه وبين الزيدية عداوة ، إلا أن فرار عبد الله بن محمد ، وتكوينه لمركز من مراكز المعارضة فى طبرستان ، دفع يعقوب للقيام بهذه الحملة .

الحملة على جرجان :

لكى يعوض يعقوب عن سوء معاملاته لأسرة الطاهريين ، ويجلب رضاء الخليفة الذى كان مستاء من سلوكه إزاءهم ، ولكى يقيم ما يسمى اليوم « توازنا سياسياً » ، فقد سار لقتال حسن بن زيد ، لأن الخليفة كان معارضاً لقيامه هو وأسرة العلويين بصفة عامة ، وكان موافقاً على قلع جذورهم وقمعهم بكل وسيلة ، وعلى يد أى شخص .

ابتدأ يعقوب بإرسال رسالة إلى حسن بن زيد فى جرجان يطلب منه فيها تسليم عبد الله السجزى وإخوته، فرد عليه حسن بن زيد برسالة ولكنه لم يرسل السجزيين(٢) .

فى محرم عام ٢٦٠ هـ (أكتوبر ٨٧٣ م) ترك يعقوب نيسابور متوجهاً إلى جرجان ولكى يبرر عمله ، فقد أرسل الرسل إلى الخليفة يعرضون عليه الأوضاع فى خراسان .

جلس المعتمد فى قصر الجوسق فى حضور الأعيان وقواد الجيش واستقبل سفراء يعقوب الذين عرضوا عليه أحوال خراسان ، وكيف أن الثوار المتحصنين بجبالها قد سيطروا على محمد بن طاهر ، كما ذكروا له أن أهل خراسان كتبوا إلى يعقوب يطلبون منه العون والمساعدة .

---

(١) الكامل ، جـ ٧ ص ٤٥ .
(٢) زين الاخبار، ص ١٣ .

وقال الموفق — أخو الخليفة — وعبيد الله بن يحيي إلى رسل يعقوب إن أمير المؤمنين لا يقر عمل يعقوب إزاء الطاهريين ، ويأمر أن يعود يعقوب إلى البلاد التي منحه الخليفة حكومتها ، وعليه ألا يقدم على عمل يخالف أوامر الخليفة ، فإذا قبل يعقوب هذا فهو من أصحاب الخليفة وأعوانه ، وإلا فإنه سيعد فى زمرة الأعداء .

وعاد الرسل وقد حمل كل منهم — طبعاً — هدية هى ثلاث خلع أعطيت لكل منهم[1] .

قلنا إن يعقوب سار إلى جرجان لسببين : أحدهما كسب رضاء الخليفة ، والآخر استعادة عبد الله السجزى . وقد سلك يعقوب طريق اسفرايين ، وكان يرافقه « بديل كشى » أحد الخوارج ، وقد استمال يعقوب أحد أعوان حسين بن زيد فى دهستان[2] وقد عاون هذا الرجل الذى يقال إن اسمه « سكنى » يعقوب فى حملته ، إذ يقال إنه عند ما وصل يعقوب إلى دهستان أرسل سراً إلى « سكنى » وقدم له وعوداً كثيرة ، وتعهد له أن يعطيه ولاية جرجان واستراباد إذا خالف حسن بن زيد وانضم إليه وقد أدخل سكنى يعقوب وجيشه إلى سارى فى عام ٢٦٠ هـ .

فرار حسن :

علم حسن بن زيد بتقدم يعقوب ، فجمع بقية الخراج من الأهالى ، وكان نحو ١٣ مليون درهم ، ثم صحب عبد الله بن محمد وهربا معاً إلى جبال الديلم ، وتعقبهم يعقوب . وكان حسن بن زيد قد عين نائبا عنه فى سارى اسمه حسن عقيقى ، فحمل عليه يعقوب حملة هزم بها جيش حسن عقيقى هذا الذى استطاع أن ينجو بنفسه .

---

(١) الطبرى، جـ ٨ ص ١٥ .

(٢) دهستان : كانت ناحية فى شمال جرجان كانت عاصمتها تسمى آخور ولعل تسميتها نسبة إلى طوائف داهه .

ويوصف حسن بن زيد بأنه كان رجلا عظيم الجثة كبير البطن كثير اللحم ، ولهذا كان قد أعد فى كل قرية من القرى التى تقع على طريقه بغلا قوياً يستطيع أن يتحمله فى حالة الطوارىء ، واستطاع حسن بهذه الوسيلة أن يهرب أمام يعقوب ، ويذهب إلى آمل دون أن يتوقف فى الطريق .

قبض يعقوب على بعض أعوان حسن بن زيد ، كما استطاع العثور على بعض السادات من آل على بن أبى طالب ، فأسرهم وأساء معاملتهم نتيجة للحقد الذى تولد لديه من حسن ابن زيد ، ويبدو أن يعقوب أرسل كثيراً من هؤلاء السادات أسرى إلى سيستان ، وكان هذا فى أواخر رجب عام ٢٦٠ هـ (مايو ٨٧٤ م) .

الدار فى بيت الأعـداء :

تتبع يعقوب حسن بن زيد الذى ترك آمل إلى وديان « كندشان » ووصل إلى شالوس (چالوس) . ووصل يعقوب إلى معسكر حسن ، فلم يجد به أحداً من الجند ، فأمر بأخذ ما يمكن أخذه منه ، ثم أشعل فيه الدار ، فأحرقه كله . أما حسن بن زيد فقد ذهب إلى « كلار » ثم إلى « شير » ، فلما علم يعقوب بوصول الداعى الكبير إلى « شير » أرسل إلى حاكمها رسالة طلب منه فيها أن يسلمه ذلك العلوى ، وقال له « إذا لم تسلمنى ذلك العلوى ، فسأدخل شير » ، ولكن أهل البلدة هبوا لحماية حسن بن زيد ، ولم يسلموه فرجع يعقوب ولكن أهل شير أغاروا على معسكره ونهبوه[1] . وقد استمر يعقوب يتعقبه مدة شهرين حتى وصل إلى « كجور » فأمر أن يؤخذ خراج عامين من أهل رويان بالقوة والقسر ، فأدى هذا إلى سوء أحوال الأهالى حتى إنه لم يبق لديهم بعد ذلك شىء من الطعام أو اللباس[2] .

أمر يعقوب بتعيين إبراهيم بن مسلم الخراسانى حاكما على شالوس ، وليث بن فنه حاكماً

(١) تاريخ رويان ، ص ٧٠ .
(٢) تاريخ طبرستان ، ص ٢٤٥ .

زويان ، « وبادوسبان » حاكماً لطبرستان ، وفكر هو فى العودة إلى آمل ، ولكنه لم يكد يبتعد كثيراً عن رويان حتى انتهز الأهالى الفرصة ، وثاروا على إبراهيم بن مسلم ، وأحرقوا منزله ، وقتلوا كل رجاله .

ويلاحظ أن غضب يعقوب وفقده لأعصابه يبدأ من هذه المرحلة ، وتكاد تكون نفس هذه الحالة هى التى أصابت الإسكندر بعد هزيمته فى صحراء بلوشستان . أو مثل الحالة التى أصابت نابليون بعد أن قهرته ثلوج روسيا ، أو ما أصاب عطيل بعد جبال الألب ، أو ما لحق بنادرشاه القاجارى الحروب فى غابات الهند وصحاريها حيث تتغلب هنا إحدى القوى القاهرة — وهى الطبيعة — على يعقوب ، وهو ما لم يكن فى استطاعته أو فى استطاعة غيره أن يقف فى وجهه ، وبلغ من غضب يعقوب أنه عاد وهو يحرق خلفه تلك البلاد ، ويقطع أشجارها ، أو يشعل النار فيها ، وسار من طريق كندشان إلى كلار ، وعزم على العودة ، ولكن الطبيعة لم تكن قد تركته بعد .

ماء يذيب الحديد :

كانت أولى حملات الطبيعة ضده ، هى هطول أمطار مازندران الغزيرة ، وقد ووجه جنود الجيش — وهم من أهل سيستان — بأمطار كالسيول ، لم يسبق لهم قط أن رأوها ، إذ استمرت تنهمر أربعين يوماً دون انقطاع ، مما جعل الجيش لا يستطيع الإنتقال من مكان إلى آخر[1] . وكانت هذه أول ضربه ضعضعت « سندان سيستان » وهو اللقب الذى كان حسن بن زيد العلوى يطلقه على يعقوب لثباته وصموده الذى يفوق الحد[2] .

ولم يقتصر الأمر على المطر بل حدث زلزال مدمر ، دفن ألفين من جنود يعقوب تحت الطين والتراب .

---

(١) الطبرى ، جـ ٨ ص ١٧ .
(٢) الوفيات ، جـ ٥ ص ٤٦٤ .

وفى مواجهة غضب الطبيعة فى مازندران : فقد سنداں سيستان ثباته وروحه المعنوية العالية كما سنرى .

أخبار مزعجة :

بلغ يعقوب من ناحية ، أن جماعة من نساء جبال مازندران طلبن من رجالهن استدراج يعقوب بأية وسيلة ، إلى وديان الجبال ، حتى إذا ما دخلها،هجمت عليه النساء من كل صوب وحدب يلقين عليه الصخور والأحجار من فوق قمم الجبال ، فتدمر جيشه وتقتل جنده . فأدرك يعقوب أن بقاءه فى تلك المنطقة يشكل خطراً عليه وعلى جيشه . كما بلغه من ناحية أخرى ، أن أهل بخارى قرأوا الخطبة باسم نصر بن أحمد السامانى ، وأسقطوا منها اسم يعقوب ، وذلك قبل دخول الأمير إسماعيل إلى بخارى[١] . وكان هذا فى أول يوم جمعة من شهر رمضان المبارك عام ٢٦٠ هـ (أواخر يونيو ٨٧٢ م) ،

وبلغ يعقوب كذلك ، أن حسين بن طاهر دخل مروروذ ، ورافقه حاكم خوارزم مع ألفين من الأتراك . وقد أزعجت أخبار خراسان وخوارزم يعقوب أيما ازعاج ، كما وجد يعقوب ، أثناء عودته ، أن حسن بن زيد وأصحابه قد دمروا أكثر الجسور والمعابر أمام جيشه ، وخربوا الطرق ، ولهذا فإن كثيراً من دواب يعقوب ، وحتى أفراد جيشه لاقوا حتفهم أثناء العودة[٢] .

أدرك يعقوب استحالة القبض على حسن بن زيد العلوى فى جبال البرز وفى وسط غابات ووديان مازندران ، بجيش مكون من راكبي الجمال من أهل سيستان الذين اعتادوا على القتال فى الصحارى الواسعة ، وعلى رمال سيستان وكرمان ، وليس القتال على صخور مازندران المرطوبة وأراضيها الوحلة التى تنزلق عليها الجمال وتسقط .

---

(١) تاريخ بخارى ، ص ٩٣ .
(٢) الطبرى ، ج ٨ ص ١٧ .

سار يعقوب صوب آمل ، ومنها ذهب إلى سارى ، وأثناء عودته لم يتوان عن القتل والنهب والسلب ، وعاد مرة أخرى إلى كجور ، ولكنه عاد إليها وقد أهلك الذباب كثيراً من جماله[1] .

والغريب أن يعقوب سار عن طريق الساحل إلى « كرد آباد » ، ثم سلك طريق « ناتل » وأخذ خراج عامين عن السهول ، مثلما أخذه عن الجبال ، ثم رجع إلى آمل . فلما وصلها استعرض جيشه ، فاتضح أن هناك نحو أربعين ألفا من جنده قد هلكوا فى هذه الحملة التى لم تحقق هدفاً من أهدافه . فعبد الله بن محمد السجزى الذى أعد يعقوب من أجله هذه الحملة ، بقى فى منأى عنه ، إذ أن السجزى ، بعد فرار حسن بن زيد العلوى ، أنفصل عنه ، ثم هرب عن طريق بحر قزوين مع أخوته ، ثم عاد وتوجه إلى الرى ، والتجأ إلى حاكمها الصلابى ، وقد كتب يعقوب رسالة إلى أمير الرى — الصلابى — فى ذى الحجة عام ٢٦٠ هـ أخبره فيها أن الخليفة منحه إمارة الرى[2] .

تقدم يعقوب حتى وصل إلى « خوار » إحدى قرى الرى[3] ، ومن هناك بعث برسالة إلى الصلابى يطلب منه فيها تسليمهم — السجزى وشقيقيه — وألا فإنه سيعامله نفس المعاملة التى عامل بها محمد وحسن . . . نخشى أهل الرى ، وأرسل الصلابى الأخوين إلى يعقوب ، فحملهما معه إلى نيسابور ، وصلبهما فى محلة شادياخ بمسامير من الحديد على أحد الجدران[4] .

أما حاكم الرى فقد أرسل للخليفة يخبره بما حدث ، وأشار إلى أن يعقوب أدعى أن الخليفة منحه حكومة الرى . وقد رد عليه الخليفة بأن هذا الادعاء غير صحيح وأبدى غضبة واستنكاره ، وأمر أن يلقى القبض على أصحاب يعقوب وغلمانه فى ديوان الخلافة فى بغداد ،

---

(١) حبيب السير ، ج ٢ ص ٣٤٧ و ٤٠٨ .
(٢) وفيات الأعيان ، ج ٥ ص ٤٥٥ .
(٣) الطبرى ج ص ١٨ .
(٤) زين الأخبار ، ص ١٤ .

وسجنهم ومصادرة أموالهم . كما وصل إلى بغداد فى هذه الأثناء جماعة من أهل جرجان يتظلمون من ظلم يعقوب وقسوته .

عزل يعقوب من حكومة خراسان :

غضب الخليفة المعتمد مما قام به يعقوب وبعث برسالة إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم العراق آنذاك ليجمع حجاج خراسان وطبرستان وجرجان والرى ، ويقرأ عليهم منشور الخليفة بأن يعقوب لم يعد بعد حاكما على خراسان . ففعل عبيد الله ما طلب منه ، وأرسل أيضا ثلاثين نسخة من المنشور إلى سائر الأنحاء ليطلع عليه الناس (١) . وكان مضمونه . « لقد كنا منحنا يعقوب بن الليث ولاية سيستان ، والآن وقد ظهرت على وجناته علامات الطغيان فاننا نحكم بامنه » (٢) .

والواقع أن الخليفة أراد أن يضرب آخر ضرباته ليقضى على أمر يعقوب من أساسه : فأعلن تكفيره واتهمه بالباطنية وأرسل إلى أمراء خراسان أن يعقوب قبل دعوة الباطنية (٣) ، ويريد أن يسىء إلى الدين ، فعلى كل مؤمن أن يعارضه (٤) وبهذا وصمت جبهة يعقوب بتهمة الكفر والباطنية ، وتناقلت الأفواه هذه التهمة أيضا وهى أن الدعاة خدعوا يعقوب وأدخلوه فى زمرة الإسماعيلية ، وانه انقلب على الخليفة (٥) .

أدرك يعقوب أن حملته على السادة العلويين ، ولو أنها كانت لصالح الخليفة الا أنها لم تحظ بالرضى والتأييد ، وقد تأثر يعقوب كثيرا لأنه أساء إلى جماعة من السادة وآذاهم

---

(١) وفيات الأعيان، ج ٥ ص ٤٥٥ .

(٢) أحياء الملوك ورقة ٢٧ .

(٣) كلمة الباطنية كانت تطلق على جماعة تقول بان جميع جوانب الشرع ومنها القرآن ، لها معان باطنية غير ظاهرها ، وكانت تقول بالتاويل فى القرآن والحديث ، وعلى كل فقد كفروا وعذبوا كثيراً خاصة الإسماعيلية السبعية وقتل منهم الكثير ، وقد أتهم الفيلسوف ناصر خسرو بهذه التهمة وتخفى سنوات طويلة ، وأن كان قد أقر بباطنيته إذ يقول بالفارسية ما ترجمته :

أنا باطنى باطنى باطنى حتى تموت أنت أيها الظاهرى

(٤) تاريخ كزيده ، ص ٣٣٤ .

وأصاب بلادا واسعة بالعار والدمار . فبعث برسالة إلى نائبه فى سيستان كى يطلق سراح العلويين ويعطيهم النفقة اللازمة ليعودوا إلى ولاياتهم . وقد أطلق سراحهم جميعا ، وكان منهم أبو عبد الله محمد بن زيد شقيق حسن بن زيد [١] ، وقد عاد هذان الأخوان إلى مقرهما فى طبرستان ، وبقيا فيها إلى أن قضى على حكومتيهما أسماعيل السامانى فى عام ٢٧٨ هـ [٢] .

نتائج حملة جرجان .

يمكن القول إن حملة جرجان كانت من حملات هذا البطل التاريخى عديمة الجدوى ، والتى لم يكن لها من نتيجة سوى قتل عبد الله السجزى ، وقد أقدم عليها يعقوب دون اعتبار للعوامل الطبيعية وحالة الجيش والذخيرة والسلاح . ولعلها تشبه الحملات الفاشلة التى يقدم عليها أبطال التاريخ بعد حكمهم مدة طويلة نتيجة للغرور والتهور الذى ينتابهم . ولقد كان لهذا الفشل أثر على أعصاب يعقوب ، وبالتالى على سلوكه وأعماله فى هذه الحملة ، مثل صلب عبد الله بن محمد السجزى بالمسامير على الحائط ، أو تحصيل خراج عامين من أهالى رويان ، وظلم الناس وتعذيبهم . وتغير كل عاداته وأخلاقه بشكل عام ، وهى على مايبدو نتيجة لهزيمة جيشه ، وهو فى هذا شبيه بالمرض الذى يبتلى به كل الجبارين والمستبدين فى التاريخ .

خضوع أمراء خراسان .

تركت فتوحات يعقوب وانتصاراته أثرا فى أذهان أهل خراسان ونفوسهم ، فلما عاد إلى نيسابور وأقام هناك توافدت عليه جماعات العصاة والمنشقين والعيارين التى كانت قد

(١) تاريخ طبرستان ، ص ٢٣٦
(٢) حبيب السير ، ج ، ص ٤١١

التجأت إلى جبال خراسان وحوالى قهستان خارجة على حكومة الطاهريين . فلما طوى بساط هذه الحكومة ولم يبق هناك سبب لعصيانها جاءت إلى يعقوب مستسلمة مسلمة . وكان من بين الوافدين إبراهيم بن مسلم رئيس جماعة الصعاليك ، وإبراهيم بن الياس ابن أسد ، وأبو بلال الخارجي وإبراهيم بن أبى حفص ، وأبو طلحة وأحمد بن عبد الله الخجستاني (الهراني) . وكان أحمد بن عبد الله هذا هو أهم الوافدين لأنه كان مثل يعقوب وأخيه من الطبقة الدنيا واشتغل في بداية أمره مكاريا وقضى أيامه الأولى في مرافقة القوافل ، ولكنه يذكر أن يعقوب كان السبب في رفعة شأنه

الرفعة ولو كانت بين أنياب أسد :

سأل أبو أحمد بن عبد الله الخجستاني [illegible] كنت مكاريا [illegible] إلى الإمارة [illegible] خراسان ؟

قال : « كنت يوما فى بادغيس فى خجستان ، أقرأ ديوان حنظلة البادغيسي ، فوقعت على هذين البيتين ، (وترجمهما بالعربية) :

الرفعة ولو كانت فى فم أسد كاسر   خاطر وخذها من فم الأسد

فإما العظمة والعز والنعمة والجاه   أو واجه الموت وجها لوجه كالرجال

[illegible] على الحال التى كنت فيها [illegible] على بن الليث شقيق يعقوب بن الليث ... وكان طائر رفعة دولة الصفاريين يحلق فى سماء عزهم ، ولما عاد يعقوب من خراسان إلى غزنين عن طريق الجبال طلبنى على بن الليث من رباط سمكين ، وجعلني على شرطة الإقطاعيات ، وقد اخترت من هذه القوة (شرطة الإقطاعيات) مائة فارس إلى جانب عشرين فارسا كانوا لى ، وكانت كروخ إحدى الإقطاعيات لعلى بن الليث

والأخرى خواف نيسابور . فلما وصلت إلى كروخ عرضت على أهلها منشور ولايتى ، فما حصلت عليه منهم من أموال قسمته على الجند فزاد عدد فرسانى إلى ثلثمائة ، فلما وصلت إلى خواف وعرضت المنشور لم يقبلنى أعيانها وقالوا « لا حاجة لنا فى أ كثر من عشرة من الشحنة » فاستقر رأيى على الخروج على طاعة الصفارين ونهبت خواف ، وتوجهت إلى روستاق بشت ثم ذهبت إلى سبزوار ، وكان قد اجتمع حولى ألفان من الفرسان فجئت إلى نيسابور واستوليت عليها ، وأخذ أمرى فى الارتفاع حتى استوليت على كل خراسان ، وكان السبب فى كل هذا هذين البيتين من الشعر .

وقد بلغ من رفعة شأن هذا المكارى العيار أن بلغ عطاؤه فى إحدى الليالى فى نيسابور ثلاثمائة ألف دينار وخمسمائة جواد وألف ثوب .

آخر أيام حكومة خراسان :

قلنا إن أحمد كان قد أعلن العصيان بعض الوقت وانقلب على الصفارين ولكنه جاء مسلماً على يعقوب عندما وصل إلى نيسابور ، كما سلم له أيضاً ثلاثة من الأخوة العصاة وهم إبراهيم وأبو حفص يعمر حاكم بلخ وأبوطلحة . ويقال إن إبراهيم عندما دخل على يعقوب فى نيسابور — وكان الهواء بارداً فى ذلك اليوم — قام يعقوب بخلع الفراء الذى كان يضعه على كتفيه وألبسه إبرهيم لتكريمه واستمالته .

وقد حسد أحمد الخجستانى هذا الرجل . واختار وقتاً مناسباً ليقول له ذات يوم : « ألم تشعر بأن عمل يعقوب هذا سوف يكلفك الكثير ، لأنك تعلم أن يعقوب غدر بكل من خلع عليه ؟ » وقد ثار الشك فى نفس إبراهيم لعلمه بماضيه . وأثناء الحديث الذى تبادلاه تساءل ابراهيم قائلاً : « وماذا على أن أعمل ؟ » فقال له الخجستانى : « السبيل هو أن نفر معاً ونذهب إلى أخيك أبى حفص يعمر فى بلخ . لأننى أنا الآخر بت أخشى على نفسى من يعقوب » . وكان أبو حفص قد كون لنفسه مركزاً قوياً فى بلخ آنذاك وحاصر أبا داود الناهجورى هناك ، وكان معه نحو خمسة آلاف رجل .

(١) چهار مقالة ، ص ٤٣ .

تشاور هذان الرجلان فى الأمر ، واتفقا على أن يفرا ليلا . ووصل إبراهيم إلى موعد لقائهما مبكراً نحو ساعة . وظل ينتظر ولكنه لم ير أحمد الخجستانى . فشك فى أن يكون فى الأمر مكيدة ، ولم يستسغ التأخير ، ورأى أن يهرب وحده . فسار قاصداً سرخس . أما أحمد الخجستانى فإنه عندما وصل إلى مكان اللقاء ولم يجد صاحبه شك بدوره وذهب إلى يعقوب وحدثه بما حدث . ولعله خشى أن تنكشف مؤامرتهما فأرسل يعقوب فى أثر إبراهيم من لحق به فى سرخس وقتله هناك . ومنذ ذلك الحين ازدادت ثقة يعقوب فى أحمد الخجستانى .

وعندما أراد يعقوب العودة إلى سيستان عيّن عزيز بن السرى نائباً عنه فى نيسابور ، وأعطى حكومة هرات لأخيه عمرو ورأى عمرو من المصلحة أن يعين من قبله طاهر ابن حفص البارغيسى . وبهذا لم ينل أحمد الخجستانى شيئاً من ولاية خراسان مع أن كل نشاطه كان للوصول إلى حكومة إحدى النواحى .

وفكر الخجستانى فى فكرة أخرى، ورأى أن يزرع الشقاق بين الأخوة الصفاريين وأن يصطاد فى الماء العكر ولما كانت علاقته بعلى بن الليث — شقيق يعقوب — علاقة أخوية ، فقد ذهب إليه قائلا : « إن أخويك (يقصد يعقوب وعمراً) قد اقتسما المملكة بينهما ولم يتركا لك شيئاً ، وصلاح أمرك أن تتعاون معى لآخذ لك حقك منهما » . وقد خدع على وأخذ يتعاون معه ، واستأذن أحمد من يعقوب فى أن يخرج من نيسابور ويذهب إلى بلدته فوافق يعقوب ، وأثناء الوداع بالغ يعقوب فى احترام أحمد الخجستانى وخلع عليه . ومع هذا فقد أدرك بحاسته السادسة أن رحيله هذا له دوافعه وأسبابه ، وعندما خرج أحمد من الغرفة التفت يعقوب إلى أصحابه وقال :

« أقسم بالله أن خروجه هذا خروج رجل طاغ ثائر ، وأعلن أن هذا آخر عهدنا به وطاعته لنا »[1] .

ولقد كان إدراك يعقوب صحيحاً ، فلم يمض وقت طويل حتى كان أحمد بن عبد الله الخجستانى قد اختار نحو مائة رجل وتحصن بهم على أبواب نيسابور ، ثم أخرج عاملها ،

---

(١) ابن الأثير ، جـ ٨ ص ١٠٥ .

وبعد ذلك استولى على قومس (سمنان) وبسطام ، ولما هرب عزيز بن السرى عامل يعقوب على نيسابور ، عين أحمد عاملا من قبله ، وبقى هناك إلى أن قتل فى شوال عام ٢٦٦ هـ ـ فى أيام عمرو بن الليث .

العودة إلى سيستان :

قلنا إن يعقوب بعد أن نظم أمور خراسان سار من نيسابور إلى سيستان ، وفى هذه الأثناء وصل إلى كل عمـــال خراسان منشور من الخليفة يطلب من كل منهم الاحتفاظ بولايته . وكان الخليفة يرمى من وراء هذا العمل إلى منحهم الاستقلال و مواجهة يعقوب، وإثارتهم عليه كما وصلت إلى يعقوب أنباء مقلقة عن سيستان جعلته يعجل بالسير من خراسان فى جمادى الأولى عام ٢٦١ هجرية (فبراير ٨٧٥) [١].

هدية تسر الخليفة :

عندما عاد يعقوب إلى سيستان وجد أن حملته على جرجان - ولو أنها كانت لقمع حسن ابن زيد العلوى والقضاء عليه ، وهو واحد من أهم خصوم الخليفة — إلا أنها لم تحقق أهدافها ولم تستدر رضاء الخليفة عليه ، كما كان يقصد ، لهذا أمر أن يفصل رأس عبد الرحمن الخارجى ـ الذى كان الخوارج قد قتلوه قبل ذلك بقليل ـ وأرسله مع وفد ورسالة إلى المعتمد[٢].

كان عبد الرحمن الخارجى ـ كما سبق أن قلنا ـ قد أصبح ملاذا للمناوئين للخلفـــاء العباسيين فى المشرق ، وجمع من حوله الخوارج ، وادعى الخلافة ، وأطلق على نفسه لقب « المتوكل على الله » . وكان طبيعيا أن يصبح موضع غضب ديوان الخلافة الشديد . وعندما أراد يعقوب أن يبعث بتقرير عن أعماله إلى ديوان الخلافة رأى أن الوقت مناسب ليرسل إلى بغداد هدية تسر الخليفة ، ولهذا أرسل رأس عبد الرحمن الخارجى،ضمن الهدايا الـكثيرة الأخرى مع رسالة ذكر فيها أن وضع محمد بن طاهر فى السجن ، لم يرض أمير المؤمنين واستنكره ، ولـكنه قبل قتل عبد الرحمن ، وهذا رأسه ».وقد أمر الخليفة أن يطاف بالرأس

(١) وفيات الاعيان، ج ٥ ص ٤٥٥ .

(٢) تاريخ سيستان، ص ٢٢٥ .

فى بغداد ، فطافوا به وكانوا ينادون : « هذا رأس من ادعى الخلافة ، قتله يعقوب بن الليث وأرسل رأسه »[١].

وعلى أية حال ، وجد الخليفة المعتمد نفسه مضطرا ليرد على كتاب يعقوب ، فبعث إليه رسائل ودية أدت إلى تقوية موقف يعقوب ؛ الذى أحس بصواب فكرة استمالة الخليفة [٢].

ولكن يعقوب لم ينس ما قام به الخليفة من إعطاء الاستقلال لحكام خراسان ، وخصوصا تلك الرسالة التى أرسلها إلى عماله بتكفير يعقوب ، فقرر أن يجعل هدفه بغداد نفسها ، لأنه أدرك أن كل هذه المشاكل والاضطرابات تنبع من هناك ، فاذا لم يضع حداً لأمر بغداد فانه لن يشعر بالطمأنينة لا من الشرق ولا من الغرب ولا من الشمال ، وقد ساعدت الظروف يعقوب فى حملته على بغداد ، إذ أنه فى عهد الخليفة المعتمد ارتفع أمر صاحب الزنج فى البصرة ، واستولى حسن بن زيد العلوى على الرى وجرجان ، وسيطر أحمد بن عبدالله الخجستانى على خراسان ، وأخضع سرحب الجمال وأخوته مرو وسرخس ، وثار العلويون فى المدينة . وحدثت مذبحة عظيمة ونهبوا الكعبة ، وقطعت قبائل فزارة وقيس وطىء طرق الحج . وخرج فى آذربيجان شخص علوى لقب نفسه « الرافع بالله » فاجتمع عليه كثير من الناس . وقد ظهر فى مصر أحمد بن طولون ، وكان رافع بن أعين يصول ويجول فى خراسان .

وقبل الخوض فى هذا الموضوع لا بأس من أن نشير باختصار إلى وضع ديوان الخلافة آنذاك

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة .

الفصل الثامن عشر

« قامت دولة العباسيين على الغدر والمكر ،
انظروا ماذا فعلوا بأبي سلمة ، وبالبرامكة وبالفضل
ابن سهل ، مع كل الخدمات التي أدوها لهم ،
فلا كان من يعتمد عليهم »

« من أقوال يعقوب الليث »

ليالى بغداد

خليفة كل سبع سنوات :

أصيبت الدولة العباسية بحالة من الاضطرابات وعدم الاستقرار ابتداء من خلافة المعتصم (٢١٨ هـ) حتى موت المعتمد (٢٧٨ هـ) ، أى لأكثر من نصف قرن ، وهى نفس المدة التى نتناول أحداثها فى سيستان .

ونذكر أولا أنه خلال هذه الفترة التى تزيد عن النصف قرن تولى الخلافة ثمانية خلفـــاء هم على التوالى : المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد ، أى بمتوسط أكثر قليلا من سبع سنوات لـكل منهم . وهذا الاضطراب وقصر فترات الخلافة يرجع إلى عدم الاستقرار السياسى فى بغداد وسائر بلاد الخلافة [1] . ونشير هنا إلى بعض الحوادث التى وقعت منذ عهد المعتصم والتى هزت كيان الخلافة وأضعفت سلطان الخليفة [2] .

أرتفع شأن بابك خرم دين (بابك الخرمى) فى أيام المعتصم ، إذ أثار الفوضى فى نواحى

آذربيجان وكردستان ، مع أنهم قبضوا عليه عام ٢٢٢ هـ فى عهد هذا الخليفة ، وحملوه إلى سامراء وشنقوه وأرسلوا رأسه إلى بغداد عام ٢٢٣ هـ[١].

وبعد عام ، أى فى سنة ٢٢٤ هـ ظهر « مازيار قارن » فى جبال طبرستان[٢]

ويبدو أن خروجه كان بتحريض من الأفشين قائد جيش الخليفة [٣]، وكان يرمى من وراء هذا إلى أقصاء حكومة عبدالله بن طاهر الموالية للخليفة عن خراسان . وعلى الرغم من القاء القبض عليه أيضاً ، وضربه بالسوط ، حتى قتل سنة ٢٢٦ هـ ، إلا أن الاضطرابات وعدم الاستقرار لم ينتهيا بموت هذين الرجلين .

خراج من أصحاب السلطان :

توفى المعتصم عام ٢٢٧ هـ واعتلى أبنه أريكة الخلافة بلقب « الواثق بالله » وفى عهده خرج أحمد بن نصر بن مالك أحد علماء السنة ، وأحدث اضطرابا فى بغداد ، ومع أن مؤامرته كشفت وأخذ أحمد ورفاقه وحوكموا فى حضور العلماء ، ثم قتلوا ، إلا أن الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة ازداد عن ذى قبل . وقد قل الخراج على أثر الاضطرابات وعدم الاستقرار فى الولايات ، وخلت الخزانة ، فاضطر الواثق لاتخاذ تدابير أخرى منها أنه حينما لم يصل الخراج إليه عام ٢٢٩ هـ وأخذ الغلمان الأتراك يطالبون ديوان الخلافة برواتبهم ونفقاتهم ، أمر أن يؤخذ الخراج من الكتاب والوزراء . وقد أخذ منهم بعد الضرب بالسياط الأموال التالية :

أخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار[٤].

---

(١) أعطى المعتصم لمن جاء به مليونى درهم ، النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٤٦ – ٢٣٨ (م) .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٤٠ (م)

(٣) اسمه حيدر بن كاوس . (م)

(١) ضرب أحمد بن اسرائيل الف سوط ، وبلغ ما أخذ منه هذه المرة مليوني درهم . . . . النجوم الزاهرة، جـ ٢ ص ٢٥٦ (م) .

ومن سليمان بن وهب أربعمائة ألف درهم .

ومن حسن بن وهب أربعة عشر الف درهم

ومن أحمد بن الخصيب وكاتبه مليون دينار .

ومن إبراهيم بن رياح وكاتبه مائة الف دينار .

ومن نجاح بن سلمة ستين ألفا .

ومن أبي الوزير مائة وأربعين ألف دينار .

وصادر أموال جماعة آخرين، وبلغ مجموعها نحو مليونين وثمانمائة ألف دينار [١].

وكان الواثق شرها فى مأكله وشرابه ، فكان يأكل دون أن تكون به حاجة إلى طعام فى أغلب الأحيان ، فابتلى بمرض الاستسقاء ، فأشعل طبيب تنورا حتى حمى ثم أخرج منه النار وأجلس فيه الواثق إلى أن برىء . ولكن الواثق عاود الأفراط فى الأطعمة المضرة ، فوضعوه ثانية فى التنور المحمى ، لكنه لم يطق حرارته هذه المرة فطلب أن يخرجوه منه ، ولكن شعلة حياته انطفأت فى نفس ذلك اليوم من عام [٢] ٢٣١ هـ وكان عمره ٣٦ عاما [٣].

وبعد الواثق حاول الوزير ابن الزيات أن يجلس ابن الخليفة الصغير ، وهو محمد ابن الواثق على عرش الخلافة ، ولكن وصيف التركى الذى كان من غلمان ديوان الخلافة الأقوياء قال له : « ألا تخجل من إجلاس شخص للخلافة لم يصل إلى درجة يمكن معها الصلاة خلفه . . . » وقاوم وصيف حتى استطاع إجلاس جعفر بن المعتصم على عرش

(١) الخراج فى الدولة الإسلامية، ص ٤٦٩ .

(٢) حبيب السير، ج ٢ ص ٣٦٧ .

(٣) توفى عام ٢٣٢ هـ ، النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٢٦٢ (م) .

الخلافة ولقبه « المتوكل على الله » . وكان هذا الخليفة معروفا بالشر وبسوء الخلق ، وكان الشخص الذى يزيد فى التهريج فى مجلسه يزداد قربا منه[١]

والماء فى المشهد الحسينى .

وكان هذا الخليفة هو الذى أمر أن تضع الأقلية اليهودية والمسيحية الزنار ، وأن تخيط نساؤها علامة على ألبستهن ، ولم يسمح لأى شخص من هذه الطائفة بالعمل فى الديوان ، كما منعهم من الركاب الحديدى ، بل كلفهم بوضع أقدامهم فى ركاب من الخشب[٢] وبهذه التصرفات الخرقاء أغضب الأقليات . ثم أمر أن يحرم الشيعة والمعتزلة من زيارة قبور أئمتهم ، وأمر أن تسوى قبور الأمام الحسين وشهداء كربلاء بالأرض ؛ وأن يجرى فيها الماء لزراعتها[٣] .

ولا شك أن هذه الأعمال قد أثارت ضده كثيراً من الناس ؛ وقد حلت كوارث الطبيعة بنواحى كثيرة من دولته وأصابتها بقحط شديد ؛ ومن هذا ماحدث عام ٢٤٢ هـ . نتيجة لزالزل هدم ٣١ قرية من قرى القيروان ؛ ولم ينج من سكانها سوى اثنين وأربعين شخصاً ، وحدث فى نفس ذلك العام زلزال فى الرى وجرجان ونيسابور ، كما تهدم ثلث مبانى بسطام نتيجة لزلزال[٤] . ولا شك أن هذه الزلازل زادت فى قلق النـاس وانهيار

(١) حبيب السير ، ج ٢ ص ٢٦٩ ، وقد قال البعض إن الخلفاء ثلاثة : أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم الردة ، وعمر بن عبدالعزيز (رض) فى رد مظالم بنى أمية ، والمتوكل فى اظهار السنة ، لأنه نهى عن القول بخلق القرآن واستقدم العلماء وأجزل عطاياهم (النجوم ج ٢ ص ٢٧٥ و٣٢٤) . (م)

(٢) حبيب السير ، ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٣) المرجع السابق ، وكذا النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٨٤ وقد أورد هذه الحادثة فى سنة ٢٣٦ هـ . (م)

(٤) أمر المتوكل بثلاثة ملايين درهم للذين أصيبوا فى منازلهم (النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٣٠٧ و ص ٣١٩) . (م)

الأوضاع وتفشى القحط والغلاء ونقص الخراج والضرائب وطغيان الحكام وتذمر عامة الناس ، وكثرة العصاة وقطاع الطرق والثائرين ،

أسد فى مجلس الخليفة :

والواقع أن الخلافة العباسية فقدت نفوذها وسيطرتها وأبهتها منذ عهد المتوكل ، فهذا الخليفة يمكن أن يقال إنه كان مصابا بنوع من « السادزم » خفياً كان يأمر أن يطلقوا أسداً فى المجلس ، وأحياناً يلقى بأفعى فى كم أحد المساكين حتى إذا لدغته عالجه بالترياق ، وكثيراً ما كان يأمر بإحضار آنية مملوءة بالعقارب وتكسر فى المجلس فتنطلق منها العقارب ولم يكن يسمح لأحد بالتحرك[1] . ويروى أنه كان لهذا الخليفة أربعة آلاف امرأة للمتعة وكان ينام معهن جميعاً[2] .

لهذا ضعفت دولة العباسيين بعد المتوكل ، واستمر عزل الخلفاء وتنصيبهم فى يد الغلمان لنحو تسعين عاما ، وكانت هذه الأعمال تجرى على بسط قصور هارون الرشيد فى بغداد عاصمة الخلافة على نهر دجلة ، فى نفس الوقت الذى كان فيه أهالى بست وسيستان يبايعون صالح ابن نصر ويعقوب بن الليث بالقيادة والأمارة .

المنتصر أو المنتظر :

ومن مساوىء سياسة الخليفة المتوكل الأخرى أنه أخذ أملاك غلامه القوى المقتدر وصيف التركى وأمواله ووهبها للفتح بن خاقان . وقد أدى هذا إلى غضب وصيف واتفاقه مع المنتصر ابن الخليفة المتوكل ، وكان هذا الخليفة غير راض عن ابنه هذا وكان كثيراً ما يصارحه بقوله : « يجب أن تلقب بالمنتظر لا بالمنتصر لأنك تنتظر موتى » ولم يمض وقت طويل حتى

---

(١) حبيب السير ، ج ٢ ص ٢٧٣

(٢) ترجمة تاريخ العرب لفيليب حتى ، ص ١٠٨ .

اتفق الأتراك على قتل المتوكل ، فلما كانت ليلة الرابع من شوال عام ٢٤٧ هـ وكان الخليفة فى مجلس الطرب ، وقد سكر ، دخل بضعة أشخاص من الأتراك إلى دار الخلافة شاهرين سيوفهم على الخليفة ذى الأربعة والأربعين عاما[١] .

هذا الخليفة هو الذى أمر بقطع شجرة سرو كاشغر التى كان عمرها آنذاك ١٤٥٠ عاما (ويقول البعض إن النبي زردشت هو الذى زرعها بيده) وحمل خشبها إلى بغداد ، ويقولون إنه فى نفس اليوم الذى دخل فيه خشب هذه الشجرة وألواحها إلى بغداد ، قتـــل الخليفة المتوكل .

ومن تلك الساعة تسلط الأتراك ـ صانعو الخلفاء ـ على ديوان المنتصر تسلطاً تاما . وبتحريض هؤلاء الأتراك خلع المنتصر أخويه من البيعة التى كان المتوكل قد أخذها لهما ، ولما خشى الأتراك من تشتت رأيه ، وشعروا بتغير مزاجه أغروا حجاما ففصده بمبضع مسموم ، ثم قالوا « إن أمير المؤمنين بعد أن لعب بالصولجان ذهب إلى الحمام ، ولمـا خرج منه نام فى تيار الهواء فأصابه البرد ومات » . وعلى أية حال فقد بقى فى الخلافة ستة أشهر ، وعاش خمسة وعشرين سنة وتوفى عام ٢٤٨ هـ[٢] .

بعد هذا بايع غلمان ديوان الخلافة أحمد بن المعتصم الملقب بالمستعين بالله ، وفى هـــذه الأيام أضرب تجار سوق بغداد تأييداً لأولاد المتوكل ، فقام « بوقاء »[٣] قائد الجيش التركى بالهجوم بقواته على السوق وقضى على فتنتهم بحد السيف .

---

(٣) النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ص ٣٢٤ .

(١) مات بالخوانيق وهى الذبحة . . . النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ص ٣٢٨ (م) .

(٢) شغب الجند ببغداد عند استيلاء الترك على بغداد، وقتلهم المتوكل وغيره وتمكنهم من الخلفاء وأذيتهم الناس ، ففتح الترك والشاكرية السجون وأحرقوا الجسر وانتهبوا الدواوين ، ثم خرج نحو ذلك بسر من رأى ، فركب بغا واتامش وقتلوا من العامة جماعة ، فحمل العامة عليهم فقتل من الاتراك جماعة وشبح وصيف بحجر ، فامر باحراق الاسواق . . . . (النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ص ٣٢٩). (.)

وقامت فى هذه الأيام فتن متتالية فى أطراف الدولة الإسلامية وأكتافها ، ولما كان ديوان الخلافة نفسه مضطربا ، فإنه لم يستطع أن يعمل شيئاً . ومن هذه الفتن أن يحيى بن عمران إمام الزيدية بالكوفة ثار وحارب بضع مرات إلى أن قتل على يد محمد بن عبد الله ابن طاهر . ومن بعده ـ وفى نفس العهد ـ ظهر أحد أقاربه فى طبرستان وهو حسن بن زيد المعروف بالداعى الكبير ، وهو الذى تناولناه باختصار فى فصل سابق .

انقسام الغلمان :

حدث انقسام بين الغلمان فى ديوان الخلافة ، وهرب الخليفة المستعين من سر من رأى [١] إلى بغداد خوفا من الأتراك، والتجأ إلى منزل محمد بن عبد الله بن طاهر الذى استطاع أن يؤلب خصوم الخليفة ، وأدى هذا إلى تقريب الخليفة له ، ولكن الأتراك وخصوم الخليفة عندما وصلوا إلى بغداد ، اتفقوا على إخراج المعتز من السجن ، ونصبوه خليفة ، فلما علم أصحاب المستعين بما حدث ، حاصروا المدينة ، ولكن المستعين هزم وخلع نفسه ، ثم حبس فى سر من رأى إلى أن قتله أحد حجابه [٢] سنة ٢٥٢ هـ وعمره ٣٥ عاماً ، وبلغت خلافته ثلاث سنوات وتسعة أشهر .

خليفة يقتل أخاه :

أصبحت الخلافة للمعتز لا ينازعه فيها أحد ، ولكن أول الطامعين فيه كان الأتراك

---

(١) سر من رأى أو سامراء بناها المعتصم سنة ٢٢٠ هـ لكثرة مماليكه الاتراك وتولعهم بحرم الناس ، فقال اهل بغداد للمعتصم تحول عنا والا قاتلناك . قال وكيف تقاتلونى وفى عسكرى ثمانون الف دارع ؟ قالوا : نقاتلك بسهام الليل — يعنون الدعاء ، فقال المعتصم « والله مالى بها طاقة » فبنى لذلك سر من رأى وسكنها . . . (النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤) (هـ)

(٢) ارسل اليه المعتز الامير احمد بن طولون لقتله ، فقال « لا والله لاأقتل أولاد الخلفاء » فقال له المعتز « فاوصله الى سعيد الحاجب ، » فقتله سعيد الحاجب فى شوال سنة ٢٥٢ هـ) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣٣٥ — ٣٣٦). (هـ) .

الذين « جعلوا البحر يسكن وأخرجوا منه اللؤلؤ » ويبدو أن المعتز لم يقبل ، أو أنه لم يستطع أن يحقق مطالبهم . فلم يمض وقت طويل حتى بلغه أن جماعة تعمل على تقوية أخيه المؤيد ، فحنق عليه وأمر أن يقيد ويلقى فى الثلج ، وقد ظلوا يصبون عليه الماء البارد حتى صعدت روحه إلى بارئها ، ثم ألبسوه لباسا من فرو السمور ، وعرضه المعتز على العلماء والزهاد وقال لهم « إن أخى مات ميتة طبيعية » ، ولـكن المعتز خلع من الخلافة سنة ٢٥٥ هـ نتيجة لتآمر الأتراك المعارضين له .

فى ذلك الوقت الذى كان فيه هذا الخليفة يجلس على سرج من ذهب ويخرج للنزهة فى أنحاء بغداد ، كان يعقوب مع ابن عمه ازهر يتجولان فى صحارى كرمان وطعامهما الخبز الجاف ، وقد أوقعا طوق بن المغلس من على صهوة جواده فى شراك أسرهما .

صوم الموت :

فى مثل هذه الأوضاع كان من الواضح أن ديوان الخلافة لا يمكنه أن يواجه يعقوب ، أو يتخذ اجراء لسحقه أو القضاء على ثورته ، وقام الأتراك بمبايعة محمد بن الواثق الملقب بالمهتدى بالله ، وحملوا المعتز إلى السجن[1] .

وكان موت هذا الخليفة نتيجة للتعذيب[2] ، فقد ذهب الأتراك دون إذن إلى قصر المعتز وأخذوه ومزقوا ملابسه ، وأقاموه فى الشمس ، فـكان من شدة حرارتها يضع رجلا

(١) جاء فى النجوم الزاهرة فى حوادث سنة ٢٥٥ « وفيها عظم أمر ابن وصيف وقبض على حواشى الخليفة المعتز بالله ، فسأله المعتز فى اطلاق واحد منهم ، فلم يفعل . ولازال أمره يعظم إلى أن خلع المعتز بالله من الخلافة فى رجب ، ثم قتل بعد خلعه بأيام » (جـ ٣ صـ ٢٢) . (م)

(٢) لم يقع لخليفة ما وقع عليه من الاهانة ، لأن الاتراك أمسكوه وضربوه وجروا برجله وأقاموه فى الشمس فى يوم صائف وهم يلطمون وجهه ، ويقولون له أخلع نفسك . (النجوم الزاهرة جـ ٣ صـ ٢٣ ـ ٢٤) (م)

ويرفع الأخرى ، ثم أجبرته جماعة منهم على خلع نفسه من الخلافة . وبعد ذلك وضعوه فى منزل ، وقدموا إليه أطعمة كثيرة ومنعوا عنه الماء ، حتى مات من العطش عام ٢٥٥ هـ وكان عمره آنذاك ٢٤ عاماً .

وقد أراد المهتدى فى البداية أن يظهر زهده وورعه ، ويخفى أعمال سابقيه المخالفة للإسلام ، فأمر أن تحطم الأوانى الذهبية والفضية فى خزانة الخلافة ، ومنع الناس من الشراب والغناء ، ولم يمض وقت طويل حتى اتفق الأتراك على مخالفته ، وقتل بدوره عام ٢٥٦ هـ بأيدى جماعة من الغلمان ، ولم يكن قد مضى عليه فى الخلافة إلا أحد عشر شهراً ، ولم يتعد عمره التاسعة والثلاثين . وخلفه المعتمد على الله أحمد بن المتوكل عام ٢٥٦ هـ .

ثورة العبيد :

فى تلك الأيام حدثت ثورة عظيمة فى النواحى الشرقية والجنوبية والجنوبية الشرقية من بغداد ، فهزت أركان الخلافة بشدة ، وكانت هذه الثورة هى ثورة الزنج .

وهؤلاء الزنج كانوا من العبيد الذين استوطنوا أنحاء مختلفة من بلاد العرب، واشتغلوا بالأعمال الوضيعة والحقيرة . وقد حصل المسلمون على أكثرهم نتيجة للفتوحات ، فيقال إن موسى بن نصير استولى عام ٩١ هـ على نحو ٣٠٠ ألف عبد من حروبه فى أفريقيا ، واستولى من فتح الأندلس على ثلاثين ألف بنت بكر تحولن إلى جوارى . ولقد كان هؤلاء الأرقاء البيض ذوى الجمال من بنين وبنات شراكسة ويونانيين يعملون فى قصور ألف ليلة وليلة فى بغداد كسقاة وراقصين ومسلين فى حفلات الخلفاء والأمراء . وكان هذا السيل من العبيد يتدفق من أكناف العالم إلى البلاد العربية ، حتى أن سيستان كانت ترسل إلى ديوان الخلافة مثل هذه الغنائم ، ذلك أن إيران بن رستم ـ حاكم سيستان ـ بعد هزيمته

فى صدر الإسلام تعهد أن يشترى ألف غلام وصيف[١] ويعطى لكل منهم قدحاً[٢] من الذهب ويرسلهم كهدية إلى الخليفة[٣] .

أما العبيد الأجلاف وكبار السن ، وخاصة من الزنوج ، فإنهم كانوا يرسلون للعمل فى المزارع وإصلاح الأراضى الملحة والمستنقعات ، خاصة فى جنوب العراق وحول نهرى دجلة وكارون ، وهى المناطق التى تحتاج إلى عمال كثيرين وأقوياء .

وكان هؤلاء العبيد يتزايدون يوماً بعد يوم ، فلما تضخم عددهم أخذوا يتجمعون فى بعض مناطق العراق ، ثم بدأوا فى القيام بمظاهرات واضطرابات ، وأحياناً كانوا يسببون بعض المشاكل . ومن هذه الاضطرابات ثورة الأسد الزنجى فى زمن الحجاج ، والتى انتهت بهزيمة الزنج .

وقد استمر الخلاف بين العبيد وأصحاب الأملاك إلى أن استطاع المأمون بصورة عادلة نسبياً أن يهدئهم عن طريق تعيين أنصبة الملاك والعبيد من المحاصيل .

وقد مضى وقت طويل على هذا ، حتى كانت سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) حينما بدأت أول ثورة عامة للزنوج بقيادة شريح الحبشى . وفى عام ٢٥٥ هـ اختار الزنوج على بن محمد العلوى[٤] لرئاستهم ، وقد استطاع أن يستولى على بعض القرى والقصبات ، وأطلق على نفسه « صاحب الزنج » .

---

(١) الوصيف هو الذى تبدأ لحيته فى الأنبات (م)
(٢) القدح هو الكأس إذا كان فارغا ، فاذا ملىء سمى كاسا(م)
(٣) تاريخ سيستان ، ص ٨٢ .
(١) زعم انه على بن محمد بن أحمد بن على بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب وهذا نسب غير صحيح . ولكن اسمه فيما ذكر على بن محمد بن عبد الرحيم ، ونسبه فى عبدالقيس ، وأمه قرة بنت على بن رجيب بن محمد بن حكيم من بنى اسد بن خزيمه من ساكنى قرية من قرى الرى ، يقال لها ورزنين ، بها كان مولده ومنشأه ، وقد احله أهل البحرين بمحل نبى فجبى الخراج ونفذ فيهم حكمة ، وقد قاتلوا أصحاب السلطان بسببه (ارجع الى ابن الاثير جـ٩ص١٣ والطبرى قسم ٣ صـ١٧٤٢ وتاريخ ابن الوردى جـ١ ص ٢٣٣ وتاريخ أبى الفدا جـ ٢ ص ٢٢٨ والنجوم الزاهرة جـ٣ ص٢١)(م)

وفى سنة ٢٥٧ هـ سقطت مدينة البصرة فى أيدى الزنج ، ولم يكن قد مضى على خلافة المعتمد إلا نحو عام ، ولم يكن يهتم بعظام الأمور ، بل كان مشغولا بملذاته والوقوف على علم الموسيقى ، وكان يقضى أغلب وقته مع المغنين والمطربين ، ويهتم بترتيب أصناف الخمور والمسكرات ولم يكن له من منصب الخلافة إلا اسمه[١] .

وفى عام ٢٥٨ هـ كلف الخليفة المعتمد أخاه الموفق بقتال صاحب الزنج، فالتقى بهم على مقربة من البصرة ولـكنه هزم وعاد إلى واسط ، ثم هزم فى المعركة الثانية أيضاً .

وفى هذا العام ــ ٢٥٨ هـ ــ تفشى وباء شديد على ضفاف نهر دجلة فقتل جماعة كبيرة فى بغداد وسر من رأى وواسط ، وانتشرت الفوضى والفقر والمرض والرعب والانقلابات فى كل أنحاء ما بين النهرين .

وفى هذه الأثناء كان جيش يعقوب وجنود سيستان يزحفون من فارس صوب بغداد ، لهذا يمـكن القول إن يعقوب قد اختار أنسب الأوقات ــ من الناحية الحربية ــ للاستفادة من ثورته فى الخروج على الخلافة .

---

(١) حبيب السير، جـ٢ ص ٢٧٩.

الفصل التاسع عشر

آخر رحلة إلى فارس :

قلنا فى الفصول السابقة إن الخليفة المعتمد أجاب على رسالة يعقوب جوابا سلبيا رغم كل الإجراءات التى كان قد اتخذها ضده ، ويبدو أن هذا الرد المنطوى على العطف كان يرمى إلى هدف معين ، إذ أنه فى ذلك الوقت كان محمد بن واصل (1) ـ عامل الخليفة على فارس ـ قد أعلن عصيانه وانتصر فى رامهرمز على الجيش الذى أرسلته بغداد إلى فارس بقيادة عبـد الرحمن بن مفلح وطاش تمر للقضاء عليه ، وقتل طاش تمر وأسر ابن مفلح (2) .

وقد علم يعقوب بهذا فأراد أن يسترضى الخليفة المعتمد ويستعيد فى الوقت نفسه حكومة فارس ، فعزم على السير إليها ، فتحرك يوم السبت ١٨ شعبان عام ٢٦١ هجرية (مايو ٨٧٥ م) بعد أن عين ابن عمه أزهر بن يحيى نائبا عنه فى سيستان . وقد اصطحب معه أسراه من القواد السابقين وهم على بن حسين بن شبل قريش ، وأحمد بن عباس هاشم ، ومحمد بن طاهر .

وكان من الأسباب الأخرى التى دفعت يعقوب للذهاب إلى فارس ، تلك الاجراءات التى كانت تتخذ ضده فى تلك الناحية ، ذلك أن أحد أصحابه وهو محمد بن زيدويه ـ وكان حاكماً على قهستان فى وقت من الأوقات ـ كان قد غضب لأن يعقوب عزله ، وذهب إلى كرمان واستعان بمحمد بن واصل ، وكان يعد مؤامرة ضد يعقوب فى فارس . وحتى لا يستفحل هذا الأمر فقد رأى يعقوب أن يذهب إلى فارس ويخنق المؤامرة فى مهدها .

---

(1) هو محمد بن واصل بن إبراهيم التميمى (م)

(2) الطبرى ، جـ ٨ ص ١٩ .

عندما اقترب يعقوب من فارس في شوال ٢٦١ هـ (يونيو ٨٧٥ م) [١] رأى محمد ابن زيدويه أنه لا فائدة من مقاومة يعقوب ، وفضل أن يتقهقر حتى يبتعد جيش يعقوب عن مركزه في سيستان ، ويتعبه السير ثم يأخذ في قتاله .

ولما لم يحظ هذا الاقتراح بموافقة محمد بن واصل ؟ فقد غضب محمد بن زيدويه والتجأ إلى جبال فارس ، وشرع في الإغارة على القرى والرساتيق ، وتوجه بعد ذلك إلى أطراف خراسان ثم إلى قهستان ، وبهذا اختفى أحد أعداء يعقوب الرئيسيين وحده من الميدان .

حيلة يعقوبية :

التقى يعقوب مع محمد بن واصل في نوبندجان إحدى نواحي كازرون ، ويقع شعب بوان على مقربة منها ، كما ان القلعة البيضاء إحدى قلاع فارس المعروفة تقع هناك ، وقد جاء اسم هذه الناحية أيضاً باسم نوبندكان او نوبنجان ، وهي قصبة عامرة كثيرة السكان يقولون إنها من بناء سابور [٢] .

وقـــد بدأ محمد بن واصل بارسال رسول اسمه « بشير بن أحمد » إلى يعقوب ، وقد أمر يعقوب أن يبتعد جيشه عن تلك الناحية عند قدوم هذا السفير ، ولا يظهر الجند أمامه . فلما وصل هذا السفير لم ير حول يعقوب سوى بعض صغار الغلمان ، ولعل يعقوب ظهر بهـذه الصورة لـكي يستميل محمد بن واصل للتعاون معه او ربمـا لخديعته والايقاع به .

وعندما استقبل يعقوب سفير ابن واصل قال له : « لقد خرجت من سيستان على هذه

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٢) آثار العجم ، ص ٩١ .

الحال ولم أحضر جيشا ، وقد وصلت مع هذه القلة من الغلمان كى يتأكد محمد بن واصل من صداقتى وموافقتى اياه ، فيتحد معى ، فانه اعظم رجل فى وسط إيران وخراسان ، وانا أعمل ما يأمر به ، وليعلم أن احمد بن عبد الله الخجستانى كان معى ثم تركنى ولا سبيل إليه إلا ان يمدنى محمد بن واصل بجيش حتى ادرك احمد الخجستانى ، وإلا فإنه سيخرج على امر خراسان ، وسيضيع كل ما عملته هباء [١].

اما احمد بن عبد الله الخجستانى فكان فى هذا الوقت قد بدا حركة العصيان ضد يعقوب ، ولكن استيلاءه على نيسابور لم يتم إلا فى عام ٢٦٥ هـ [٢].

عاد الرسول من عند يعقوب وأخبر محمد بن واصل بعدم استعداد يعقوب وقال له : « إنك إذا هجمت عليه فإنك ستخلصه من الدنيا فى ساعة » . فطمع محمد بن واصل وهجم بجيش غير معد أو مجهز على يعقوب ، والتقى الجيشان عند القلعة البيضاء ، واشتعلت نيران الحرب الضروس بين الجانبين ، وفى هذه اللحظة ظهر عشرة آلاف فارس من فرسان يعقوب وطوقوا مؤخرة جيش ابن واصل وكان فرسان يعقوب ١٥ ألفاً ، بينما كان فرسان محمد بن واصل ٣٠ ألفاً ــ ولم يكد ابن واصل يتنبه لهجوم يعقوب الخاطف حتى كان عشرة آلاف من رجاله قد قتلوا [٣].

وقد اشتركت عشائر « رم بيزنجان » والأكراد المهرة فى هذه الموقعة إلى جانب محمد ابن واصل ولكنهم لم يفيدوه ، بل انهزموا جميعاً وفر زعيمهم « موسى بن مهران الكردى » [٤] ولكن يعقوب تعقبه ، فالتجأ موسى إلى الجبال وعته وديان جبل

---

(١) تاريخ سيستان، ص ٢٢٧ .
(٢) الطبرى، جـ ٨ ص ٤٤ .
(٣) تاريخ سيستان ، ص ٢٢٧ .
(٤) الطبرى، جـ ٨ ص ٢٠ .

« جتَاويه » وأسرع يعقوب فى اثره وسط الجبل وأسر عشرة آلاف من رجاله وتفرق الباقون فى الجبال [٢] .

سرور الخليفة :

بعد هذا توجه يعقوب فى محرم عام ٢٧٢ هـ (أكتوبر ٨٧٥ م) إلى رامهرمز فأراد الخليفة المعتمد إكرامه بعد أن بلغه خبر هزيمة محمد بن واصل عدوه الذى كان قد طغى وبغى ولهذا أمر أخاه ـ أبا أحمد الموفق ـ أن يرسل خلعة إلى يعقوب بن الليث . وقد أمر الموفق ـ أخو الخليفة وولى عهده أيضاً ـ أن ينادى المنادون فى بغداد، ويجمعوا كل التجار والحجاج والمسافرين الخراسانيين الذين كانوا فى بغداد ثم استقبلهم الموفق وأبلغهم فى هذا الاجتماع العام أن الخليفة قد أوفد اسماعيل بن اسحق القاضى إلى يعقوب بن الليث حاملا منشور ولاية خراسان وطبرستان وجرجان وفارس وكرمان والسند والهند ، وكذلك الرئاسة الفخرية لشرطة بغداد (كان الخلفاء يمنحون هذا المنصب غالباً لأحد حكامهم الأقوياء ليستفيدوا من قوتهم فى المحافظة على بغداد وأمنها ، مثلما كان هذا العمل ـ فى وقت من الأوقات ـ مسنداً إلى محمد بن عبدالله بن طاهر ، وشغله بعد ذلك طغرل السلجوقى لسنوات) ولعل تأييد الخليفة ليعقوب كان هدفه دفع يعقوب إلى مواصلة العمل ، وعدم التوانى فى إلقاء القبض على محمد بن واصل الذى هرب .

وصل اسماعيل القاضى إلى يعقوب فى رامهرمز وسلمه الرسائل والخلع والمنشور ، لأن الخليفة رضى عن عمل يعقوب ضد محمد بن واصل ، لكن ظهر أن قوة يعقوب العظيمة وحملته التى وصل بها إلى قرب خوزستان ورامهرمز قد وضعت الخليفة أمام خطر أكبر ، ولكى يحول يعقوب إلى الناحية الأخرى من الجبهة فقد منح ولاية ماوراء النهر إلى نصر بن أحمد السامانى فى نفس هذه السنة [١] .

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ١٢٨ .

(٢) تاريخ سيستان، ص ٢٢٨ .

وكما نعلم فإن هذه البذرة التى غرسها الخليفة فيما وراء النهر قد أثمرت بعد خمسة وعشرين عاما، لأن اسماعيل بن نصر السامانى ألقى القبض على عمرو بن الليث قرب مرو سنة ٢٨٥ هـ وأرسله إلى بغداد ليسجنوه فى سجن الخليفة حيث مات فيه، وأخذ أمر الصفاريين فى الزوال منذ ذلك اليوم .

متى يفى السكفاف بالشراب ؟

أعطى يعقوب رده على الخليفة إلى اسماعيل الذى عاد إلى سامراء وسلم الرسالة للخليفة، كما قام الوفد بإبلاغ الخليفة أن يعقوب لا يكتفى بكل هذا ، ولا يقنع به .

وفى هذه الأثناء عادت عشائر فارس وأكرادها الفارون إلى الاجتماع حول محمد بن واصل الذى جعل مركزه فى « فسا » ، ثم انتقل إلى سيراف ـ إحدى موانى خليج فارس العامرة آنذاك ـ وأخذ فى إعداد جيشه وتنظيمه .

القبض على محمد بن واصل :

أرسل يعقوب قائده المعروف عزيز بن عبدالله يتعقب ابن واصل ، وقد استطاع هذا القائد أن يستولى على بقايا جيش محمد وعتاده ، وتعقبه حتى ميناء سيراف ، ولم يجد محمد ابن واصل بدا من أن يستقل إحدى السفن ، كما ركب عدد من أتباعه سفنا أخرى ، ولم تكن هذه السفن سفنا حربية ، بل كانت من تلك التى يستعملها الصيادون هناك ، ولم تكن معدة ولا مجهزة للملاحة فى البحر . ومع أن جند ابن واصل ظلوا تلك الليلة يضربون بمجاديفهم ويقودون السفن إلا أنه عندما أشرقت شمس اليوم التالى وجدوا أنهم لازالوا قرب سيراف ، وكانوا كبقرة العصار يدورون حول أنفسهم .

وقام أحد رؤساء الأكراد الذين كانوا فى سيراف واسمه « راشدى » ـ وكان يعرفه

الملاحة - بملاحقة محمد بن واصل ، واستطاع إلقاء القبض عليه ، ثم ركب مسرعاً إلى عزيز ابن عبدالله وأبلغه نبأ القبض على محمد بن واصل .

وقد كلف عزيز بن عبدالله غانم البسكرى قائد الخوارج باحضار محمد بن واصل ، وأركبوه بغلا وهو مقيد اليدين عارى الرأس وحملوه إلى يعقوب[١] . ومما يلفت النظر هنا أن جميع الفئات ، خاصة بعض العشائر وبقية الخوارج ، كانت آنذاك تتعاون مع يعقوب .

الأبواب المغلقة تفتح :

كان على بن حسين حاكم فارس السابق ومرافق يعقوب ، يعلم أن محمد بن واصل الحاكم الجديد ، كان له دخل فى مصيره وهزيمته ، ولما كان - كما قلنا - مرافقاً ليعقوب فقد طلب منه أن يرى محمد بن واصل على هذه الحال ، فأذن له ، ورأى على غريمه فى قيوده وعجب لعبرة الزمان .

وقد حملوا الحاكم المعزول إلى السجن ، ثم أرسل إليه يعقوب شخصاً يقول له « عليك أن تسلم مفتاح القلعة التى بها خزائنك ، وتسلمنى أموالك » فوافق محمد بن واصل على هذا .

كانت تلك القلعة فى ذلك الوقت تسمى « الخرمة » وتسمى فى كتب الجغرافيا باسم قلعة « سعيد اباد » ، أما قبل الإسلام فكانت تسمى بقلعة « اسفنديار » وتقع على قمة جبل ، وكانت من المناعة بحيث أن فتحها كان يعد من الأمور الصعبة . وكان محمد بن واصل قد أعاد تعمير هذه القلعة ليحفظ فيها أمواله لأنها كانت قرب « رامجرد » من توابع اصطخر ، وكان الطريق إليها وطوله نحو فرسخ شبه عمودى فى صعوده إلى قمة الجبل[٢] .

حمل خلف بن الليث محمد بن واصل مقيد اليدين إلى أسفل القلعة ومن هناك نادى على

(١) تاريخ سيستان ، ص ٢٢٩

(٢) المسالك والممالك ، ص ١١٧ .

مستحفظها أن يفتح الباب ، فلما أطل من أعلى البرج ورأى محمد بن واصل لم يهتم بالأمر الذى أصدره إليه ، وناداه محمد بن واصل مرة أخرى لفتح القلعة ولكن المستحفظ ألقى إليهم من فوق البرج سيفاً ومقداراً من الحطب وقال لهم : « اقتلوا محمد بن واصل بهذا السيف وأحرقوه بهذا الحطب حتى أفتح باب القلعة[1] » .

وقد فهم أن بين الحارس وبين محمد رمزاً متفقاً عليه على ألا يفتح باب القلعة إذا حدث يوما أن قبض على ابن واصل ، وأحضر على مقربة من القلعة ، ولهذا لم يفتح باب القلعة ، واضطر خلف إلى اعادة محمد بن واصل إلى يعقوب مرة أخرى .

وقد أمر يعقوب بتعذيب محمد وتسليمه إلى أشرف بن يوسف ، أحد مرافقيه ، وقد أمر أشرف بتعليقه مقلوباً من إحدى قدميه ، وبعد لحظة صاح محمد من شدة الألم وقال : « فكونى وأنا أذكر لكم العلامة التى لدى » .

وقد أنزلوه من حيث كان معلقاً ، فأرسل غلاما بعلامة مخصوصة فتح بواسطتها باب القلعة ، وقد أخرج رجال يعقوب منها — بعد فتح مخازنها وخزائنها — أموالا وأمتعة لا تحصى واستمروا ثلاثين يوماً ينقلون كل يوم من الصباح إلى المساء أحمالا من الدراهم والدنانير والبسط والديباج والسلاح القيم والأوانى الذهبية والفضية ، وذلك على خمسمائة بغل وخمسمائة جمل ، غير ما تبقى من المأكولات الكثيرة والبسط الصوفية التى لم يرغب فيها[2] .

ويقدر ثمن ما استولوا عليه من هناك بنحو ٤٠ ألف ألف درهم (٤٠ مليون) وقد قبض فى هذه الحادثة على المرداسى خال محمد بن واصل[3] :

---

(١) تاريخ سيستان، ص ٢٣٠ .

(٢) الطبرى، ج ٨ ص ٢٠ .

(٣) تاريخ سيستان ، ص ٢٣٠

خلاف بين الشقيقين:

بعد أن وصل يعقوب إلى شيراز نشب خلاف بينه وبين أخيه عمرو ـ أشد المخلصين إليه ـ وغضب عمرو واصطحب ابنه محمداً وتوجه إلى سيستان .

وكان هذا الخلاف فى هذا الوقت بالذات شديد الوقع على يعقوب ، وأثر فى نفسيته كثيراً ، وجعله يستغرق فى تفكير مستمر مما عرض صحته للخطر . وعلى أية حال فلم يكن أمام يعقوب من وسيلة سوى إكمال الطريق الذى سار فيه،والإبقاء على العلم الذى رفعه ضد الخلافة العباسية مرفوعا لا يسقط على الأرض . وقد بدأ بتقييد محمد بن واصل وأرسله إلى إحدى القلاع حيث سجن هناك ، ثم توجه إلى الأهواز ، وكان على مقدمة جيشه وطلائعه بلال بن أزهر الذى كان قائداً محنكا ماهراً .

ويحتمل أن يكون سبب الخلاف بين الأخوين هو النزاع على تقسيم الغنائم التى استوليا عليها من محمد بن واصل ، لأن كتاب تاريخ سيستان يذكر أن هذا الخلاف نشأ بعد تحرير بيان الأموال التى أخذت من محمد بن واصل مباشرة . ويقول إن هذه الغنائم كانت من الكثرة بحيث أن البسط والملابس لم يمسها أحد[1] .

وبعد أن استقرت أوضاع فارس وخوزستان كان يجب على يعقوب أن يعود إلى سيستان ، ولكننا نرى فجأة ودون مقدمات أن « الفيل لايحن إلى موطنه بالهند » فيضع يعقوب بغداد نصب عينيه دون إدراك لخطورة العمل الذى هو مقدم عليه ، ويقرع طبول الرحيل إلى مدينة ألف ليلة وليلة .

---

(١) تاريخ سيستان ص ٢٣٠ .

الفصل العشرون

ولم يكن لأحد فى الإسلام - بعد
أبى بكر وعمر — ما كان فى عهدك من
مآثر الخير والعدل . ونحن وكل المسلمين
الآن عون لك حتى تعود الدنيا على يديك
إلى دين واحد هو دين الإسلام .
من رسالة الخليفة إلى يعقوب
نقلا عن تاريخ سيستان

ملك الدنيا والمعتمد على الله :

قيل الكثير عن سبب توجه يعقوب من فارس وخوزستان إلى بغداد ، ويتفق أكثر ما قيل فى هذا الشأن على اعتباره ناتجاً عن تعصب يعقوب ضد العرب ورغبته فى الفتح . ولا شك أن هذا كله صحيح ، ولكن قبل بضعة أشهر من توجه يعقوب إلى بغداد ، كان قد جاء إلى فارس بناء على أمر الخليفة، وقبض على محمد بن واصل . وكان بينه وبين الخليفة وأخيه رسائل ومكاتبات . فكيف حدث هذا التغيير وتوجه فجأة إلى بغداد غازياً ! لا بد أن يكون هناك عامل هام لم يبحث عنه المؤرخون .

وإذا بحثنا عن هذا العامل فى مقر الخلافة ، وجدناه التناقض بين المحيطين بالخليفة ، وأطماع أخيه الموفق البعيدة والعريضة ، وكذلك تدخل كل أدعياء الخلافة فى شئونها وقد كان بين الموفق ويعقوب رسائل عرف أمرها فيما بعد ، عرضها على أخيه الخليفة واستخدمها فى التآمر على يعقوب .

ولكن الأهم من هذا هو ادعاءات أبناء الواثق . وبيان هذا أنه كان قد تقرر أن تكون الخلافة بعد موت الواثق لابنه محمد ، ولكن وصيف التركى دخل ومنع تنفيذ هذا الاتفاق بحجة أن محمداً كان لا يزال طفلا وقال : « ألا تخجلون من إجلاس شخص للخلافة لم يصل بعد إلى درجة يمكن معها الصلاة خلفه » . وبهذا انتزعت الخلافة من أسرة الواثق وأعطيت لأبناء المعتصم أى المتوكل . ولكن منافسة أولاد الواثق ظلت باقيسة إلى ما بعد خلافة المتوكل وابنه المنتصر والمستعين الإبن الآخر للمعتصم ، والمعتز بن المتوكل ، حيث عادت إلى محمد بن الواثق ، ولكنه خلع أيضاً بواسطة الأتراك الذين اختاروا أحمد بن المتوكل للخلافة نتلقب بالمعتمد على الله وهو الذى نتحدث عنه الآن .

فى تلك الأيام التى وصل فيها يعقوب إلى خوزستان فكر أحد أبناء الخلفاء الذين « ينتظرون الخلافة » ، فى الاستفادة من هذه الظروف ، وكان هذا هو عبدالله بن الواثق وقد ذهب بنفسه إلى يعقوب وطلب منه أن يساعده ضد الخليفة المعتمد وأغرى يعقوب بالإستيلاء على بغداد[1] .

لا تزار الكعبة إلا بدعوة :

إن هذه الأمور ، ونعنى بها رسائل أبى أحمد الموفق — أخى الخليفة — وإغراء عبد الله بن الواثق ـ مدعى الخلافة ـ كانت فى الحقيقة أحسن ذريعة لتوجه يعقوب إلى بغداد . وبهذين الدافعين القويين والمسائل الأخرى التى حدثت خلال ذلك، نرى أن يعقوب قد دعى من بغداد نفسها للتوجه إلى عاصمة العباسيين .

وللأسف فإن أطماع يعقوب وعدم وضوح شخصيته وحالته النفسية ، قد أدت إلى بقاء كل خططه التى دبرها فى رأسه طى الكتمان لا تنعكس فى أى مكان . هل أراد أن

---

(١) البدء والتاريخ، ج ٦ ص ١٢٥ .

يوصل الموفق للخلافة ؟ هل كان يريد نقل الخلافة من أسرة المعتمد إلى أسرة الواثق ؟ هل كان يريد أن يتربع هو على أريكة حكومة بغداد ؟ هل كان يريد أن يجعل جند يسابور عاصمة له ؟ كل هذه الأسئلة غير واضحة الإجابة ، ولـكن كل واحد منها يمكن أن يـكون حافزاً لحركة يعقوب صوب بغداد .

ولا شك أن تسيير أمور فارس وخوزستان كانت من الأعمال التى قام بها يعقوب بموافقة من الخليفة ، ولـكن عدم توقفه فى فارس وقدومه إلى خوزستان وقربه من سواحل دجلة قد عظمت على الخليفة . ولهذا نرى أن الخليفة المعتمد يرسل إليه رسالة يقول له فيها : « إننا لم نمنحك إمارة فارس ، فما السبب فى حلتك عليها ولا شأن لك ببغداد ، والأفضل أن تطالب بقهستان والعراق (العجمى) وخراسان ، وتحتفظ بها حتى لا يحدث خلل أو انشغال ، فعد ... »[١] ، وقد تصادف وصول هذه الرسالة إلى يعقوب فى الأيام التى كان يستقبل فيها سفراء التركستان والهند والسند والصين والزنج والروم والشام واليمن لتهنئته ولم يكد يمضى على حكومته إثنا عشر عاما إلا وكان اسمه يطبق آفاق العالم الإسلامى . وقد ذهب السفراء أولا إلى سيستان فلما علموا أنه فى حرب فى فارس جاءوا جميعا فى أثره .

وقد أقام يعقوب بعض الوقت فى جندى سابور حتى وصل كل السفراء ، وهناك جلس على العرش لـكى يقدم إليه الجميع الرسائل والهـــدايا ، ثم كتب لهم الردود وخلع عليهم وأعادهم[٢] . وقد عظم أمر هـــذه الجلبة على مسمع الخليفة فى بغداد خاصة وأن بعض السفراء قد لقبوا يعقوب فى خطبهم باسم ملك الدنيا ، وأن الدنيا كلها أصبحت طوع أمره[٣] .

---

(١) روضة الصفا ، ج ٤ وسيلستتنامه، ص ١١ .

(٢) تاريخ سيستان ، ص٢٣١

(٣) المرجع السابق .

يابنى تواضع :

ولقد عظم أمر هذه الشهرة وتلك القدرة وذلك النجاح الذى حققه يعقوب فى العالم الإسلامى على الخليفة العباسى ، ولم يقتصر هذا على الناحية السياسية فقط ، بل شمل الناحية الشخصية أيضاً ، وذلك أن الحقد والحسد أثارا الخليفة ، وانتهت هذه السمعة والدعاية بضرر يعقوب .

لقد قرأنا ضمن حوادث تاريخ اليونان القديم أن أحد قواد الإسكندر واسمه فيلوتس عندما أصبح ذا قدرة عظيمة وثروة وافرة ، صار موضع حسد المحيطين به وحقدهم حتى الإسكندر نفسه . وفى أحد الأيام قال له أبوه « بارمنيون » وكان رجلا محنكا « يابنى تواضع »[1]. ولكن ابنه الذى كان شابا مغرورا بفتوحاته ومعتزا بعطف الإسكندر عليه لم يقبل هذه النصيحة ، إلى أن جاء اليوم الذى اتهموه فيه وحاكموه بتهمة التآمر على الاسكندر ، ورجموه أمام أعين أصدقائه ، ولم يقتصر الأمر عليه ، بل إنهم قضوا على أبيه بارمنيون أيضاً بعد عدة أيام .

ولقد كان نجاح يعقوب الخاطف ذا أضرار خطيرة بالنسبة له ، وكان أخطرها إصراره على السير إلى بغداد ، حيث كان يقول إلى كل الرسل الذين يبعثهم الخليفة وردا على كل ما كانوا يقولونه « لى رغبة فى أن أذهب إلى البلاط ، وأقدم فروض الطاعة وأبدأ عهداً جديداً ، ومالم أفعل هذا فلن أعود »[2].

الوحدة الإسلامية :

إزاء هذا جلس الخليفة المعتمد وأخوه الموفق ولى عهده ، وتشاورا فى الأمر ، ورأيا أن الخير فى الاستعانة بالحيلة والمكر والخدعة ، حيث لم يكن لديهما القدرة على مقاومة

(١) إيران باستان ص ١٦٧٤ .

(٢) ساستنامه ص ١١

يعقوب من ناحية ، كما أن يعقوب من الناحية الأخرى كان حسن السمعة في كل البلاد ، ويتعلق به كل الخلق ، لأنه كان عادلا وفاتحا لم ينتصر عليه أحـــــد في البلاد التي قصدها[1].

على كل حال فان الخليفة عندما أساء الظن بيعقوب استدعي أعيان الدولة وقال لهم : « أعتقد أن يعقوب شق عصا الطاعة ، وهو قادم إلى هنا ، ولم آذن له في الحضور إلينا ، وأمرته بالعودة فلم يرجع . على أية حال فانه يحمل في قلبه الخيانة وأعتقد أنه دخل في الباطنية ، ولن يظهرها حتى يصل إلى هنا . ولهذا لا يجب الغفلة عن اتخاذ الحيطة »[2].

فلما رأوا أن يعقوب يتقدم فـكروا فيما يجب عمله ورأوا أن يرسل كتاب رسمي من قبل الخليفة بدعوة يعقوب للحضور شخصيا إلى بغداد لأن الخليفة يريد لقاءه ورؤيته وتقديره على خدماته ، ومما جاء في هذه الرسالة : « ندع لك الدنيا حتى تحـكمها لأن كل الدنيا قد تبعتك ، ونتبع كل ما تأمر به ، ولتعلم أننا نرضى بالخطبة لأننا من بيت المصطفى وتقوى أنت دينه ، لأن لك غزوات كثيرة في ديار الـكفر ، فقد توغلت في الهند حتى سرنديب في أقصى البحر المحيط ، ودخلت بلاد الصين وخرجت إلى التركستان . . . وأثر سيفك واضح على الـكفار في كل مكان ، وقد أصبح حقك واجبا على كل المسلمين ، وقد أمرنا أن يخطب لك في الحرمين ، لأن في هذا آثار خير لك في العالم ، ولم يكن لأحد في الإسلام بعد أبي بكر وعمر من آثار الخير والعدل مثل ما في عصرك ، ونحن وكل المسلمين الآن عون لك حتى تعود الدنيا على يديك إلى دين واحد هو دين الإسلام »[3].

وبهذا استطاع الخليفة وأخوه أن يخدعا يعقوب ، وأن يوقعاه في الفخ — وهو الذي لم يهزم قط من خصومه ، ولم ينطل عليه مكر أحد ما .

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ٢٣١ .

(٢) سياستنامه ، ص ١١ .

(٣) تاريخ سيستان ، ص ٢٣١

ماء من تحت تبن :

أخذت رحلة يعقوب صوب بغداد شكلا غامضا ، فظاهر الأمر أن الموفق أخا الخليفة كان يكاتب يعقوب — كما سوف نرى — وكان يعقوب يمنيه بأنه إذا استطاع فتح بغداد فإنه سيجعله خليفة مكان أخيه . ولهذا كان يريد أن يذهب إلى بغداد ليعزل المعتمد من الخلافة ويجلس الموفق[1] .

ولكن هذه المؤامرة كان وراءها — للأسف — مؤامرة أكبر . فان الموفق كان قد اطلع أخاه على هذا الأمر ، وأفضى إليه بكل ما حدث بينه وبين يعقوب . وبعد هذا أيضاً ، فان يعقوب كتب بعض رسائل وبعث بها سراً إلى الموفق ، وقد عرض الموفق هذه الرسائل أيضاً على المعتمد .

وقد سار الخليفة والموفق فى هذه المؤامرة ، وكان هدفهما منها أن يذهب يعقوب إلى بغداد دون سلاح ودون استعداد حربى ، ولكن هذا التوافق الظاهرى بين الخليفة ويعقوب أثار أقارب الخليفة والمحيطين به ، وأدى إلى أن جميع موالى العباسيين فى سامراء أساءوا الظن بالخليفة وأخيه الموفق وقالوا « لابد أن فى الأمر توافقا وتواطؤا حتى استطاع يعقوب أن يهب من أقصى البلاد دون معين ويقود جيشه ويتوجه إلى بغداد بهذه المهارة ، بينما الخليفة يمضى أيامه ساكتا مداريا » ، وقد انتشر هذا الحديث فى سامراء ، وازداد القيل والقال ، فاضطر الخليفة إزاء هذا إلى إخراج بردة الرسول (صلعم) وعصاه ، ولعن يعقوب ، ثم قاد جيشه وتوجه بنفسه للتصدى له[2] .

ولهذا ، فانه بعد ان توجه يعقوب صوب بغداد للزيارة ، ولعله كان متوجها دون استعداد حربى كامل ، نرى الأمور قد تغيرت فجأة وأثارت الخليفة ضد يعقوب .

---

(١) زين الأخبار، ص ١٣ .

(٢) تاريخ سيستان، هامش ص ٢٣٢ .

وصل يعقوب إلى « عسكر مكرم » فى خوزستان ، وكانت مدينة ذات سواد كثير وعمران وخيرات ونعم ، وكانت تنتج كل سكر الدنيا من أحمر وأبيض ، وهى تقع بين نهر مسرقان ومدينة شوشتر[٣]. وهناك رواية بأن سابور ذا الأكتاف هو الذى عمرها ولكنها خربت لكثرة العقارب بها .

وقد أرسل يعقوب رسالة من تلك المدينة ، إلى الخليفة ، طلب منه فيها منشور حكومات خراسان وفارس وطبرستان وجرجان والرى وآذربيجان وقزوين وكرمان وسيستان والسند ، إلى جانب شرطة بغداد وسامراء ، كما طلب إلى الخليفة أن يصدر منشوراً يبطل به الرسالة التى قرئت فى منزل عبيد الله بن عبد الله بخلع يعقوب من مناصبه ومفاخره السابقة وتكفيره . ولكن لم ترد من الخليفة ردود بالموافقة على ماطلبه يعقوب .

أول سهم علامة على الحرب :

تقدم يعقوب بعض المنازل حتى دخل شوش وصمم تصميما قاطعاً على خوض الحرب ضد الخليفة . وكانت أخبار قدوم يعقوب وعصيانه قد انتشرت فى بغداد ، فجمع الخليفة جنده وأعد جيشه وأقسم أمامهم على بردة الرسول وعصاه ، وحمل قوسه وأطلق أول سهم صوب معسكر جيش يعقوب ولعنه ، وبهذا أصبح معروفا أن الرسائل لن تؤدى إلى نتيجة وأن السيف هو الذى سيفصل فى الأمر .

ومن ناحية أخرى فانه جمع حجاج خراسان وقال لهم : « لقد شرفنا يعقوب من قبل

---

(١) حدود العالم ، ص٤٦ وص١٣٨ .

(٣) حبيب السير ، جـ ٣ ص ٢٤٧ .

بمنحه ولاية سيستان ، والآن وقد ظهرت على وجناته مظاهر العصيان والطغيان فاننا نأمركم جميعاً بلعنه » .

أيها الرجال القارئون للقرآن

وقد ابتدأ خروج الجيش بجماعة تولى قيادتها الموفق ـ أخو الخليفة ـ وسار بها إلى قرب دير العاقول (شرق دجلة) والتقى الجمعان . ويذكر بعض المؤرخين أن هذا اللقاء كان على حدود واسط[1] أو قرب حلوان[2] .

وصل جيش يعقوب إلى ناحية اصطربند ، وهى قرية كانت تقع بين سيب ودير العاقول والنهروان وواسط ، وكان يعقوب يتقدم على رأس الجيش مرتديا ثوبا من الديباج الأسود. وبينما كان الفريقان ينظمان صفوفهما ، تقدم أحد قواد الخليفة صوب جيش يعقوب وخاطبهم بصوت مرتفع قائلا : « ياأهل خراسان وسيستان ، إننا نعلم أنكم تطيعون أوامر الخليفة وتقرأون القرآن ، وتؤدون فريضة الحج وتأمرون بالمعروف ، ولن يكتمل دينكم إلا بطاعتكم للخليفة . وليس لدينا شك فى أن هذا الملعون (يقصد يعقوب) قد جركم إلى هنا ، وترون الآن أن خليفة رسول الله واقف فى مواجهته ، فكل من يتمسك منكم بالدين المحمدى ، يجب عليه الآن أن ينفصل عن يعقوب وينضم للخليفة » ثم أضاف : « يامعشر المسلمين ، اعلموا أن يعقوب قد عصى وجاء ليقتلع بنى العباس ويأتى بخصومهم من المهدية ويجلسهم مكانهم ، ويقضى على السنة ويظهر البدعة ، فكل من عصى الخليفة فقد خالف رسول الله وكل من خالف الرسول فقد خرج عن طاعة الله تعالى ، وخرج من زمرة المسلمين كما يقول الله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فمن منكم الآن يختار الجنة بدل النار وينصر الحق ويلوى وجهه عن الباطل ويكون معاً لا علينا؟ »[3] .

ويبدو أن عدداً غير كبير قد استجاب لنداء الخليفة هذا ، إذ أن بعض أمراء خراسان

---

(١) لب التواريخ، ص ٨٢ .

(٢) حبيب السير، ج ٣ ص ٣٤٧ .

(٣) سياستنامه، ص ١٤ .

ارتدوا عن يعقوب ، ولحقوا بالخليفة ، وقالوا له : « لقد ظننا أنه قادم إليك طائعاً مسلماً ، ولكن لما بدت لنا مخالفته وعصيانه تركناه » [١] .

ولدينا دليل آخر على أن يعقوب ـ حتى هذه اللحظة ـ كان يعتقد أن الموفق ـ أخا الخليفة ـ فى جانبه ، وأنه سيخرج فى الوقت المناسب من صفوف جيش الخليفة ، بل يبدو أن المؤامرة كانت تقضى بأن يذهب الخليفة مع جمع من أصحابه إلى مكان معين ثم يدعى يعقوب للحضور لملاقاته وفى أثناء هذا اللقاء يحمل يعقوب وأعوانه على الخليفة فيقضون عليه (وهى نفس الحيلة التى جربها يعقوب قبل ذلك عدة مرات وحصل منها على نتائج فى حربه مع رتبيل ومحمد بن واصل) . ثم يحول الموفق دون هجوم جيش الخليفة . ولكن الأمر كان قد تغير سراً كما سنرى ، ووضعوا شخصاً آخر بدل الخليفة فى مكان اللقاء ، وذهبت مؤامرة يعقوب أدراج الرياح [٢] .

يقول صاحب سياستنامه « استقر الرأى على ألا يبقى الخليفة فى المدينة وأن يغادرها مع كل خاصته وجميع أعيان بغداد ، إلى الصحراء حيث يقيم معسكره ، حتى إذا وصل يعقوب ورأى الخليفة فى الصحراء وقد أقام معسكره ، ظهر له خطأ ما فكر فيه ، وذاع أمر عصيانه لأمير المؤمنين ، فيتردد الجند بين المعسكرين ولا يبقى معه كل رؤساء العراق (العجمى) وخراسان ، ولا يرضون عما فى نفسه ، وعندما يستفحل العصيان نرد جيشه بخطة أو تدبير ، فإذا فشلنا ولم نقدر على حربه فإن الطريق يكون مفتوحا ، ونستطيع أن ننتقل إلى مكان آخر ، ولا نكون كالأسرى بين أربعة جدران » وقد أعجب الخليفة هذا الرأى واتفقوا عليه [٣] .

وقد أعدت هذه المؤامرة بدقة بالغة ومهارة فائقة .

---

(١) المرجع السابق، صـ١٢ .
(٢) نفس المرجع السابق والصفحة .
(٣) سياستنامه، صـ١٢ .

فى نار العدو :

أمر المعتمد أن يحفر على طريق يعقوب نهر عظيم ، على ألا يوصل بالشاطىء بل يجرى فيه ما قليل بحيث يكون عبوره ممكنا ، ومن ناحية أخرى أمر غلمانه قاذفى القلاعات — وكانوا كثيرين ويستطيعون لمهارتهم إصابة الشعرة بقلاعاتهم — أن يعدوا قلاعات من حديد .

ثم أرسل الخليفة إلى يعقوب رسولا يقول له : « لقد جئت لملاقاة الخليفة ، ويجب عليك فى الغد أن تأتى إلى دير العاقول لكى يراك الناس » . فسر يعقوب لهذا الكلام وقال لنفسه عندما أرى الخليفة فى الصحراء آخذه على الفور أسيراً وكان المعتمد قد جعل أخاه الموفق فى المقدمة ، ووقف هو فى القلب فى دير العاقول .

أسرع يعقوب مع جماعة من الشجعان الذين يعتمد عليهم ويثق فيهم ، حتى إذا ما اقترب من المكان المحدد للقاء أنزله محمد بن كثير وحسن بن إبراهيم ، اللذان كانا قد نقلا رسالة الخليفة إليه ، بجوار « سيما » . فلاحظ يعقوب أن سيما يجلس بدل المعتمد ، فأدرك على الفور أن البغداديين قد دبروا له مكيدة وأجلسوا سيما مكان الخليفة . ولهذا اندفع يعقوب بفرسانه الخمسمائة الذين كانوا يلبسون دروع الحديد فى النهر ، فلما أصبحوا فيه ، أسرع خواص الخليفة بفتح السد ، فامتلأ ذلك النهر بالماء ، وانهال غلمان الخليفة على فرقة يعقوب بالمقاليع ، فكانت القلاعة التى تصيب فرساً تجعله يجمح وينهزم مدبرا ، وقد أعمت القلاعات بعض الفرسان والخيل ثم خرج جيش بغداد من مكامنه وانقض عليهم[1] .

وقد أحكمت هذه المؤامرة للايقاع بيعقوب ، فقد جعلوا إبراهيم بن سيما يشبه الخليفة تمام الشبه فى لباسه وهيئته ، وكأنه الخليفة نفسه ، فلما حمل يعقوب بنفسه ، قتل من جيش بغداد كثيراً من الجند وفر الباقون وجعلوا ظهورهم للماء ثم فتحوا الماء على جيش يعقوب[2] ،

---

(١) زينة المجالس .

(٢) زين الأخبار ، ص٩

فهلك أكثر جيشه ، ونجا يعقوب نفسه بأعجوبة[1] ..

وكان تنظيم يعقوب لجيشه الذى يبلغ نحو عشرة آلاف رجل ، هو أن يصطف فى مواجهة الخليفة ، فشغل مساحة تقرب من ميل مربع . أما الخليفة فكان قد أغدق العطايا على الجند ، وأقام بنفسه فى المعسكر ، ووقف بجانبه محمد بن خالد بن يزيد ، وقام الموفق أخو الخليفة بالهجوم على أصحاب يعقوب وهو عارى الرأس ، وقتل من الجانبين جمع كثير ، ولم يستطع يعقوب المقاومة ، فانهزم . ولم يجد كثير من جنده فرصة للفرار فقتلوا ، وكان الليل قد أخذ يرخى سدوله ، ونتيجة لشدة الزحام سقط فى الماء كثير من الفارين الذين لم يكن لهم معرفة بالمنطقة[2] .

ويبدو أن الموفق قد بدأ بالهجوم ، وكان قواد جيش الخليفة فى هذه الحرب هم موسى ابن بغا على الميمنة، ومسرور البلخى على الميسرة، وقد حمل جيش يعقوب على ميمنة ابن بغا فكسرها ، وقتل جماعة من قوادها وطباغوا التركى ومحمد طغتا التركى[3] وغرق ابراهيم ابن سيما وقتل محمد بن اوتامش[4] .

وقتل أيضاً من أصحاب يعقوب جماعة منهم حسن الدرهمى ومحمد بن كثير الذى كان فى مقدمة يعقوب ، وكان معروفا باسم « اللبادة » . كما أصيب يعقوب نفسه بثلاثة سهام فى رقبته ويديه أثناء المعركة التى استمرت حتى صلاة العصر .

وعند الغروب تقهقر كثير من جند يعقوب، ومع ما بذله يعقوب وجماعة من خاصته من ثبات وتشبث بمواقعهم ، إلا أنهم اضطروا للتقهقر[5] .

---

(١) زينة المجالس .
(٢) وفيات الأعيان، جـ ٥ صـ ٤٥٦ ،
(٣) الطبرى، جـ ٨ ص ٢٣.
(٤) مروج الذهب ، جـ ٢ ص ٣١٣ .
(٥) الطبرى ، جـ ٨ ص ٢٣ .

وقد كانت الخسائر التى سببها إطلاق الماء كبيرة ، فإن فتح سد دجلة قد أهلك نحو عشرة آلاف رأس من دواب معسكر جيش يعقوب ، إذ أن فتح هذا النهر المعروف باسم « سبت » جعل الماء يطغى على كل المنطقة .

ومن ناحية أخرى فإن نصيراً الديلمى غلام سعد بن صالح الحاجب ، دخل معسكر جيش يعقوب من الخلف وأشعل فيه النار ، وهلكت أكثر جمال يعقوب وأفياله وخيله . وكان فى هذا المعسكر خمسة آلاف جمل « بختى » احترقت جميعها أو تفرقت فى الصحراء ، كما أن اختلاط الناس بعضهم ببعض كان من العوامل التى تسببت فى هزيمة يعقوب الصفار[1] .

طار الطائر من القفص :

فى أثناء هذه المعركة وجد محمد بن طاهر — الذى كان فى أسر يعقوب وفى معية جيشه — فرصة للهروب ، مع أن السلاسل والأغلال كانت فى عنقه ، واستطاع أن يصل إلى معسكر الخليفة ، ففكوا أغلاله وألبسوه خلعة من الخلع .

وقد تحدث إليه خشتج قائد الخليفة قائلا : « أنتم آل طاهر اشتريتمونا بثروتكم ووليتم العباسيين الأمر ، ولكن خطأكم هو أنكم لم تكونوا على وفاق مع الخليفة ، مما جعل أحد أبناء الصفارين يقف فى وجه الخليفة . وعلى كل حال فقد أنقذناك من القيد والأسر والتنقل من مدينة إلى أخرى ، وسوف نرسلك مرة ثانية إلى خراسان[2] .

وحملوا الحاكم الأسير إلى بغداد بعد أن فكوا الأغلال من عنقه ، وأعطوه منشور ولاية خرسان مرة أخرى .

وقد حدثت هذه الموقعة يوم الأحد ١٠ رجب عام ٢٦٢ هـ وامتدت من الظهر إلى المساء .

---

(١) وفيات الأعيان، ج ٥ ص ٤٥٦ .

(٢) تاريخ بغداد، ج ٤ ص ٦١ .

وكانت هذه الهزيمة فى عيد الشعانين، أى يوم الأحد الأخير قبل عيد الفصح عند المسيحيين [١] وهو يوافق ١٠ أبريل سنة ٨٧٦ م .

إنا فتحنا . . .

عاد الخليفة إلى معسكره ، ووقف محمد الطائى - أحد شعراء الديوان — فأنشد قصيدة عن هذه الحرب ومدح الموفق ، ومما جاء فيها :

ولقد أتى الصفار فى عدد لها حسن فوافاهن نكبة ناكب
أغواه أبليس اللعين بكبره واغتر مفتوناً بوعد كاذب [٢]

وذكر المعتمد أنه رأى فى منامه فى الليلة السابقة على المعركة ، أن شخصاً كتب على صدره « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » [٣]

لم أكن مستعداً للحرب :

قلنا إنهم أعدوا ليعقوب مؤامرة محكمة فى هذه المعركة . والحقيقة أن يعقوب قد أصيب بهزيمة سياسية فى محاولته تولية الخلافة للموفق ، لأنه حتى اللحظة الأخيرة لم ييأس من النصر حتى بعد أن اصطف الجيشان .

وكان السفراء ما زالوا يترددون بين الفريقين ، وهذا يدل على أن يعقوب كان يعتقد أن الموفق يقوم بكل هذه الأعمال للتظاهر وأنه سينجز الاتفاق فى الوقت المناسب .

ومما يدل على هذه المؤامرة أنه بعد المعركة التى هزم فيها يعقوب توجه أبو الساج داود إلى يعقوب وقال له « هل أدركت الآن أنه لا علم لك بسياسة الحرب» ، إذ كيف ترسل مئونة الجيش ومعداته أمامك وتضع قدمك فى موضع ليس لديك عن طبيعته أقل علم ، كما لم

(١) مروج الذهب، جـ ٢ ص ٣١٣ .
(٢) الطبرى، جـ ٨ ص ٢٤ .
(٣) وفيات الأعيان ، جـ ٥ ص ٤٥٨

يكن معك أى دليل بالإضافة إلى هـذا فإنك دخلت المعركة والريح تواجهـك ، كما أنك قدمت من شوش إلى واسط فى أربعين يوما ، بينما قطعت المسافة من واسط إلى دير العاقول فى يومين »

فقال يعقوب : لم أكن أعلم اطلاقا أننى سـأخوض غمار الحرب ، بل كنت أظن أن الأمر سيحل عن طريق الرسل الذين كانوا ما زالوا يترددون بين الجانبين ، ولـكنهم بدأوا بالحرب فجأة[٣] .

* * *

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة .

الفصل الحادي والعشرون

« أنا ابن صفار، ولكن وصلت إلى هذه
الدرجة بقوة دولتي وشدة ساعدي، وعقدت
العزم على ألا أستريح حتى أقهر الخليفة .»
من أقوال يعقوب

نهاية أمر يعقوب

بعد هذه الهزيمة واجه يعقوب أنواعاً أخرى من الفشل ، فقد غضب أخوه عمرو وتركه وتوجه إلى سيستان ، وتحول الأمل فى تعاون الموفق إلى يأس وحقد بسبب الخيانة . وخرج يعقوب من المعركة وقد هلك جزء كبير من جيشه ودوابه خصوصاً جمازاته المعروفة والجمال ، كما أنه أصبح بعيداً عن عاصمته فى سيستان ، ولم يعد لديه أمل فى جمع جيش جديد.

وقد جاءته أنباء مزعجة من خراسان ونيسابور بأن أحمد بن عبدالله الخجستانى قد سيطر على الأوضاع هناك . وكانت كل هذه المصائب كافية لأن تفقد يعقوب صوابه وروحه المعنوية ، لهذا رأى أن يتقدم بالصلح مع الخليفة فبعث إليه بكتاب يعرب فيه عن خضوعه وطاعته، ولكن كتابه هذا لم يلق رفض الخليفة فحسب بل إن زهو الخليفة بنصره جعله يأمر بكتابة رسالة إلى عبدالله بن عبدالله بن طاهر فى الرى يبشره فيها بالفتح وإطلاق سراح محمد ابن طاهر، ومنح شرطة بغداد للطاهريين[1] .

عاد يعقوب بعد هزيمته إلى واسط وفكر فى إعادة تجديد قواته ويقال إنه فى عام ٢٦٣ﻫ قام بقتال بعض أصحاب الخليفة . وقالوا أيضاً إنه فى عام ٢٦٤ ﻫ أرسل جيشاً إلى سيمره

(١) وفيات الأعيان، ﺟ ٥ ص ٤٥٩ .

ولرستان واستولى على بعض الأسرى. وفى محرم سنة ٢٦٥ هـ انضم أحد قواد الخليفة واسمه محمد المولد إلى جيش يعقوب ، فأصدر الخليفة أمراً بمصادرة أملاك هذا الرجل وثرواته فى عاصمة الخلافة [١] . ولكن أيا من هذه الحوادث لم يعط يعقوب شيئاً من التوفيق والنجاح.

عودة الشقيق :

لقد أضعفت هزيمة دير العاقول روح يعقوب المعنوية إلى أبعد حد ، وعندما وصلت أنباء الهزيمة إلى سيستان ، شعر عمرو بالندم على ما فعله ، خصوصاً عندما تلقى رسالة من أخيه يعاتبه فيها وينصحه ، ولهذا توجه عمرو من سيستان إلى خوزستان يصالح أخاه ويعاونه ، فالتقى الأخوان فى جند يسابور ، وفرحا بلقائهما ، وسعد يعقوب بعودة أخيه [٢] .

ومع هذا ، فإن فراق الشقيق ومرارة الهزيمة ، وهرب محمد بن طاهر ، وفقد تأييد الخلافة ، والبعد عن العاصمة قد أثرت كلها فى مزاج يعقوب وصحته .

لا أقبل العون من كافر :

ومن أعجب تصرفات يعقوب آنذاك أن ثورة الزنج كانت على أشدها وأوشكت أن تؤتى ثمارها ، وأصيب ديوان الخلافة بالذعر والخوف من هؤلاء الثوار السود ، ومع هذا فلم يستفد يعقوب من هذا الوضع بل ولم يقبل الحصول على أى عون منهم ، ولم يرض حتى بالرد على اقتراحهم بالتعاون معه .

وكان الزنج قد تقدموا إليه باقتراح مساعدته ، إذ بعث العلوى البصرى — صاحب الزنج — بكتاب إلى يعقوب يعلمه فيه أنه مستعد لمعاونته فى إعادة الهجوم على بغداد ، ومع أن يعقوب كان رجلا أمياً — ولا يعرف العربية — فإنه كما قلنا كان رجلا متديناً ملماً

---

(١) الطبرى ، جـ ٨ ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) تاريخ سيستان ، ص ٢٣٣ .

بآيات القرآن . ولهذا استدعى كاتبه وأمره أن يرد على كتاب صاحب الزنج رداً شديد الاختصار ، بليغ المعنى يدل على فرط زهده وتدينه — لأن يعقوب كان يعلم أنه إذا وافق على اقتراح صاحب الزنج فإن أمره سينتهي في العالم الإسلامي كله وسيستغل خصومه هذه الموافقة في الدعاية ضده وستصبح تهمة الزندقة والكفر وأنه من القرامطة والخوارج أمراً مسلماً — ولهذا كان الرد على رسالة صاحب الزنج مختصراً ، وهو هذه الآية الكريمة من القرآن : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد — وتكلمة السورة — ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين » . وقد بلغ كاتب يعقوب في هذا الرد أعلى مراتب البلاغة . وقد أرسل هذا الجواب إلى صاحب الزنج في ١١ رجب سنة ٢٦٢ هـ (أبريل ٨٧٦ م)[1] أي في نفس تلك الأيام التي هزم فيها يعقوب ، وهو أمر يعتبر من عجائب التاريخ ، فلو أن يعقوب تعاون مع صاحب الزنج فربما تغير وجه التاريخ ، فإن عمل يعقوب هذا جعل الموفق يواجه الزنج باستعداد أكثر واطمئنان من ناحية يعقوب . فقد أرسل ابنه أبا العباس على رأس ألفين من الفرسان لقتال صاحب الزنج ، ودارت ثلاث معارك على مقربة من واسط ، وتحصن صاحب الزنج في « منيعة » ، ولما بلغت أنباء هذه المعارك للخليفة خرج من بغداد وتوجه إلى واسط لتأييد ابنه ، ثم سار إلى منيعة فاستولى على قلعتها وشرع في نهبها .

وقد ألقى بعض الزنج أنفسهم في الماء وهرب بعضهم الآخر إلى الأدغال والمستنقعات ووهب الموفق لجنده خمسة آلاف امرأة كن في قبضته ، كما أمر بعودة بعض من كن في أسرهم إلى أسرهن . وقد استمرت هذه الحروب سنوات متتالية إلى أن هزم صاحب الزنج هزيمة قاطعة على مقربة من الأهواز في شهر صفر سنة ٢٧٦ هـ (يونيو ٨٨٩ م)[2] . وقتله أحد البغداديين وقطع رأسه فأرسل الموفق رأس صاحب الزنج مع أحد أبنائه إلى بغداد[3] .

---

(١) الكامل ، ج ٧ ص ١٠٣ .

(٢) قتل سنة ٢٧٠ هـ ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٣٢ (م) .

(٣) حبيب السير ، ج ٢ ص ٢٨١

ولا يمكن معرفة السبب الحقيقى فى عدم استفادة يعقوب من هذه الفرصة ، وإن أمكن إرجاعها إلى فرط زهده وتدينه ، وكان طبقاً لعقيدته يعتبر الزنج قرامطة إباحيين ومخالفين للدين . ولا شك أن الشخص الذى كان يصلى فى اليوم ١٧٠ ركعة لم يكن باستطاعته أن يمد يد الصداقة لأحد أعداء الإسلام . ولكن إذا نظرنا من ناحية أخرى إلى نبوغ يعقوب فى قيادة الجيوش ، وأن الحرب يجب أن يستغل فيها كل فرصة ، فإن صاحب الزنج كان يعتبر نفسه علويا ، وأن ديوان الخلافة قد دمغه بالكفر — كما دمغ يعقوب من قبل — لهذا يمكن القول إن يعقوب لم يستفد من الفرصة حتى لا يتفرق أعوانه الأوفياء المتعصبين من حوله ، وحتى لا يتلوث اسمه فى العالم الإسلامى لتعاونه مع الزنج . ويجوز أيضاً أنه رأى أن تقوية هذه الجماعة قد تشكل خطراً عليه فى المستقبل ، وليس بعيداً أنه كان يأمل فى عودة الصلح والصفاء بينه وبين ديوان الخلافة .

وعلى كل حال فإن يعقوب قد نسف هذا الجسر الذى كان يمكن أن ينقذه فى وقت من الأوقات : ولم يمض وقت طويل حتى أثرت فيه هذه الصدمات والفشل فسقط مريضاً فى جند يسابور ، وانتابته علة صعبة ، وبعد أن كانت الدنيا قد أقبلت عليه أخذت فى الإدبار عنه ، وأصابه مرض القولنج .

خبز وبصل وسيف :

ومع هذا فقد كان يعقوب آنذاك يعد جيشه لجولة أخرى مع الخليفة وحدث أن جاءه رسول من قبل الخليفة وهو فى فراش المرض يحمل رسالة يطمئنه فيها لأنه حارب خليفة رسول الله . ومما قال له : « إنك لم تستفد من تلك المرة ، وتعد نفسك لحرب جديدة معنا ، ولم تتب عن مخالفتنا ، وقد رأيت فى تلك المرة كمال قدرة الله وإعجاز صاحب الرسالة ، فيجب أن تتوب عن مخالفتنا وتتوجه إلى خراسان وتقنع بحكم تلك المملكة »[1] .

---

(١) تاريخ سيستان ، ص ٢٣٣ .

ثم أضاف الخليفة فى تلك الرسالة قائلا : « لقد أصبح معلوما لدينا أنك رجل ساذج غرر بك السذج ، ولم تتبصر عواقب الأمر فهل رأيت صنع الله فيك ؟ إذ أضاعك وأضاع جيشك وحفظ أمرتنا ، وهذه غفلة منك ، وقد علمنا أنك أفقت منها وندمت على عملك ورأينا أن إمارة خراسان والعراق (العجمى) لا تليق بأحد غيرك ، ولن نأمر بالمزيد عليها ، ولك عندنا كثير من العرفان بالجميل ، وقد عفونا عن خطئك لقاء خدماتك الحميدة لنا . ولهذا يجب عليك أن تنصرف عن حديثك هـذا وتعود مسرعا إلى خراسان والعراق وتنشغل بهذه الولاية »[1] .

والواقع أن الخليفة قد أعاد يعقوب إلى الإمارة جزاء خدماته السابقة ، ويبدو أنه فى الوقت نفسه كان يريد إبعاده بكل وسيلة عن أبواب بغداد .

فلما انتهى يعقوب من سماع هذه الرسالة من رسول الخليفة ، أمر أن يأتوه بقطعة من الخبز الجاف وبصلة ووضعوها بجانب سيفه الذى كان موضوعاً أمامه ، ثم قال : « إننى صفار وقد تعلمت هذه الصنعة عن أبى وكان طعامى خبز الشعير والسمك والبصل والكراث وحصلت على هذا الملك والثروة والنعمة عن طريق العيارة والشجاعة ، وليست ميراثا عن أبى أو عطاء منك ، وقد بلغ أمرى هذه الدرجة من الرفعة بقوة دولتى وشدة ساعدى ، وقد عقدت العزم على ألا أستريح حتى أقهر الخليفة ، فإذا مت فإن الخليفة سيستريح من شرى ، وإذا تركت فراش المرض فإن السيف يحكم بينى وبين الخليفة ، فإذا تحقق هدفى فبها ، وإلا فإن الخبز الجاف وصنعة النحاس موجودتان ... فإما أن أحقق ما قلت أو أعيش على خبز الشعير والسمك والبصل والكراث »[2] .

عاد رسول الخليفة وعرض رد يعقوب ، ولكن مرض يعقوب طال ، وكان أعوانه يلتفون حول الفاتح الكبير التفاف الفراش على النور ، خصوصاً عمرو — الشقيق الذى آذى

---

(١) سياستنامه، ص ١٥ .

(٢) حبيب السير، جـ٢ ص٢٤٧ .

شقيقه فى أواخر عمره — ولهذا كان يقوم على خدمته كثيراً أثناء هذا المرض[1] .

وعلى الرغم من كل ما بذلوه من علاج،وقدموه من دواء فإنه لم ينفع ولم يكف يعقوب عن صلابة الرأى حتى آخر لحظة ، فمع أن الأطباء كانوا مجمعين على أن علاج هذا المرض يتوقف على حقنة شرجية ، فإن يعقوب امتنع[2] ، وقاوم بكل اصرار وقال : « إن موتى لأسهل على من حقنى » . وفى يوم الاثنين العاشر من شوال عام ٢٦٥ هـ (٩ يونيو ٨٧٩م) لبى نداء ربه ، ووصل نعيه إلى سيستان يوم الأحد لأثنى عشر بقين من شوال من العام نفسه[3] .

وتوفى يعقوب فى جنديسابور، ودفن بها ، وتوفى نتيجة لمرض القولنج، واستمر مرضه ١٦ يوماً[4] . والعجيب أنه لم يغفل حتى اللحظة الأخيرة عن الرغبة فى الانتقام من الخليفة وأعاد جمع جيشه ، ثم توجه إلى بغداد ، فلما قطع ثلاثة منازل ، أشتد عليه القولنج، ووصلت به العلة إلى حالة أدرك معها أنه لن يبرأ منها ، فجعل أخاه عمرو بن الليث ولياً لعهده وأعطاه بياناً بأمواله وكنوزه[5] .

شاهد قبر يعقوب :

بعد دفن يعقوب كتبوا على قبره هذين البيتين من الشعر[6] :

ملكت خراسانا وأكناف فارس ... وما كنت من ملك العراق بآيس

سلام على الدنيا وطيب نسيمها ... إذا لم يكن يعقوب فيها بجالس

(١) تاريخ سيستان، ص٢٣٣ .
(٢) حبيب السير ج٢ ، ص٢٤٧ .
(٣) تاريخ سيستان ، ص ٢٣٣
(٤) وفيات الأعيان ، جـ٥ ص ٤٦٣ .
(٥) تاريخ سيستان ، ص ١٦ .
(٦) وفيات الأعيان ، جـ٥ ص٤٦٥ .

ويقال إن ترجمة هذه الأشعار بالفارسية قد كتبت على القبر أيضاً ، ويحتمل أن يكون شاهد القبر قد أعد بأمر يعقوب قبل وفاته ، والدليل على هذا أن هذا الرجل العظيم رغم أنه كان محارباً ومقاتلا ، إلا أنه كان ذا روح لطيف وقلب حساس محب للشعر وهناك بيتان من الشعر الفارسي القديم ترجمة للبيتين العربيين ، ولكن لا يعرف اسم الشاعر الذي ترجمها : *

وقد أورد المسعودي أبياتا من الشعر العربي بصورة أخرى ، وقال إن يعقوب أمر أن تنقش على قبره وهي :

خراسان أحويها وأعمال فارس ... وما أنا من ملك العراق بآيس

إذا ما أمور الدنيا ضاعت وأهملت ... ورثت قصارات كالرسوم الدوارس

خرجت بعون الله يمنا ونصرة ... وصاحب رايات الهدى غير حارس

وذكر المسعودي أنه ترك في بيت ماله ٥ مليون درهم و ٨٠٠ مليون دينار[1] وجاء في معجم البلدان « إن قبر يعقوب في جنديسابور » ، وذكر صاحب كتاب حدود العالم « إن وندشاور مدينة عامرة كثيرة النعم ، وبها قبر يعقوب بن الليث »[2] ، ويجب أن نعلم أن هذه المدينة من بناء سابور الساساني وأن اسمها الأصلي هو « وه انتيوخ شابور » ومعناه « مدينة سابور التي هي أحسن من أنطاكية » ، ويبدو أن سابور كان قد بناها لأهل أنطاكية الذين طردوا من بلادهم . ويقال إن يعقوب كان يزمع جعل جندي سابور عاصمة له[3] .

(*) يقول ابن خلكان « رأيت في مذكراتي أن يعقوب توفي في الأهواز ثم حمل تابوته إلى جنديسابور حيث دفن بها وكان منقوشا على قبره « هذا قبر يعقوب المسكين ثم الأبيات التالية :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

(ذيل ص ٢٧١) (م)

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣١٤ .

(٢) حدود العالم ، ص ٨١ .

(٣) الجغرافيا التاريخية ، بارتولد ، ص ٢٤٣

على قبر يعقوب :

أما فيما يتعلق بقبر يعقوب فإننا ننقل هذا نص رأى للمرحوم الأستاذ عباس إقبال الأشتيانى فهو يقول: «فى صيف ١٣٢٦ هـ . ش. (١٩٤٧) فكرت فى الذهاب إلى مكان وفاة يعقوب بن الليث والقيام بأبحاث ميدانية هناك لعلى أجد آثراً من مدفن هذا الرجل العظيم ومن حسن الصدف أنى تعرفت على شاب مستنير الفكر من الأهواز ، هو السيد محمد على المرتضوى ، فذكر لى أنه قبل نحو ستة عشر عاما أو سبعة عشر عاما تعطلت سيارته على الطريق بين دزفول وشوشتر، وعلى بعد بضعة فراسخ من دزفول، فاضطر للذهاب إلى قرية هناك على مقربة من الطريق اسمها شاه آباد (جنوب شرق دزفول) وتوجه إلى مدفن هناك يعتقد أهل القرية أنه لأحد الأئمة وقال : إنه فى ذلك الوقت كانت توجد على الحائط كتابة عربية قديمة ، وكان اسم يعقوب بن الليث مذكوراً فيها بوضوح ، وهو يعتقد أن قبر يعقوب يوجد هناك . وتوجد فى هذه القرية قبة مكونة من دوائر كثيرة الاضلاع تبدو على شكل مخروطى ، وتعرف بقبة دانيال ، ويقول أهل الناحية إنها للامام « شاه أبو القاسم » وهناك احتمال كبير وقوى أن تكون هذه المقبرة هى مقبرة يعقوب بن الليث ، أما الكتابة العربية التى رآها السيد مرتضوى فلا وجود لها اليوم . ويقول أهل شاه آباد إن هذه الكتابة نزعت منذ سنوات أثناء اجراء بعض الإصلاحات وطلى مكانها[1] .

(١) مجلة « يادكار » ، السنة الرابعة، العدد ٤ ، صفحة ١٢٨ .

الفصل الثاني والعشرون

« من حرفة النحاس قصدت أماكن العظماء
من العجم ، ووصلت إلى درجتهم ».
من أقوال يعقوب نقلا عن
إحياء الملوك

صفاته الخلقية

الرجل الذى نهض من الحضيض وتصدر القصور :

انتهت قصة حياة يعقوب ، وهى قصة رجل عظيم وقائد أقام على بقايا أطلال العرب وخرائبهم فى بلاد إيران التاريخية صرحا جديداً للاستقلال ، وامتد نفوذه من سواحل هيرمند والسند إلى أطراف دجلة ولا بأس الآن من أن نذكر فى بضعة أسطر شيئاً من الحياة الخاصة لهذا الرجل العظيم ونبين بعضاً من صفاته النفسية .

وأول شىء يجب أن نذكره هو الروح العسكرية عند يعقوب . فقد كان جنديا بكل ماتحمله الكلمة من معنى ، جنديا نشطاً محافظاً على الوقت ، خشناً نافذاً الأمر مهيمنا وأما سر توفيقه فكان فى طاعة جنده له إذ كانوا يطيعون أوامره بدرجة لا يمكن تصورها ، وقد رأينا نموذجا من إطاعة جنده له عندما تحدثنا عن حملته على إقليم فارس .

الراحة ممنوعة :

كان يعقوب — مثل كل أبطال التاريخ المحاربين — لايوجد فرصة تسمح لجنده بالراحة والاسترخاء ، أو أنهم لم يجدوا هذه الفرصة على الأقل ، إذ كان رجلا كأنه ولد على ظهر فرس ، وتربى فى أردية من الدروع ، وفراشه فى الليل سرج فرسه ، ولم يفكر قط فى

الراحة أو البحث عن التعـــة • ويقولون إنه اعتزم السفر مرة وكان فى الصيف ، فلبس سلاحه ودروعه ووقف فى حرارة الشمس على أحد السفوح فى انتظار الوقت الذى عينه المنجمون • فقال له أحد الندماء إن حرارة الجو فى غاية الشدة ، فلو أن الملك استراح فى الظل ، حتى يحل الوقت المقرر لـكان هذا من الصواب . فرد عليه يعقوب قائلا : « إذا لم تـكن لى القدرة على تحمل حرارة الشمس وعودت نفسى على الراحة،فـكيف لى أن أتحمل غدا وخز الرماح وطعنات السيوف والسهام ، وبأى استعداد أحمل على الأعداء »[1] .

والعجيب أنه على عكس كثير من أبطال التاريخ وقواد المعارك الذين كانوا أسرى للنساء والغلمان ، قد سيطر على نفسه بالرياضة والقناعة والزهد ، فقد كان يوما ـ قبل أن يصبح ملـكا ـ جالسا مع شباب قبيلته فى أحد الأماكن فمر أحد الشيوخ من أقاربه وقال له : « يايعقوب إنك شاب وسيم ورشيد وناضج ، فاعد نفسك لـكى أخطب لك عروسا جميلة من أعيان القبيلة » .

قال يعقوب : « ياوالدى ، لقد أعددت نفسى لتلك العروس التى أريدها » .

قال الشيخ : « ومن تـكون ؟ »

فسحب يعقوب سيفه من غمده وقال : « لقد خطبت عروس ممالك الشرق والغرب ، ومهرها هو هذا السيف القاطع وهذا الحسام الذى يحطم الدروع »[2]وقد أشاروا إلى هذا البعد عن النساء فقالوا « إن جماعة من شباب سيستان كانوا يتسامرون ويذكرون بعض اللطائف والطرائف ، وكان يعقوب معهم ـ ولم يكن قد شرع فى طلب الملك ـ فقال أحدهم: إن ألطف الألبسة هى الأطلس الختائى ، وقال آخر إن الطف التيجان هى الطواق الرومية وذكر آخر أن أجمل المنازل هى المملوءة بالورد والريحان،وأضاف آخر:إن أوفق المشروبات

---

(١) روضة الأنوار ، ص ٢٢ •

(٢) لطايف الطوايف، ص ٧٤ .

هى الخمر المصفاة، وقال آخر إن ظلال الصفصاف أجمل ، وعبر آخر عن الموسيقى ، فقال إن ألطف النغمات وأوقعها هى ألحان العود ، وقال أحدهم إن الشباب الجميل حسن السيرة أليق للمنادمة فى المجالس والحفلات . فلما وصل الدور إلى يعقوب قالوا له قل لنا شيئا ، فقال يعقوب: إن ألطف الألبسة هى الدروع، وأجمل التيجان هى الخوذات، وأحسن المنازل هى معارك القتال، وألذ الأشربة هو دم الأعداء، وأرق الظلال هو ظل الرماح، وأكرم الرجال هم رجال العمل ومبارزو الميدان [1] .

البعد عن المرأة :

يبدو أن يعقوب لم يتزوج قط فى حياته ، ولم يشر إلى هذه المسألة فى كتب التاريخ ، ولم يذكر له ابن أو أبناء . ومع أن كتب التاريخ قد أفاضت فى ذكر وقائع السنوات الأخيرة من عمر يعقوب ، إلا أنها لم تشر أصلا إلى هذا الموضوع . ونحن نعلم أنه بعد وفاة يعقوب تولى أخوه عمرو الأمر بتعيين من يعقوب ، ولم يذكر شىء عن أبناء له سوى ماجاء فى إحدى التذاكر من نسبة ولد إلى يعقوب . ولكن إثبات ذلك تاريخيا يكتنفه شىء من الصعوبة . فقد جاء فى تذكرة الشعراء للسمرقندى أنه فى أحد أيام الأعياد كان طفل يعقوب الجميل الصورة يلعب بالجوز مع الأطفال ، فلما وصل يعقوب إلى أول الطريق وقف ساعة يتفرج على اللعبة ، فألقى الطفل بضعة جوزات سقطت سبع منها فى الحفرة ، ولكن واحدة أرتدت منها فيئس الطفل ، ولكن الجوزة التى كانت قد خرجت من الحفرة عادت تتدحرج ببطء إلى الحفرة ، فأخذ السرور من الطفل مأخذه وجعله يقول مصراعا من الشعر معناه تسير متدحرجة متدحرجة إلى حافة الحفرة . فأعجب يعقوب بهذه الشطرة من الشعر وقال لمرافقيه : « هذا المصراع من الشعر وهو جيد» [2] .

ولكن يجب القول إن هذه القصة كلها من اختراع كاتب التذكرة لأن هذه القصة

(١) مجالس المؤمنين ص ٢٩٦ .
(٢) أز رويـكوى بسلطنت .

وردت فى المعجم بصورة أخرى ، أو بالأحرى بشكل مختلف تماما ونسبها إلى الرودكى والمصراع هو : متدحوجة متدحرجة إلى قاع الحفرة[1]. ولو كان لها ارتباط بيعقوب لذكره صاحب المعجم . ويبدو أن صاحب التذكرة أراد أن يجد مناسبة لينسب فيها شعراً فارسيا ليعقوب بن الليث . وإذا كانت كنية يعقوب أبا يوسف[2] فهى ليست دليلا على أنه أنجب ابنا ، لأن هناك كنى قد وضعت لأشخاص لم ينجبوا أبناء وهذه الكنية فى العربية تقال للاحترام والتبجيل وليست استنادا لشخصية أو إثباتا لبنوة .

والدليل الآخر على أن يعقوب لم يترك ذرية هو علاقته وحبه لأطفال الآخرين فقد كان أغلب اشتغاله واهتمامه بالأطفال الصغار الذين كان ينتخبهم ويقوم بتربيتهم[3] والمعروف فى علم النفس أن الذين لم ينجبوا أطفالا يبدون علاقة بأطفال الآخرين ويتسلون بهم .

وأكبر دليل على أن يعقوب لم ينجب أطفالا أنه لم يكن له وريث فى الملك من ذريته ، ولهذا تولى أخوه الحكومة من بعده دون أى حادث أو معارضة .

تعصبه وطهره :

كان يعقوب شديداً قاسيا فى المحافظة على الناموس وعورات النساء ، ولم ينظر إلى أحد قط بعين الفسق أو الفجور ، سواء أكان امرأة أو غلاما. ويقال إنه فى إحدى الليالى المقمرة نظر إلى غلام من غلمانه فغلبت عليه الشهوة ، فقال « ماذا يحدث إذا تبت وأعتقت الغلمان » وصاح بصوت مرتفع « لاحول ولاقوة إلا بالله » حتى إنه أيقظ كل الغلمان .

---

(١) المعجم فى معايير أشعار العجم، ص ٨٤ .

(٢) تاريخ سيستان ، ص ٢٠٠ وقصيدة محمد بن وصيف السجزى فى مدح يعقوب والتى مطلعها . اى أميرى ...

(٣) مروج الذهب، جـ ٢ ص ٣١٥ .

وعاد يعقوب إلى فراشـــه ، وفى الصباح كان الحزن مستوليا على كل من بالقصر ، ولا أحد يعلم لماذا ؟ وأمر يعقوب أن يؤخذ ذلك الغلام — واسمه سبكرى ـ وكان قد وقع أسيراً فى يد يعقوب أثناء حربه فى الرخج مع ابن رتبيل ، ويبدو أنه كان فى غاية الجمال ـ إلى النخاس ، فقال الخادم للغلام « يجب الذهاب للنخاس بناء على أمر الملك » .

فقال الغلام « الأمر له ، ولـكن يجب أن أعرف ما هو جرمى » .

فذهب الخادم وذكر ليعقوب ماقاله الغلام .

فقال يعقوب « إن جرمه ليس كبيراً ، لا أستريح إلى النظر إليه لحسنه » .

قال سبكرى « ليس فى هذا شىء من العقل ولا من الحمية حتى يجعلنى سيدى فى يدى رجل لا يعرف الله ولا يحافظ على » فابلغوا هذا القول إلى سمع يعقوب .

قال يعقوب « دعوه ولـكن احلقوا رأسه واجعلوه سايسا على أفراس القصر ولا أريد أن يأتى إلى » .

ولم يظهر سبكرى أمامه إلى ذلك اليوم الذى توفى فيه حاكم فارس ، وكانوا يبحثون عن حاكم يحل محله ، وبعد مشاورات قالوا : « إن سبكرى رجل عاقل وهو الذى يليق لهذا المنصب » . فـكتبوا له العهد وخلعوا عليه[1] . وفى ذلك اليوم وبعد سنوات حظى سبكرى برؤية يعقوب .

جزاء المنتهكين للحرمات :

لم يكن يعقوب يسمح لجنوده أبداً أن يتفرقوا فى المدن ، أو أن يقيموا علاقات مع الناس ، ولم يكن يترك لهم فرصة للراحة والمتعة واللهو ، وعود كل قادته على هذا فاذا خالف أحدهم أوامره كان يجازيه أشد الجزاء .

(١) تاريخ سيستان، ص ٢٦٤ .

ويقولون إنه كان يجلس يوما فى حديقة قصره(*) فرأى شخصاً جالسا عند أول محلة سينك (محلة كانت تقع أمام قصر يعقوب) وقد أسند رأسه إلى ركبتيه ، فتفكر فى أمره وقال : لا بد أنه حزين مغموم . فأرسل على الفور حارسا أحضر ذلك الرجل ، فلما حضر قال : أيها الملك إن حالى أصعب من أن أقصه عليك ، ذلك أن قائدا من قوادك يهبط من السقف كل ليلة أو ليلتين على ابنتي دون رغبتى ، ويرتكب الفاحشة ولا طاقة لى على دفعه » .

قال يعقوب : « لاحول ولا قوة إلا بالله ، لماذا لم تخبرنى ؟ اذهب إلى منزلك وحينما يأتى تعالى إلى هنا ، وستجد عند كشك الحديقة رجلا بدرعه وسيفه سيذهب معك ويقضى لك كما أمر الله بالنسبة لمنتهكى الحرمات » .

وذهب الرجل ولم يأت تلك الليلة ، فلما كانت الليلة التالية جاء فاذا برجل ينتظره وقد لبس درعه وسيفه فذهب معه إلى منزله . وكان هذا القائد موجودا فى البيت ، فرفع سيفه وهوى به على مفرقه فشطر رأسه شطرين . ثم قال له : « أشعل المصباح » . فلما أضاء النور ، قال له « اسقنى » فناوله الماء فشرب ، ثم قال « آتنى خبزا » فلما أحضره أكل منه . ونظر والد الفتاة إلى الرجل فاذا هو يعقوب نفسه جاء للانتقام ، ثم قال يعقوب للرجل والله العظيم ، إننى لم أذق الطعام أو الماء منذ قلت لى ذلك الكلام ، ونذرت لله تعالى ألا آكل طعاما حتى أريحك من هذا الشر » .

قال الرجل « وماذا أفعل بهذا الآن ؟ (مشيرا إلى جثة ذلك القائد) .

قال يعقوب « احمله » . فلما حمله الرجل ، قال يعقوب « ألقه على حافة خندق المدينة » فحمل الرجل الجثة ، ورافقه يعقوب حتى ألقاه على حافة الخندق ، ثم قال يعقوب « الآن عد أنت إلى منزلك » .

(*) كان قصر يعقوب يقع بين بوابة « طعام » وبوابة « فارس » وبنى عمرو قصرا هناك ، وكان بيت يعقوب هو بيت إمارته (الاصطخرى ص ٢٤١) . (م)

فلما كان الصباح ، أمر يعقوب بالمنادى يسير فى المدينة ويقول « من أراد أن يرى جزاء المتهكين للحرمات ، فليذهب إلى حافة الخندق ويرى جثة ذلك الرجل »[١].

وكان يعقوب قاسيا فيما يتعلق بالشهوات وهوى النفس . ويبدو أن هذه الرياضة الروحية وكبح جماح النفس قد أثرت فى أخلاقه إلى درجة أنه كان يضحك قليلا ، ولم يكن أحد ممن يجالسونه سواء لمدة أربعين يوما ، أو أربعين عاما ، يدركون مافى قرارة نفسه ، أو يقفون على كيفية سلوكه[٢] .

وكان يعقوب نشيطا فى القيام بأمور الجيش ، ولم يخرج عن مظهر الجندى العادى وكان يتولى بنفسه القيام بأعمال التجسس أثناء المعارك والحملات ، ويقوم بالحراسة أثنـــاء السفر[٣].

قناعته وبساطته :

أعد يعقوب دفاتر ودواوين وحسابا مستقلا لأمور جيشه ، وكان يدفع رواتب الجند من صندوق خاص ، بينما كان شديداً على نفسه ، فـكان ينام على قطعة من الحصير طولها نحو سبعة أشبار وعرضها ذراعان (نحو متر) وكان درعه دائماً بجانبه يتكىء عليه ، فاذا أراد النوم جعله كالوسادة تحت رأسه . وكان أحيانا يجعل من علم الجيش غطاء له ، وكان يلبس القفطان فى أغلب الأحيان .

وكانت بساطة يعقوب هذه لافتة للأنظار . فقال له أحد الرسل يوما « إنك تدعى الزعامة ، وليس فى خيمتك غير هذا الـكليم الذى تجلس عليه ، والسلاح الذى تلبسه » فقال له يعقوب « كما يعيش القائد فان الخدم يعيشون على نهجه »[٤]

(١) تاريخ سيستان، ص ٢٦٥.
(٢) وفيات الأعيان، جـ ٥ ص ٤٦٤ .
(٣) تاريخ سيستان، ص ٢٦٤.
(٤) روضة الصفاء جـ ٤ ص ١٤ .

وكان يعقوب يدفع نفقات الجند من لباس وسلاح وطعام وشراب ونفقات الدواوين من صندوق الجيش ، وإذا أخطأ جندى أو أقدم على سلوك معيب ، فانه يكون موضع غضب وتلغى كل امتيازاته ، وأحيانا كان يطرد من الجيش[١] .

وكان كل فرس فى الجيش ملكا له يدفع ثمن عليقه من جيبه ، وكان يجلس على منصة خشبية مرتفعة تشرف على كل الجيش . وكان يأمر بتغيير أى وضع فى الجيش لايروق له . وكان له حرس من ألفين من الرجال المختارين ، أعطى ألفا منهم صولجانات من الذهب وألفا صولجانات من الفضة وزن كل منها ألف مثقال (٥ كجم تقريبا)* وكان حملة الصولجانات الذهبية والفضية يصطفون صفين فى عيد النوروز والأعياد الأخرى والاحتفالات ، وعند قدوم الأعيان ، ويضعون تلك الصولجانات على اكتافهم[٢] وهذه الصولجانات تعيد إلى الذاكرة حملة الرماح فى عهد بيزسترات حاكم اليونان الذى كان يشبه يعقوب فى كثير من الصفات ، ولم يكن أى إنسان يقف على أسراره ، فلم يكن يستشير أحدا ، وعندما كان يهزم عدوه لم يكن أحد من جنده يجرؤ على مد يده للنهب[٣] .

وهذه الشدة وتلك القسوة أدت إلى انتظام جنده ، وجعلت حملاته الخاطفة لا تنتهى إلى الهزيمة إلا نادرا ، فقد كان كل جنده مستعدين للقتال مبرأين من كل عيب .

وكانت خيمة يعقوب تنصب دائما فى وسط المعسكر ، وبجانبها خيمة غلمانه الخصوصيين الذين كان يناديهم كلما احتاج اليهم ، وكان خمسمائة غلام ممن يطمئن إليهم يبيتون دائما حول خيمته . وكان يطهى فى مطبخ خاصته عشرون خروفا كل يوم . وعند تناول الطعام كان يعطى غلمانه نصيبهم قبل أى شخص آخر .

---

(١) مروج الذهب ، جـ ٢ ص ٣١٥ .

(*) المثقال حوالى ٥ر٤ جرام .

(٢) لب التوريخ نقلا عن مروج الذهب ص ٨٢ واحياء الملوك ورقة ٢٧

(٣) روضة الصفا ، جـ ٤ ص ١٤ .

الحمير الصفارية :

كان فى جيش يعقوب خمسة آلاف جمل بختى ـ وهى جمال سريعة الجرى ـ وأضعافها من الحمير والبغال ، خصوصا الحمير الشهباء التى كانت فى جيشه واشتهرت بلونها وسرعتها وقدرة تحملها ، حتى عرفت فى كل مكان بـ « الحمير الصفارية » ، وكانت تستخدم بدل البغال فى حمل الأمتعة عند السفر[1] . ويبدو أن هذه الحمير قد تركت شهرة فى التاريخ ، ولهذا كانت أكبر كارثة حلت بيعقوب فى حربه مع الخليفة هو فقده لخمسة آلاف جمل حربى غرقت أو احترقت ، مما جعل جيشه يبقى دون وسائل انتقال .

صديق الفقراء وخصم الأغنياء :

كان يعقوب يهتم بحالة الشعب العامة من الناحية الاقتصادية ، وكان يرعى الطبقات الفقيرة والبسيطة رعاية عظيمة . وكان من أهم أعماله عندما تولى السلطة أن أعفى الطبقات المتوسطة والفلاحين الفقراء فى سيستان من الضرائب ، فأصدر أمراً جاء فيه : « كل من يقل دخله عن خمسمائة درهم فى ولايتى لا يؤخذ منه خراج ويمنح صدقة »[2] .

— ولعل يعقوب أول ـ وربما آخر ـ ملك إيرانى ـ قبل صدور الدستور ـ يتخذ إجراء جذريا بالنسبة لتأمين مستقبل أفراد الشعب الفقراء ، وعلى الخصوص هؤلاء الذين يقل دخلهم عن ٥٠٠ درهم ، أى أنه أعطى إعانة أشبه بتأمين اجتماعى أو معاش تقاعد .

ومع هذا فإن القادرين وأصحاب الثروات لم يكونوا أبداً فى مأمن من الاستيلاء على ثرواتهم . ومن الكلمات القصيرة لعمرو ـ شقيق يعقوب ورفيقه وزميله الذى لم يؤذ ضعيفا قط مثل يعقوب ـ قوله « إن الدهن لا يوجد فى بطن العصفور ، ولكنه يوجد فى بطن الثور »[3] . أى أن دخل الحكومة يجب أن يؤخذ من أصحاب الثروات وليس من الفقراء ـ وباصطلاح هذه الأيام يجب أن تكون الضرائب مباشرة لا غير مباشرة .

---

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣١٦ .

(٢) تاريخ سيستان ، ص ٢٦٣ .

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة

والحقيقة أن تولى يعقوب وإخوته الحكم يعتبر بداية تحول اجتماعى كبير فى سيستان والمدن الكبيرة المجاورة والقريبة ، لأن الطبقات الحاكمة والثرية زالت فجأة من المجتمع ، وصودرت أموالها ، وظهرت مكانها طبقة حاكمة من المستضعفين والأشخاص الذين لم يكن لهم أى نفوذ فى جهاز حكم الأشراف . ذلك أن أمثال حامد سرناوك وأشباه عزيز بن عبد الله وأضراب أزهر الحمار ظهروا على مسرح الأحداث، واختفى أشخاص مثل ابن فرقد من ميدان السياسة والنفوذ فى المدينة ، بل إن هؤلاء « البلطجية » والمرتزقة — على حد قول عمرو — قد أخرجوا الشحم من بطون الثيران ، وهذا أول أثر اجتماعى مهم من آثار يعقوب.

الأثر الثانى هو أن تنظيمات العيارين الدقيقة والمنظمة قد دفعت أهل سيستان إلى التشكيل والتعاون الاجتماعى ، وظهرت فيهم روح جعلت من هذه الحفنة من الرجال الضعاف النحاف المرضى ، فى ظل يعقوب ، يسقون خيولهم من مياه نهر دجلة ومن شواطىء بحر الخزر ، ومن ضفاف نهر جيحون .

وهذان الأثران المهمان كان لهما أثر اقتصادى هام ، إذ أن توقف قوافل الخراج والمكوس التى تحمل دراهم سيستان ودنانيرها الذهبية عن الذهاب إلى بغداد ، ووصول كثير من الأموال من كرمان وخراسان وكابل وبلخ إلى سيستان ، أدى إلى تحول اقتصادى عظيم فى هذه المدينة إلى درجة أنه كان يجرى التعامل يوميا على ما قيمته ألف درهم من الغلال[1] فى سوق عمرو بن الليث. وكان من آثار هذا الدخل ان يعقوب الذى كان يوما يتقاضى أجرا شهرياً مقداره ١٥ درهما أصبح يتصدق يومياً بألف دينار ، ولم يعط قط عطاء يقل عن مائة دينار أو ألف دينار، وكثيرا ما أعطى عشرة آلاف أو عشرين ألفاً وخمسين ألف ومائة ألف دينار أو درهم من قبيل الشهامة والفتوة[2] . وبلغت تركته أكثر من ٨٠٠ مليون دينار .

---

(١) المسالك والممالك ، ص ٢٤١

(٢) تاريخ سيستان، ص ٢٦٣ :

الصدق فوق كل شيء :

كان يعقوب رجلا عادلا بصفة عامة ، لم يخرجه الغضب أبدا عن الطريق القويم ، ولم ينس قط وضعه السابق وفقره . ومن الحوادث المثيرة فى حياته أنه أثناء حكمه عاقب أحد أغنياء سيستان فأخذ كل ماله وجعله فى حاجة إلى كسرة من الخبز ، وفى أحد الأيام جاءه هذا الرجل ، فسأله يعقوب « كيف حالك اليوم » ؟

فقال الرجل « هى كحالك بالأمس » .

وبعد برهة من التأمل عاد يعقوب يسأله « وكيف كانت حالى بالأمس » ؟

قال الرجل « كانت كحالى اليوم » .

فغضب يعقوب فى أول الأمر قليلا ، وطأطأ رأسه لحظة وأخذ يغلى ، ولكنه عاد إلى عدله ، وأثنى على كلام هذا الرجل ، وأمر برد أمواله كلها إليه [1] .

اطلاعه على الأحوال الاجتماعية :

لما كان يعقوب قد نشأ فى أزقة مدينة سيستان ، وكان مطلعا على أحوال الناس ، فإنه كان يدرك شئونهم بمجرد أى أشارة . ولم يكن من السهل خداعه أو الكذب عليه . فحينما مضى إلى نيسابور ، أرسل كاتبا إلى سيستان لكى يوافيه بأحوال أهلها حتى لا يكون بعيداً عنها . فذهب هذا الرسول وجمع كثيراً من المعلومات والشواهد حتى يستطيع أن يقدم تقريرا واقعياً ليعقوب . ويبدو أنه كان يريد أن يشغل يعقوب ساعة أو ساعتين فى قراءة هذا التقرير المفصل ، ولكن يعقوب الذى لم يكن لديه الوقت لسماع كل هذه التفاصيل ، التفت للرسول وسأله ثلاثة أسئلة أدرك منها كل أحوال سيستان . ومدار هذا الحوار اللطيف هو :

سأله يعقوب « هل ذهبت إلى ديوان المظالم » ؟

---

(١) لطائف الطوائف ، ص ١٣٣ .

قال « ذهبت » .

فسال يعقوب « ألم يشتك أحد من أمير الماء » ؟

قال الرسول « لا » .

قال « الحمد لله » .

ثم عاد يعقوب فسأله « هل مررت على خشبة عمار » ؟[1]

قال الرسول « مررت » .

قال يعقوب « هل كان هناك أطفال » ؟

قال « نعم » .

قال يعقوب « الحمد لله » .

ثم عاد يعقوب يسأله « هل ذهبت عند المئذنة القديمة » ؟

قال « نعم » .

قال يعقوب « وهل رأيت هناك أحدا من الفلاحين » ؟

قال « لا » .

قال يعقوب « الحمد لله » .

ثم أراد الرسول أن يبتدىء فى عرض تقريره وتقديم نسخ منه ولكن يعقوب قال له « لقد عرفت . ولا داعى للزيادة » .

فنهض الرجل وذهب إلى شاهين بتو (بتو : قرية من قرى سيستان ينسب إليها شاهين هذا) وذكر له ما حدث ، فقال له شاهين : « سأنظر فى الأمر » ، فقد ظن الرجل أن عمله

---

(١) خشبة عمار يبدو أنها المشنقة التى شنق عليها عمار الخارجى ، فاشتهرت بهذا الأسم ، وكانت فى احد اركان الميدان العام الذي كان الشباب يجتمعون فيه ويلعبون ، أو لعل الكلمة محرفة فى الفارسية ومعناها قناة عمار .

لم يكن كما يجب ، أو أنه ربما ارتكب خطأ فى حق الأمير جعله لا يهتم بتقريره ، ثم ذهب شاهين إلى الأمير وقال له « إن هذا الرجل أتى بأخبار ويريد عرضها » .

فقال له يعقوب « لقد قال كل شيء ، واستمعت له » . ذلك أن أمور سيستان مرتبطة بثلاثة أشياء هى : العمران والألفة والمعاملة ، وقد سألته عن ثلاثتها ، فأما العمران فهو مرتبط بأمير الماء ، وقد سألته ألم يكن فى ديوان المظالم أحد يشكو من أمير الماء ؟ فقال : لا ، فعلمت أنه لا يوجد عائق فى سبيل العمران (أى أن ماء نهر هيرمند يقسم بالعدل وأن شخصا لا يشكو القائم عليه ، ذلك أن عمران سيستان يقوم فى الواقع على طريقة تقسيم ماء نهر هيرمند ، وهذا دليل على رضاء الناس) وأما الألفة فبداية أمرها اللعب [1] إذا لم يقع التعصب بين الفريقين كان اللعب يجرى بين فريقين من الأطفال عند خشبة عمار ، فسألته ، فقال : يوجد فعلمت أن الألفة تجمعهم ولا تعصب هناك .

والشيء الثالث هو معاملة العمال والرعية ، فاذا وقع على الناس ظلم أو ضيم فإنهم يتشاورون فى أمرهم تحت المئذنة القديمة ؛ حيث يجتمعون هناك وينظرون فى الظلم الواقع عليهم ، فاذا لم يجدوا العدل أخذوا فى الأعداد للهروب — يقصد الهجرة — فاذا لم يكن أحد هناك أدركت أنه لا يقع جور على الرعية .... فماذا أسأل أكثر من هذا ؟

من هذه القصة ندرك مدى الإصلاحات الاجتماعية التى قام بها يعقوب فى سيستان ، ونرى مدى توجيه واهتمامه بهذه الأمور . وأولها مسألة تقسيم مياه هيرمند التى وصلت فى عهده إلى أقصى حد من التنسيق والتنظيم . ذلك أن الأشخاص الذين لهم إلمام بطريقة تقسيم المياه فى المناطق الجافة ، القريبة من الصحارى ، يعلمون أن أكثر مشكلات الناس هناك ناشئة عن توزيع المياه فى القنوات والترع دون عدل . ويبدو أن يعقوب وزع مياه نهر هيرمند بين الملاك بدقة وعدل مراعيا سهم كل شخص ومدى احتياجه واستهلاكه ، حتى لم يعد لأحد منهم حاجة للشكوى أو التظلم . وهذا العمل هو ما قام به الشيخ بهائى

(١) تاريخ سيستان ، ص ٢٦٧ .

العاملى بعد عدة قرون فى تقسيم مياه نهر زاينده رود مستعينا بإحاطته بعلوم الرياضة والهندسة .

الأمر الثانى هو إيجاد الوحدة والاتحاد بين أهل سيستان . فقبل يعقوب كانت التفرقة تسودهم.ومن أمثلتها السمكيون والصدقيون والبكريون والتميميون، وكان كل فرد ينتمى إلى طائفة من هذه الطوائف يثير معارك أو مشاجرات لا داعى لها. ولم يقم يعقوب بالقضاء على هذه الانقسامات ، بل إنه قضى أيضاً على أعدائه الشخصيين وهم الخوارج الذين رأينا أنهم انضموا إليه وأصبحوا من فدائييه وتعاونوا معه فى حربه. ويتضح من هذا أن يعقوب عمل بكل طاقته على تقوية الروح الوطنية فى أهل سيستان ، وجعلهم وحدة واحدة ، وأدى هذا إلى جعلهم ينظرون إلى مشاكل الحياة بنظرة أوسع ، ويتركون الخلافات الصغيرة الداخلية ويتطلعون إلى فتح البلاد البعيدة .

الأمر الثالث هو العدالة الاجتماعية ورعاية الحالة الاقتصادية للمجتمع ، فعن طريق تنظيم سجلات للضرائب والحسابات ، وإعفاء الفقراء والضعفاء من الضرائب ، بل ومساعدتهم وأخذ ما يزيد عن احتياجات كبار الملاك وأصحاب الثروات ، أوجد إصلاحا اجتماعيا عظيما بين رعيته . كما أنه وضع أسسا قوية للتحقيق فى شكاوى الناس وإقامة العدل ولم يكن يتسامح أبداً فى توقيع الجزاءات على قواده أو أصحاب المناصب إذا ظلموا أو انتهكوا حرمات الناس . وقد رأينا مثلا على هذا فى قصة القائد المنتهك للحرمات .

ولهذا يجب القول إن يعقوب وفق فى إقامة إصلاحات اجتماعية وعمرانية خلافا لكثير من الفاتحين العظام الذين ضيعوا عمرهم فى الفتوحات والغزوات ولم يوفقوا لمثل هذه الإصلاحات . ويحتمل أن يكون تعاون أخيه عمرو وأبناء عمه مثل أزهر وقواده المخلصين مثل عزيز بن عبد الله وشاهين بتو وغيرهم قد أدى إلى هذا النجاح الذى وصل إليه يعقوب فى النواحى الداخلية . ومع أنه لم يسترح ليلة واحدة من الحروب والمعارك ، وقضى عمره

على صهوة جواده ، ولم يخلع مهمازه من قدمه ، إلا أن فتحه لمدينة غزنين[١] بمساعدة أخيه عمرو[٢] ، وتعميره لمسجد الجمعة فى ميناء « مهروبان » فى خوزستان[٣] وحفره لترعة بمعونة إخوته فى سيرجان[٤] ، وأمثال ذلك تعتبر أعمالا عظيمة وعجيبة ، وتظهر اهتمامه بالعمران إلى جانب الفتح والغزو .

تعصبه وتدينه :

ومع كل هذا فلم يغفل يعقوب لحظة عن عبادة الله ، فكان يصلى كل يوم وليلة مائة وسبعين ركعة زيادة عن الفرض والسنة تعبداً وتقربا لله[٥] . ولهذا كان مهتما بتعمير المساجد وبناء الأماكن الخيرية . ومع أن حكمه لم يطل ، وقضى مدة حكمه فى حروب وصراع وسفر دائم ، إلا أنه لم يغفل عن العمران وبناء المساجد .

ويذكر الحكيم الإيرانى المعروف « ناصر خسرو » الذى نزل من السفينة بعد نحو ١٧٨ عاما على وفاة يعقوب فى ميناء مهروبان إحدى موانى خوزستان آنذاك ، وكانت تقع على الساحل بين هنديجان والديلم حاليا ، فيقول « رأيت اسم يعقوب بن الليث على منبر مسجد الجمعة هناك ، فسألت رجلا عن كيفية حدوث هذا . فقال الرجل إن يعقوب قد وصل فى فتوحاته إلى هذه المدينة ، ولم يكن لأحد بعده من أمراء خراسان مثل هذه القوة أو القدرة »[٦] .

ويسبب التعصب الدينى فان يعقوب لم يشهر سيفه قط فى وجه أحد من أهل الإيمان لم

---

(١) زين الأخبار ، ص ٩

(٢) تاريخ بيهقى ، ص ٢٦١

(٣) سفرنامه ناصرخسرو ، ص ١٣٠ .

(٤) آثار البلاد ، ذيل سيرجان ص ٢٠٤ .

(٥) تاريخ سيستان ، ص ٢٦٣ .

(٦) سفر نامه ناصرخسرو ، ص ١٣٥ .

يقصده بشر ، وكان يأخذ المعاذير الكثيرة قبل أن تبدأ الحرب ، ويشهد الله تعالى . وإذا أسلم شخص فإنه لم يكن يمس ماله ولا ولده[1] .

وكانت هذه الروح الدينية متأصلة فى أخيه عمرو الذى بنى الجامع العتيق فى شيراز ، وشيد المسجد الجامع فى جيرفت . والمعروف أن ألف شمعة كانت توقد فى صحنه كل ليلة .

مكار :

ومع هذا ، فان تضارب عادات هذا القائد العظيم مما يثير الدهشة والعجب ، فمع جلده وبطولته ، كان رجلا مكاراً ، حروبه كلها تقريبا مكر ، وسعة حيلته من أول أسباب نصره ونجاحه كما رأينا . ويبدو أن مؤامرته ضد درهم بن نصر وهو فى فراش المرض ، كانت نوعا من الحيلة والسبق . كما أن تفوقه على رتبيل وابنه كان مؤامرة ماكرة .

وعندما ذهب إلى نيسابور ، فان محمد بن طاهر كان إلى آخر لحظة لا يعلم الهدف من مجيئه ، حتى جاء لاستقباله وأبعد جميع أصحابه ، ومع هذا وفى نفس مجلس الاستقبال أمر يعقوب قائده عزيز بن عبد الله أن يقيدهم جميعاً .

وفى حرب فارس ، أخفى جيشه وضلل محمد بن واصل برسائل متعددة يطلب فيها التحالف معه ، بينما كان يرمى إلى خداعه . ولكنه كما يقول الجرديزى « لم تنطل عليه حيلة أحد أو مكره ، سوى مكر الخليفة المعتمد وحيلته ، فان الفخ الذى وضعه يعقوب فى طريق الخليفة وقع هو فيه بيديه ورجليه » .

الشبكة تأتى بسمكة كل مرة ولكن السمكة ذهبت بالشبكة هذه المرة .

---

(١) تاريخ سيستان، ص ٢٦٣.

نار فى يد وماء فى الأخرى :

كانت الحالات النفسية ليعقوب فى أكثر الأوقات متناقضة . ولهذا السبب قالوا عنه إن الشخص الذى يعاشره أربعين عاما لن يدرك من أموره وأسراره أكثر من الذى يعاشره أربعين يوماً . ففى إحدى المرات جاءه سفير الخليفة ، فلم يبد له أى احترام ولم يقبل رسالة الخليفة كما جرت العادة قبل ذلك وفى مرات أخرى عندما كان يجىء سفير الخليفة ، كان ينزل عن عرشه ويبسط سجادته ، ويصلى ركعتين شكراً لله [١] .

وكان يعقوب يعتقد فى الخرافات ، ولعل هذا يرجع إلى أصله الريفى البسيط ، فكان لا يتحرك بجيشه إلا فى الساعة التى يحددها المنجمون والمتنبئون بالغيب .

يقول ابن بلعم — وهو أحد سفراء الخليفة — « كنت يوما عند يعقوب، فالتفت إلى فجأة وقال « الآن سوف يلتجىء إلى رجل ومعه عدد من أمراء العرب » . ولم يمض وقت طويل حتى دخل الحاجب وقال : إن رجلا بالباب ومعه أربعة أشخاص يطلبون الأمان . فاستقبلهم يعقوب وعرف أنهم من فارس ، وأنهم جاءوا لاجئين ، وتعجبت كيف تنبأ يعقوب بهذا الحادث ، وسألته فقال « لقد كنت أفكر تلك اللحظة فى أوضاع فارس ، ولاحظت فى الوقت نفسه أن غرابا وقف على شجرة أمام القصر بينما تحركت أصابع قدمى ، وطبقا للعادات القديمة فقد حدست أن ضيفاً من العرب سوف يأتى إلى منزلنا » [٢] .

إن قسوة يعقوب ، وأحيانا طيبته الزائدة عن الحد لما يثير الاهتمام ، فكل هذه المسائل تضعنا أمام رجل لا يمكن تحديد خصائصه النفسية والأخلاقية أو شخصيته تحديداً دقيقاً ، ومع هذا فيمكن القول إن يعقوب لا يشبه أى قائد آخر إلا نفسه ، فقد كان ذا شخصية متميزة فريدة .

---

(١) تاريخ بيهقى، ص ٤٧.
(٢) وفيات الأعيان، جـ ٥ ص ٤٤٩.

مدة حكومته :

وقد استمر نفوذ يعقوب منذ استولى صالح بن نصر على بست إلى وفاة يعقوب (عام ٢٦٥) ٢٧ عاما ، ومنذ توليه السلطة بالتعاون مع درهم بن نصر (٢٤٤) ٢١ عاما ، ومنذ قضائه على درهم بن نصر واستقلاله وبيعة أهل سيستان له (٢٤٧) ١٨ عاما ، ومنذ قراءة الخطابة بأسمه وتوليه الملك رسمياً فى سيستان (٢٥٤) أحد عشر عاما . ولهذا فإن كثيراً من المؤرخين يذكرون أن مدة حكمه كانت إحدى عشرة سنة [١] .

ولا يمكن تحديد سن يعقوب بدقة لأن تاريخ ميلاده غير معروف .

---

(١) احياء الملوك ورقة ٢٧ .

الفصل الثالث والعشرون

لا يبقى الملك مع تربية الحمام ولا يمكن
أبقاء الملك بالهزل ويجب أن يقترن الملك
بالعدل والدين والسياسة والسوط والسيف
« تاريخ سيستان »

زوال سلسلة الصفاريين :

مع أن هذا الكتاب يتناول شرح أحوال يعقوب ، إلا أنه لكى نعلم إلى أين انتهت مساعيه لاستقلال سيستان ، فمن المستحسن أن نكتب بضعة أسطر عن خلفائه .

فعندما توفى يعقوب كان أخواه عمرو وعلى إلى جواره ، ولكن عمرو كان قد غضب من يعقوب ، وهجره وذهب إلى سيستان ، ثم عاد إليه قبيل وفاته بوقت قليل ، لهذا كان أمر على أنفذ فى الجيش وأعظم من أمر عمرو . وقد حدث بينهما خلاف وتناقشا فى هذا الأمر يومين حتى إذا كان اليوم الثالث عرض الأمر للتحكيم وقد خلع المحكمون خاتم السلطنة الذى كان فى يد على ، وأعطوه لعمرو (الأعور) .

وقد رأى عمرو تفرق الجيش ، وتشتت الجند بعد الهزيمة ، وتعب أفراده وبعدهم عن موطنهم فى سيستان وتذمرهم . ولهذا رأى من مصلحته أن يصالح الخليفة فبعث برسالة إلى المعتمد أظهر له فيها طاعته [1] . فمنحه الخليفة منشور حكومات كرمان واصفهان وسيستان وطبرستان والهند والسند وما وراء النهر بشرط أن يرسل له كل عام خراجا قدره ٢٠ ألف ألف درهم ، فعاد عمرو من جند يسابور إلى سيستان [2] .

(١) زين الأخبار ص، ١٥ .
(٢) نفس المرجع والصفحة

وفى تلك السنوات أتهم الموفق أخاه المعتمد بالجنون وحبسه واستقل بالخلافة .

أما عمرو فقد شرع يدبر أمور البلاد ، وكان ذكياً صائب الرأى [1] . وأعانة أزهر — الذي كان نائبا عن يعقوب فى سيستان — عونا عظيما ، وكان عمرو لا يحيد عن هديه أو إرشاده . ويمكن القول إن أزهر كان يشرف على كل أمور عمرو ، حتى شئونه الخاصة أيضاً . ويستنتج هذا من الحكاية التالية ، فيقولون إن عمرو بن الليث ، كان أعور ، فلما أصبح أميراً لخراسان ذهب يوما إلى الميدان ليلعب بالصولجان ، وكان له قائد يدعى أزهر الحمار . فجأة أزهر هذا وأخذ عنان فرسه وقال له « لا أدعك تضرب الكرة وتلعب بالصولجان » فقال له عمرو « وكيف تلعب أنت وتضرب الكرة ولا تجيز لى اللعب بالصولجان » ؟

قال أزهر « الآن لى عينان فإذا أصابت الكرة عينا فان عينا واحدة تعمى وتبقى لى العين الأخرى أرى بها بهاء الدنيا . ولكنك بعين واحدة ، فاذا وقع سوء وأصابت الكرة عينك فيجب أن تترك إمارة خراسان » .

قال عمرو « مع كل هذه » الحمورية « ، إلا أنك أصبت ، وقد صممت على ألا العب بالصولجان ما دمت حياً » [2] .

وهناك قصة أخرى عن عور عمرو ، فيقولون انه حينما انعقد لسان الخليفة المتضد وهو على فراش الموت ، طلب أحد خواصه وهو « بدر الصافى الحرمى » ولما كان لا يستطيع الكلام ، فقد وضع إحدى يديه على عينه وحرك الأخرى على عنقه (يريد أن يقول إنه يجب ضرب عنق الرجل الأعور) قاصداً بهذا عمرو بن الليث لأنه كان أعور . وقال آخرون

---

(١) زين الأخبار ، ص ١٧

(٢) قابوسنامه ص ، ٦٨

ان الصافى الحرى لم يقتل عمرا ، ولكن على أثر موت المعتضد واضطراب المدينةوالسجون مات عمر فى السجن جوعا[1] .

كان عمرو قد وضع أخاه عليا فى السجن ، وبعد فترة أطلق سراحه . وعندما ثار أحمد ابن عبد الله الخجستانى فى نيسابور ، قاد عمرو حملة على هذه المدينة ، ولما كان على قد تآمر مع احمد الخجستانى هذا ، فان الهزيمة لحقت بعمرو عام ٢٦٦ هـ ، فذهب إلى هرات ، وأعاد أخاه عليا للسجن ثم توجه إلى سيستان وفارس ، وعاد إلى سيستان مرة ثانية عام ٢٧٤ هـ (٨٨٧ م) .

وفى عام ٢٧٦ هـ هرب على الذى كان محبوسا فى برج قلعة بم وذهب إلى خراسان ، وبقى لدى رافع إلى أن مات فى دهستان ، وبهما قبرة . وفى هذا الوقت أصدر الموفق فى بغداد أمراً بإسقاط اسم عمرو من الفرمانات ، وتوفى الموفق عام ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) ، وتولى المعتضد الخلافة من بعده .

وفى عام ٢٨٥ هـ أرسل عمرو رسالة إلى الخليفة يطلب منه أن يمنحه حكومة ما وراء النهر التى كانت فى يد اسماعيل بن أحمد السامانى كى يستطيع أن يحارب العلويين فى طبرستان . ومما جاء فى هذه الرسالة « إذا لم تمنح ، اضطررت إلى خلع اسماعيل بن أحمد » فرد الخليفة على عمرو ولح باعطائه حكومة ما وراء النهر ، ولكنه كتب فى الوقت نفسه رسالة مختصرة إلى الأمير إسماعيل السامانى ، مضمونها « أننا لم نكف يدك بذلك العمل الذى عملناه ، والسلام » [2] وكان عمرو رجلا ذكيا ، وعلم بما حدث ، فلما وضعوا أمامه منشور ولاية ما وراء النهر ، قال : « ماذا أصنع بهذا ، ولا يمكن أن أستخلص هذه الولاية من إسماعيل بن أحمد السامانى إلا بمائة الف سيف مشهور ؟ [3] .

---

(١) ابن الاثير ، جـ ٧ ص ١٧٠

(٢) تاريخ سيستان ، ص ٢٥٤

(٣) زين الأخبار ، ص ١٨

وقد توجه الأمير إسماعيل على رأس عشرة آلاف مقاتل لقتال عمرو بن الليث[1] فتلاقيا فى بلخ ، ودارت بينهما حروب ضارية ، وفى آخر يوم هبت ريح كالصاعقة حولت النهار إلى ليل ، وأدت إلى هزيمة جيش عمرو الذى ظل يقاتل إلى أن وقع عمرو أسيراً يوم السبت لليلة بقيت من ربيع الآخر عام ٢٨٧ هـ (إبريل ٩٠٠ م)[2] .

وبعد مدة أرسل الأمير إسماعيل ، أسيره عمرو بن الليث إلى بغداد ، وكان عمرو قد أرسل ضمن هداياه جملا ذا سنامين كبير الحجم كأنه أنثى فيل ضخمة ، فحملوا عمراً على هذا الجمل فى بغداد فى ذلك اليوم[3] . فلما مثل أمام المعتضد قال « الحمد لله الذى كفانى شرك ، وفرغت القلوب من الانشغال بك » . ثم أمر بوضعه فى السجن[4] .

سبب الهزيمة :

لقد قيل الكثير عن سبب هزيمة عمرو ، ولكننى أدركت هنا نقطة لعلها أكثر تأثيراً من أى شىء آخر . فيبدو — من ظواهر الأمور — أن أهل سيستان والمحيطين بيعقوب وعمرو قد وصلوا تدريجيا ، بعد هذه الانتصارات والحصول على الغنائم الكثيرة والأسلحة والجواهر والنساء والغلمان الحسان ، إلى ماوصل إليه جنود آشور فى مواجهة الماديين وجيش الماديين أمام الهخامنشيين ، وقوات الهخامنشيين فى مواجهة الاسكندر ، والساسانيين فى مقابل العرب . وهو ما عبر عنه آلبير شاندور فى تعليل سبب هزيمة الماديين بقوله « إن قوما يلبسون السراويل المطرزة بالوورود الجميلة ، لن يستطيعوا الدفاع عن مفاخرهم الوطنية فى ميدان القتال »[5] .

---

(١) سياستنامه ص ١٧
(٢) تاريخ سيستان ص ٢٥٦
(٣) تاريخ سيستان ص ٢٦٣ و ٢٧٥
(٤) زين الأخبار ص ١٨
(٥) كورش كبير ص ١٥

ولقد قرأنا أنه عندما انتصر يعقوب بن الليث على طوق بن مغلس ، أخرج كسرة من الخبز من بين عمامته أو من رقبة حذائه الطويل ، وقال « لقد كان هذا غذائى الوحيد طيلة عشرين يوما » . ولكننا نرى أنه عندما توفى يعقوب ترك ٨٠٠ مليونا من الدنانير الذهبية ، غير باقى الغنائم. ولو فرضنا أن تعداد سيستان وتوابعها انذاك كان بالتقريب ، نحو مليون شخص ، لخص كلا منهم ٨٠٠ دينار (كان وزن الدينار انذاك ٤٫٥ جرام أى نحو مثقال) . ولهذا فإنه عندما ذهب عمرو بن الليث لحرب الأمير إسماعيل الساماني استعرض ٧٠ ألف فارس جميعهم بدروع الحرب وبالسلاح والعدة الكاملة . وكان مطبخه محمولا على أربعمائة جمل [١] .

أما فى الناحية الأخرى ، فعندما أحصى الأمير إسماعيل السامانى جنده بطرف هراوته وجدهم ألفين من الفرسان ، وكان أكثرهم يستعملون ركابات من الخشب ، وكان واحد من كل عشرة يحمل درعا ، ومن بين كل عشرين كان هناك واحد يلبس جوشنا ، ويحمل واحد من كل خمسين حربة [٢] ، وكان هناك رجل وضع جوشنه على سرج فرس اخر لعدم وجود فرس له .

على كل حال فقد أرسلوا عمرا إلى سجن بغداد ، وبقى فيه — حتى مات من الجوع عام ٢٨٨ هـ (٩٠٠ م) وهو الرجل الذى أنشأ ألف رباط (محطة للقوافل) وشيد خمسمائة مسجد جامع ومئذنة ، غير الجسور وعلامات الطريق .

خليفة عمرو :

جاء اسم طاهر بن محمد بن عمرو فى الخطبة فى محرم عام ٢٨٩ هـ كحا كم سيستان ، وقد

---

(١) سياسة نامة ص ١٥
(٢) سياسة نامة ص ١٧

عاد إليها فى غرة رجب سنة ٢٩١ هـ (مايو ٩٠٣ م) بعد حروب خاضها فلم يقابل أحـداً ، وقضى ليله ونهاره فى اللهو والشراب ، لم ير شيخا ، ولم يقابل قائداً ، وكان يحب البغال والحمام ويهوى جمعها ، والنظر إليها ، وقد ظهر التعصب بين أهل سيستان فى ذلك الوقت، وقتل من جراء ذلك أناس كثيرون [1] .

وقد استمر فى سياسته ونهجه على أساس إنفاق المال على لا شىء ، واللعب واللهو وعدم الاهتمام بالملك . وخشى عقلاء قواد الجيش من عاقبة هذا السلوك ، وأدركوا أن الملك لا يبقى مع اللعب بالحمام وقضاء الليل والنهار فى شرب المدام ، والانفاق من الخزانة وعدم الإيداع فيها ، وخشى كل شخص على نفسه . إلى أن طلب إياس ابن عبد الله ـ وكان رجلا معروفا بالعقل والكمال ، وخدم يعقوب وعمرو بن الليث ـ إذنا وذهب لمقابلة الأمير ، وقال له « لقد أخذنا هذا الملك بسيوفنا ، فهل تريد أن تحفظه بلهوك ؟ إن الملك لا يبقى بالهزل ، وإن الحاكم يجب أن يتحلى بالعدل والدين والسياسة والسوط والسيف » . ولم يعجبه هذا الكلام ، فأصدر أمراً بإبعاد إياس إلى كرمان [2] .

ولم يمض وقت طويل حتى جاء إلى سيستان الليث بن على واستولى على هذه المدينة ، واضطر طاهر للفرار ، وكان الليث بن على يلبس فى ذلك اليوم لبادة حمراء ولهذا أطلقوا عليه « الأسد ذى اللبادة » وكان هذا عام ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) .

وبعد هذا تولى محمد بن الليث حكومة سيستان . كما حكمها معدل بن على ابن الليث بعض الوقت إلى أن أسرهم أجمين أحمد بن اسماعيل السامانى ، وأعطى حكومة سيستان إلى ابن عمه أبى صالح منصور بن إسحاق الذى وصل إلى سيستان فى ربيع الأول عام ٢٩٩ هـ

---

(١) تاريخ سيستان، ص ٢٧٩

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) طبقات ناصرى، جـ ١ ص ١٩١ .

(أكتوبر ٩١١ م) وبقيت حكومة سيستان فى أيديهم إلى أن استطاع خلف بن أحمد وهو حفيد بنت عمرو بن الليث ، الاستيلاء على سيستان وبم . وقد وقع أسيراً فى يد السلطان محمود الغزنوى ، بعد كر وفر كثيرين ؛ فحبسه فى سجن جرجان ، وتوفى أثناء نقله من سجن إلى آخر فى رجب ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) .

ومنذ ذلك العام لم يذكر التاريخ أسما من أسماء آل الصفار فى سيستان ، سوى أن بعض الأمراء السيستانيين كانوا ينسبون أنفسهم إلى هذه الأسرة .

المراجع

آثار البلاد — القزوينى ، طبعة بيروت .

آثار العجم — فرصت شيرازى .

آخرين مأموريت — معز الدين مهدوى ، ١٣٤٣ هـ . ش ـ طهران .

أحياء الملوك (تاريخ سيستان ، نسخة مصورة بمكتبة مجلس النواب بطهران) .

أصول حكومت آتن — رسطو ، ترجمة باستانى باريزى ـ طبعة جامعة طهران .

اطلاعات ماهانه (مجلة) — مقالة « أزهر خر » لنصر الله فلسفى .

أمير ارسلان نامدار ـ تصحيح محمد جعفر محجوب ، ١٣٤٠ هـ . ش ـ طهران .

ايران باستان — المرحوم پير نيا ، مطبعة الجيب ١٣٤١ هـ . ش .

ايران در زمان ساسانيان — ترجمة رشيد ياسمى ، ١٣١٨ هـ . ش .

البدء والتاريخ — مطهر بن طاهر المقدسى ، طبع باريس ١٩٠١ م .

البلدان — اليعقوبى .

تاريخ أدبيات در ايران — الدكتور ذبيح الله صفا .

تاريخ الأمم والملوك — الطبرى ، طبعة محمود حلمى ١٩٣١ م .

تاريخ بخارى — النرشخى ، ١٣١٧ هـ . ش .

تاريخ بيهق ، أبو الفضل البيهقى ، تصحيح دكتور فياض ودكتور غنى ، ١٣٢٤ هـ . ش .

تاريخ التمدن الإسلامى — جرجى زيدان .

تاريخ خاندان طاهرى — الأستاذ سعيد نفيسى .

تاريخ رويان — أولياء الله — طبعة خليلى .

تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبيـــاء — حمزة الأصفهانى ، برلين ١٣٤٠ هـ .

تاريخ سيستان ، مجهول المؤلف ، تصحيح ملك الشعراء بهار ، طبعة ١٣١٤ هـ . ش .

تاريخ طبرستان — ابن اسفنـــديار ، تصحيح المرحوم اقبال ، ١٣٢٠ هـ . ش .

تاريخ عرب — فيليب حتى ، ترجمة محمد سعيدى .

تاريخ كرمان ، احمد على خان وزيرى ، تصحيح باستانى باريزى ، ١٣٤٠ هـ . ش .

تاريخ گزيده — حمد الله مستوفى ، طبعة مصورة ، ليدن ١٩١٠ م .

تجارب السلف — هندوشاه نخجوانى ، تصحيح عباس إقبال — طهران ١٣١٣ هـ . ش .

تذكرة الشعراء — دولتشاه السمرقندى — بمباى ١٣٠٥ هـ . ق .

تقويم البلدان — الترجمة الفارسية .

جغرافيا تاريخى إيران — بارتولد — ترجمـــة حمزه سردادور — ١٣٠٨ هـ . ش .

جوامع الحكايات ولوامع الروايات — محمد عوفى .

جهان نامه — محمد بن نجيب بكران ، تصحيح د . محمد أمين رياحى ١٣٤١ هـ . ش .

چند مقاله تاريخى وأدب — نصر الله فلسفى — طبع جامعة طهران ١٣٤٢ هـ . ش .

حبيب السير — خواندمير — طبعة الخيام ١٣٣٣ هـ . ش .

حدود العالم — مجهول المؤلف سنة ٣٧٢ هـ تصحيح د. منوچهر ستوده ١٣٤٠ هـ . ش .

الخراج فى الدولة الإسلامية — د. ضياء الدين الريس طبع القاهرة .

ذو القرنين يا كوروش كبير — أبو الكلام آزاد — ترجمة باستانى باريزى ط الثالثة .

روضة الأنوار — محمد باقر سبزوارى — ١٢٨٥ هـ ق .

روضة الصفا ـ مير خواند ـ طبعة ١٣٣٩ هـ ش .

زندگانى يعقوب ليث صفار (از رويگرى بسلطنت) — حسين يزدانيان ١٣٣٥ هـ ش .

زين الأخبار گرديزى ـ أبو سعيد بن عبد الحى گرديزى ـ باهتمام محمد ناظم برلين

زينة المجالس .

سخن (مجله) — السنة الخامسة ١٣٣٢ هـ ش .

سرزمينهاى خلافت شرقى ـ لسترانج — ترجمة محمد عرفان .

سلجوقيان وغز در كرمان — محمد بن ابراهيم ، تصحيح باستانى باريزى ١٣٤٢ هـ . ش .

سفر نامه — ناصر خسرو ، باهتمام غنى زاده — ١٣٤١ هـ ش .

سمك عيار — طبع بنياد فرهنگ ايران .

سياستنامه — نظام الملك الطوسى — تصحيح عباس إقبال — طبعة المعارف ١٣٢٠ هـ ش .

شاهنامهٔ فردوسى — مقدمة أديب الممالك — طبعة أمير كبير .

طبقات ناصرى — منهاج السراج — تصحيح عبد الحى حبيبى — كابل ١٣٤٢ هـ . ش .

عجايب المقدور — ابن عربشاه — ترجمة محمد على نجاتى .

عرفان (مجله) طبع كابل السنة السابعة ١٣٣٦ هـ . ش .

عقد العلى للموقف الأعلى — أبو حامد أفضل الكرمانى — تصحيح عامرى ١٣١١ هـ . ش .

فارسنامهٔ ناصرى — ميرزا حسن فسائى — طبعة حجر .

فرهنگ ايران باستان — ابراهيم بور داود — طهران ١٣٢٦ هـ . ش .

فرهنگ نو (مجله) — السنة الأولى ١٣٣١ هـ . ش .

قابوس نامه — امير كيكاوس بن اسكندر — تصحيح سعيد نفيسى طهران ١٣٤٢ هـ . ش .

الكامل — ابن الأثير — طبعة مصر ١٢٩٠ هـ . ق .

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر — ابن خلدون — القاهرة ١٩٣٦ .

كوروش كبير — آلبير شاندور — ترجمة د . هادى هـــدايتى — ١٣٣٥ هـ . ش .

لب التواريخ — يحيى بن عبد اللطيف القزوينى ١٣١٤ هـ.ش .

لطائف الطوائف — فخر الدين على صفى — تصحيح أحمد گلچين معانى ١٣٣٦ هـ . ش .

مجالس المؤمنين — القاضى نور الله الشوشترى .

مجمل التواريخ والقصص — مؤلف مجهول — تصحيح ملك الشعراء بهار — ١٣١٨ هـ.ش .

مجمل فصيحى — فصيحى خوافى، تصحيح محمـــــود فرخ خراسانى — ١٣٤٠ هـ.ش .

مروج الذهب — المسعودى — القاهرة، ١٣٤٦ هـ . ق .

المسالك والممالك — ابن خرداذبه.

المسالك والممالك — الاصطخرى — طبعة ليدن، ١٣٠٦ هـ.ق .

مسالك وممالك — ترجمة المسالك والممالك لايرج أفشار .

معجم الأنساب ـ زامباور ـ الترجمة العربية، القاهرة ١٩٥١ .

معجم البلدان — ياقوت الحموى — القاهرة، ١٣٢٣ هـ ق .

مقدمة ابن خلدون — ترجمة پروين گنابادى.

ميراث صوفيه — عبد الحسن زركوب — ضميمه مجله يغما ١٣٤٢هـ.ش.

النجوم الزاهرة — جمـــال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى — القاهرة .

نزهة القلوب — حمد الله مستوفى قزوينى — تصحيح محمد دبير سيلقى .

نوروز نامه — عمر الخيام — طبعة الجيب ١٣٤٣ هـ.ش.

ورزش باستانى در ايران — ذكائى بيضائى .

وفيات الأعيان — ابن خلكان — القاهرة ١٩٤٩ .

هفت سال در ايران — سيكس — ترجمة حسين سعادت نورى، ١٣١٦هـ.ش.

يادگار (مجله) — السنة الرابعة ١٣٢٦ هـ. ش .

يشت ها — زرادشت، ترجمة بور داود ١٣٠٧ هـ. ش. بمباى

يغما (مجله) السنة السابعة ١٣٣٣ هـ. ش .

محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة

الفصل الخامس

الفصل السادس

الموضوع	الصفحة

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الموضوع	الصفحة

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

الفصل الثالث عشر

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الموضوع | الصفحة

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الموضوع	الصفحة

الفصل العشرون

الفصل الحادى والعشرون

الموضوع | الصفحة

الفصل الثالث والعشرون

(رقم الإيداع ٤٢٦٦ / ٧٦)

